جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة كربلاء – كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الأدب في ظل بني حمود وبني زيري في الأندلس

((دراسة وصفية))

أطروحة تقدّم بها الطالب:

حيدر صاحب كاظم ألبودكة

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة كربلاء- قسم اللغة العربية

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة دكتوراه/ فلسفة في اللغة العربية وآدابها

بإشراف:

الأستاذ الدكتور

محمد حسين عبد اللّه المهداوي

٢٠٢١م　　　　　　　　　　١٤٤٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

((وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ))

صدق الله العلي العظيم

سورة القصص, الآية (٥)

الإهداء

إلى اللذيْن رَبّياني صغيراً

والدي ووالدتي..

وقد صعدت روحهما إلى الملكوت الأعلى

وأنا في أوّل الطريق إلى هذا البحث..

الباحث

الشكر والعرفان

الحمد لله ربّ العالمين, والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين..

أشكر الباري سبحانه وتعالى على ما أنعم به علينا من نعمة العلم والتعلّم, وأسجّل شكري وامتناني إلى السيد رئيس جامعة كربلاء ومساعديه, وأتقدم بالشكر الجزيل إلى السيد عميد كلية التربية للعلوم الإنسانية الأستاذ الدكتور حسن حبيب الكريطي.

وأوجّه شكري إلى الأستاذ الدكتور علي كاظم محمد علي المصلاوي, رئيس قسم اللغة العربية السابق, الذي في عهده تم إقرار عنوان هذه الأطروحة.

وإلى السيد رئيس قسم اللغة العربية الحالي, الأستاذ الدكتور ليث قابل الوائلي, وإلى الأستاذ المساعد الدكتور محمد عبد الرسول جاسم مقرر القسم.

وكذلك أودّ تسجيل احترامي وتقديري للأستاذ الدكتور (عدنان محمد آل طعمة) -رحمه الله تعالى- الذي أمدّني بكثير من المصادر والمراجع المطلوبة لهذه الدراسة.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى كل الأساتذة في قسم اللغة العربية/ جامعة كربلاء, وأخصّ منهم أساتذتي الأفاضل الذين درست على

أيـديهم في السـنة التحضـيرية: الأسـتاذ الـدكتور عبـود جـودي الحلـي, والأسـتاذ الـدكتور سـعيد عـدنان المحنـة, والأسـتاذ الـدكتور محمـد عبـد الحسـين الخطيـب, والأسـتاذ الـدكتور مكـي عيـدان الكلابـي, والأسـتاذ الـدكتور خضـير عبـاس درويـش, والأسـتاذ الـدكتور علـي كـاظم محمـد علـي المصـلاوي, والأسـتاذ الـدكتور محمـد حسـين عبـد الله المهـداوي, والأسـتاذ الـدكتور حربـي نعـيم الشـبلي, والأسـتاذة الـدكتورة كريمـة نومـاس المـدني, والأسـتاذ الـدكتور أحمـد صـبيح الكعـبي, والأسـتاذ المساعد الدكتور علي ذياب محيي.

ولا يفـوتني أن أشـكر مـن قـدّمَ لـي يـد العـون لإكمـال هـذا البحـث, ومـنهم العـاملون في: مكتبـة العتبـة الحسـينية المقدسـة, ومكتبـة العتبـة العباسـية المقدسـة, وإلى زملائـي الـذين وقفـوا إلى جـانبي في هذه الرحلة القاسية, والدرب الشاق...

ومن الله التوفيق..

الباحث

الملخص:

ازدهر الأدب في ظل دولتَيْ بني حمّود وبني زيري في الأندلس, وقام الخلفاء من بني حمود وبني زيري بتقريب الأدباء والشعراء إلى نواحيهم؛ ليكونوا الوسيلة الإعلامية التي عِبرها يتعرف الناس على مناقب هذا الخليفة أو ذاك, فضلاً عن التنافس الحاصل بين ملوك الطوائف أنفسهم, وهذا بدوره زاد من حركة الأدب في هذه المدة من عمر الدولتين في الأندلس.

وقد لعبت الأحداث السياسية –أيضاً– دوراً بارزاً في دفع عجلة النشاط الأدبي إلى الأمام, ممّا زاد رغبة الشعراء في الكتابة في الموضوعات الأدبية الجديدة. ولا ننسَ دوْر الطبيعة, فقد شجّعت الشعراء والأدباء وأخذت منهم مأخذاً كبيراً في الكتابة, حتى صار بعضهم يمزج بينها وبين الأغراض الشعرية الأخرى كالغزَل والمديح.

وقد اعتمد الباحث في هذا العمل على الدراسة الأدبية التاريخية؛ فمن واجب الدراسة الأدبية –مثلما هو معلوم– هو توضيح ما يخفيه النص الأدبي في طيّاته من عواطف وأفكار, وإحساسات, فالنشاط الأدبي كغيره من جوانب النشاط الإنساني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بجميع الظروف التي أحاطت في ولادة النص الأدبي, فقد وصف الشاعر الأندلسي في ظل دولتي بني حمود وبني زيري بيئته التي عاش وترعرع فيها, واستولت هذه الصور على ذهنه وأحاسيسه, وعبّر عنها في أشعار, وهذه الحركة الشعرية الدؤوبة التي تعددت روافدها, ساعدت على ظهور طائفة من الأدباء ممن جمعوا بين الصناعتين (الشعر والنثر), فقد كتب هؤلاء في أغلب الفنون النثرية, وكانت كتاباتهم صورة للواقع الذي عاشه الأدباء يومذاك, فتأثروا بالسياسة, فضلاً تصويرهم لواقع الحياة الاجتماعية.

وقد نشطت حركة التأليف أيضاً, وأُلّفت كثير من المؤلفات على عهد بني حمّود وبني زيري في الأندلس, وتفوق علماؤها في الكتابة والتأليف حتى طار صيتهم في الآفاق, وتفوقوا على أقرانهم من الأدباء والعلماء من الذين عاشوا في كنف ملوك الطوائف الأخرى, ولكن من المؤسف ضاعت أغلب نتاجاتهم الأدبية وبقي منها النزر اليسير.

وقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة على عدد من المصادر والمراجع التي تنوعت بين الأدب والتاريخ ودواوين الشعراء.

فهرست المحتويات

ت	الموضوع	الصفحة
١	**التمهيد: بنو حمّود وبنو زيري في الأندلس, نظرة عامة**	١-٢٦
٢	أولاً- بنو حمّود	١
٣	ثانياً- بنو زيري	١٤
٤	**الفصل الأول: معالم الأدب في ظل بني حمّود وبني زيري**	٢٧-٧٨
٥	المبحث الأول: النشاط الأدبي ومظاهره	٢٨
٦	المبحث الثاني: حركة التأليف في ظل الدولتين	٥٤
٧	**الفصل الثاني: أغراض الشعر التقليدية**	٧٩-١٤٠
٨	المبحث الأول: المديـح	٨٠
٩	المبحث الثاني: أغراض شعرية أخرى	١١٠
١٠	**الفصل الثالث: الموضوعات الشعرية المطورة**	١٤١-١٩٤
١١	المبحث الأول: الزهد	١٤٢
١٢	المبحث الثاني: وصف الطبيعة	١٥٥
١٣	المبحث الثالث: الإخوانيات	١٦٩
١٤	المبحث الرابع: الاستعطاف	١٧٨
١٥	المبحث الخامس: رثاء المدن	١٨٧
١٦	**الفصل الرابع: النثــر**	١٩٥-٢٦٥
١٧	المبحث الأول: النثر الفني	١٩٦
١٨	المبحث الثاني: النثر التأليفي	٢٣٣
١٩	**الخاتمة**	٢٦٦-٢٧١
٢٠	**المصادر والمراجع**	٢٧٢-٢٩٧

المقدمة:

الحمدُ للهِ ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وآله الطيبين الطاهرين..

أمّا بعد:

فقد ازدهر الأدب في ظل دولتَيْ بني حمّود وبني زيري في الأندلس, وقام الخلفاء من بني حمود وبني زيري بتقريب الكُتّاب والشعراء إلى نواحيهم؛ ليكونوا الوسيلة الإعلامية التي عِبْرها يتعرّف الناس على مناقب هذا الخليفة أو ذاك, فضلاً عن التنافس الحاصل بين ملوك الطوائف أنفسهم, وهذا بدوْره زاد من حركة الأدب في هذه المدّة من عُمر الدولتين في الأندلس.

وقد لعبت الأحداث السياسية –أيضاً– دوراً بارزاً في دفع عجلة النشاط الأدبي إلى الأمام, ممّا زاد رغبة الشعراء في الكتابة في الموضوعات الأدبية الجديدة.

ولا نَنْسَ دوْر الطبيعة, فقد شجّعت الشعراء والأدباء, وأخذت منهم مأخذاً كبيراً في الكتابة حتى صار بعضهم يمزج بينها وبين الأغراض الشعرية الأخرى كالغزَل والمديح.

ومن هنا زادت رغبتي في الكتابة عن أدب الحمّوديين والزيريين و–مثلما هو معلوم– أنَّ أدب الحمّوديين والزيريين لم يُسبق أنْ دُرس دراسة جامعية, في حين له من الآثار ما تستحق الدراسة وتجدر بالبحث, وقد قمتُ بالجمع بين الشعر والنثر على الرغم من أنَّ هناك صعوبة تنتظرني, ولكن تحت إغراء قيمة الموضوع زادت رغبتي بهذا الجمع, وأردتُ من وراء هذه الدراسة ألقي بشعر ونثر الدولتين إلى الوسط الجامعي.

إنَّ أي عمل لا يخلو من الصعوبات, والصعوبة التي واجهتني هي تفرّق المادة الأدبية بين المصادر, فضلاً عن إنَّ بعض الشعراء والأدباء لم تُجمع أشعارهم ونتاجاتهم, إمّا ضاعت وإمّا قد أسهمت النزاعات السياسية بين ملوك الطوائف يومذاك في ضياعها, فضلاً عن انتماء الدولتين العقائدي, فقد يحاول بعضهم طمس هذا التراث الأدبي.

وثمّة أمر آخَر قد واجَهَ الباحث في هذه الدراسة, وهي مسألة تواجه أغلب الباحثين الذين يتصدّون لدراسة حقبة معيّنة أو أدب دولة ما[١], وهي إنَّ بعض الشعراء لم يتقرّب إلى الخلفاء الحمّوديين والزيريين, ولكنهم كتبوا أشعاراً في بقية الأغراض والموضوعات الشعرية, فمن المؤكد أنَّ أشعارهم تنضوي ضمن أدب الدولتين, وبخاصة أنها قيلت في الحقبة من عُمر الدولتين, وفي المدن التي كانت تابعة لسلطانهم, وهي تُسجّل ضمن حرية الأديب يومذاك, الذي لا يرغب في التقرّب للخلفاء, ولكنه يعيش بحرية وأمان, على النقيض من سياسة ملوك الطوائف الأخرى.

قامت هذه الدراسة على تمهيدٍ, وأربعة فصولٍ, وقد قام الباحث في التمهيد بالتعريف ببني حمّود وبني زيري, والحديث عن أهمّ الأحداث التي رافقت حكومتهم في الأندلس, والحديث عن أهم المناطق التي كانت تحت سلطانهم.

وقد درس الفصل الأول معالم الأدب في ظل الدولتين, واشتمل على مبحثين, تناول الباحث في المبحث الأول الشعراء والأدباء ودوْر الخلفاء في تعزيز النشاط الأدبي, ودرسَ المبحث الثاني حركة التأليف في ظل الدولتين والتعريف بأهم الكتب التي أُلّفت في هذه المدة من عُمر الدولتين, وإماطة اللثام عن بعض الجوانب التي أدت إلى ضياع بعض النشاطات الأدبية.

وجاء الفصل الثاني لدراسة الأغراض الشعرية التقليدية, وقد اشتمل على مبحثين, كان المبحث الأول مخصصاً لدراسة قصيدة المديح الأندلسية في ظل الدولتين, وتحدّث المبحث الثاني عن الأغراض الشعرية الأخرى, مثل: الهجاء والرثاء والغزل.

وعُقد الفصل الثالث لدراسة الموضوعات الشعرية المطوَّرة التي نَمَتْ وازدهرت في ظل الدولتين, في مباحث خمسة, خُصّص المبحث الأول للزهد, والمبحث الثاني لوصف الطبيعة, والمبحث الثالث للإخوانيات, والمبحث الرابع للاستعطاف, والمبحث الخامس لرثاء المدن.

---

(١) ينظر: حركة الشعر في مصر الفاطمية: ٩.

ووقف الفصل الرابع على النثر, وقد قُسّم على مبحثين, فقد جاء المبحث الأول مخصصاً لدراسة النثر الفني والتعريف بأهمّ الموضوعات النثرية التي ازدهرت في ظل الدولتين, مثل: الرسائل, والأمثال, والمقامات.

وتحدّث المبحث الثاني عن النتاجات الأدبية والتعريف بأهمّ الكتب التي أُلّفت في هذه المدة من عُمر الدولتين, المطبوعة والمخطوطة.

وقد قامت الدراسة بوصف حال الأدب في ظل الدولتين, مُعتمدةً على تحليل الظاهرة ورصدها وتحديد أصولها؛ فمن واجب الدراسة الأدبية –مثلما هو معلوم– هو توضيح ما يخفيه النص الأدبي في طيّاته من عواطف وأفكار, وإحساسات, فالنشاط الأدبي كغيره من جوانب النشاط الإنساني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بجميع الظروف التي أحاطت في ولادة النص الأدبي[١], وتوقّف الباحث –أيضاً– على الجانب الفني في بعض النصوص الأدبية الشعرية والنثرية منها, وبيّن أهم الجوانب الفنية العامة التي أحاطت بالنص.

فالدراسة الفنية في مثل هكذا موضوع يجمع بين الشعر والنثر, تحتاج إلى دراسة مستقلة, و–مثلما أسلفنا– فقد انصبَّ اهتمام هذا البحث بوصف حال الأدب في ظل الدولتين.

وقد اعتمد الباحث على عدد من المصادر والمراجع التي تنوّعت بين كُتُب التاريخ والأدب ودواوين الشعراء.

وفي الختام, أتوجّه بالامتنان العميق لأستاذي الفاضل العالِم الدكتور (محمد حسين عبد الله المهداوي), فقد تولّى الرسالة وصاحَبَها بالعناية والرعاية والتوجيه.

هذا العمل, إنْ أصبت فيه وذلك ما قصدته وما أطمح إليه, وإنْ أخطأت فكلٌّ ابن آدم خطّاء, وقد قيل قديماً: "لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نقصانُ".

---

(١) يُنظر: إشبيلية في القرن الخامس الهجري (دراسة أدبية تاريخية): ٧ و ٩.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربَّ العالمين, والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

التمهيد

بنو حمّود وبنو زيري في الأندلس

- نظرة عامة -

بنو حمّود وبنو زيري في الأندلس, نظرة عامة

أولاً- بنو حمّود:

يرجع نسب الحمّوديين إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام), وهي أول دولة علوية في الأندلس, قامت بعد سقوط دولة بني أمية[١].

ومن الجدير بالذكر أنّ الحموديين كانوا يلقبون في المغرب بالأدارسة, نسبة إلى جدهم إدريس الذي توجّه إلى المغرب[٢], بعد نجاته من واقعة فخ[٣]؛ فالحموديون والأدارسة كلاهما واحد, ولكن الاختلاف في السلسلة العلوية التي تلتقي في النهاية بالجد الجامع, وهو الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام).

---

(١) ينظر: الكامل في التاريخ: ١٣٦١؛ والبيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ج٣: ١١٩؛ وتاريخ ابن خلدون المسمى بـ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر, ج٣: ١٩٥.

(٢) ينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر, ج٣: ٢٤٦ وما بعدها؛ ومقاتل الطالبيين: ٢١٦؛ وصبح الأعشى في صناعة الإنشا, ج٥: ١٨٠؛ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب: ج٢: ٢٠٥.

(٣) فخ: وادي بمكة, وهو اليوم الذي خرج فيه أبو عبد الله الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام), يدعو إلى نفسه في ذي القعدة سنة ١٦٩هـ, وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة في المدينة, وعند وصوله إلى هذا الوادي, لقيته جيوش العباسيين, فبعد أن بذلوا له الأمان, غدروا به, ورماه رجل اسمه مبارك التركي, وحملوا رأسه إلى خليفتهم الهادي, وقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته وتركوهم في العراء ثلاثة أيام حتى قيل لم تكن مصيبة بعد كربلاء, أشد من واقعة فخ. ينظر: معجم البلدان: ج٤: ٣٧-٣٨.

وعلى الرغم من قرابة الحموديين من رسول الله, إلّا أنهم لم يعتمدوا على هذه القرابة عند دخولهم إلى الأندلس(١), فعليّ بن حمود(٢) أول خلفائهم, لم يستند في دعواه إلى قرابته من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم), وإنما أخرج كتاباً للناس نسبه إلى هشام بن الحكم(٣), يستغيث الأخير من سليمان المستعين(٤), ويولي ابن حمود الأخذ بثأره, وبهذا يكون قد اكتسب الشرعية والحق(٥).

ولعلَّ اعتماد هشام المؤيد على الخليفة الحمودي في الأخذ بثأره, جاء من كثرة الأخبار التي كانت تتداول من الأندلسيين, من أنّ الحموديين يحكمون في الأندلس من بعد دولة بني أمية, فضلاً عن إنّ هشاماً كان يشتغل بالملاحم, ويؤمن بالتنجيم, وهذا ما ذكره المقري في نفح الطيب, في معرض حديثه عن النزاع بين الحموديين والأمويين قائلاً: "وكان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم, ويؤمن بالتنجيم, ووقف على أن دولة بني أمية تنقرض على يد علوي أول اسمه عين, فلما دخل

---

(١) بنو حمود: ملوك قرطبة, الذين ينتسبون إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم), لم يلوّحوا بهذا النسب كثيراً. ينظر: تاريخ الأدب العربي, عمر فرّوخ, ج٤: ٣٩١.

(٢) علي بن حمّود: هو علي بن حمّود بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) أول ملوك الأندلس, لقبه الناصر لدين الله, كنيته أبو الحسن, بويع له بقرطبة سنة سبع وأربعمائة, استقام له الملك عام وبضع شهور, إلى أن قتله صقالبته بالحمام سنة ثمان وأربعمائة. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٨٥ وما بعدها, والبيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي, ج٣: ١١٩ وما بعدها؛ ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, مج١: ٤٣١.

(٣) هشام بن الحكم: هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر, دامت خلافته في قرطبة أكثر من أربع سنين, وهو آخر ملوك بني أمية في الأندلس. ينظر: البيان المُغرب, ج٣: ١٤٥.

(٤) سليمان المستعين: هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر قتلَهُ علي بن حمود عند دخوله إلى قرطبة, وقتل أباه في اليوم نفسه في سنة ٤٠٧. ينظر: البيان المُغرب, ج٣: ٩٢؛ والمعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب:٩١.

(٥) ينظر: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ج٣: ١١٦؛ والتشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية, محمود علي مكي: ٤٦.

سليمان مع البربر قرطبة, ومحو كثيراً من محاسنها, ومحاسن أهلها, كان أكبر أمرائهم علي بن حمود, وبلغ هشام المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه, فَدَسَّ إليه أنَّ الدولة صائرة إليك, وقال له: إنّ خاطري يحدثني أن هذا الرجل يقتلني يعني سليمان, فإن فعل فخذ بثأري"(١).

اتسم حكم الدولة الحمودية في البداية بالعدل والإنصاف للمظلومين؛ فقد سار علي بن حمود سيرة حسنة مع أهل قرطبة, وقد جاء في جوابه على رسالة من أحد ملوك الطوائف, يوصيه الأخير بأهل قرطبة, يقول فيها:

"وصيتك بأهل قرطبة وغيرهم مقبولة, ونصيحتك فيهم متبوعة, ولن يرَوْا منّا, ولن تسمع فيهم عنّا, إلّا كما يعجبك, ويسرّك, ويُجذِلُك, ويُبهِجُك, وإنما هدى أدلهم بأولنا, وأسبغ النعم على سلفهم بسلفنا, وهل يؤملون أحنى وأراف بهم منّا, أم هل لمن أتاه الله رُشده, وشرح بالإيمان صدره, رغْبةٌ عنّا, وهل ينكر فضلنا إلّا جاهلٌ, ويدافع حَقّنا إلّا مُعاند خاسر؟"(٢).

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, مج١: ٤٨٢.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ١٠١. والرسالة هي رد على رسالة منذر بن يحيى أمير سرقسطة, كتبها ابن برد الأكبر (٤١٨هـ) عن علي بن حمود, كان علي بن حمود يشعر بالرعية, ويحبهم, ويلطف بهم, وكأن كلام جدّه أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى مالك الاشتر, كان نصب عينيه, فقد نقل لنا ابن بسام عنه كلاماً في معنى الرعية, يقول فيه: "إنَّ الله تعالى قلّدني من رعاية عباده, وحملني من سياسة خلقه, وعصب بي من تدبير أمورهم, وإصلاح شؤونهم, وألزمني من النظر لهم, والعمل بما يصلحهم, ما لا حول لي فيه ولا قوة, عليه إلّا بعونه وتأييده, ولا هداية إلّا بتوفيقه وتسديده, وإنَّ الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح, صلاحهما وفسادهما متصلان, ونماؤهما ونقصانُهما مُنتظمان". ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ١٠٢؛ وينظر: نهج البلاغة: ٤١٥.

ولذلك أحبّهم أهل قرطبة وسائر أنحاء الأندلس(١), لكن هذه المعاملة الحسنة مع القرطبيين لم تدم طويلاً, فسرعان ما انقلب عليهم الخليفة الحمودي عندما أحسّ بميلهم إلى الخلفاء الأمويين(٢).

والتغيير الحاصل من القرطبيين تجاه الحموديين, جاء على ما يبدو من كثرة الاتهامات والأباطيل التي يوجهها البعض لهم(٣), لكن حُسن المعاملة مع الرعية, واللطف بهم, التي اتّبعها علي بن حمود في السابق مع أهل قرطبة, جعلتهم يميلون إلى الحموديين؛ فبعد التغييرات التي جرت في قرطبة, وعودة بني أمية للسلطة(٤), جعلت ابن حزم وابن شهيد يتوجهان إلى ابنه يحيى المعتلي, ويطلبان منه المجيء إلى قرطبة, فابن شهيد يكتب قصيدة إلى يحيى المعتلي, يبيّن فيها مدى الظلم الذي وقع عليه من بني أمية, ولكن طموحُه بالمعتلي كبير في إرجاع حقوقه المهضومة, مثلما قال: [الطويل]

---

(١) ينظر: الشيعة في الأندلس (الخلافة الحمودية العلوية), كاظم شمهود طاهر: ٧٧.

(٢) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٨٨؛ والبيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ق٣: ١٢٢ وما بعدها.

(٣) أبو جعفر بن عباس وزير زهير الصقلبي صاحب المرية, يكتب رسالة يتهم فيها أحد الخلفاء الحموديين بالإلحاد, وعدم الإيمان, وسبّ الصحابة, وأخذ الرشوة..., حتى إنّ الدكتور محمود علي مكي يعلّق على هذه الافتراءات, قائلاً: هذا مما لا يتقبله العقل والمنطق. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥٠١؛ والتشيع في الأندلس: ٢٩؛ وعبد الله البرزالي صاحب جيان أنب سليمان المستعين عندما نصب علي بن حمود قائداً على الحركة العلوية, وقال له: بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب, قال له: نعم, فأجابه البرزالي: أليس العلويون طالبيين, قال: نعم, فقال له: تأتي إلى خشاش وتردهم ثعابين, فقال له سليمان: نُفذ الأمر في ذلك. ينظر: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ج٣: ١١٤؛ وأعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ١٢٨.

(٤) بعد مقتل علي بن حمود عيّن أهل قرطبة القاسم ثم يحيى المعتلي, ثم بعد ذلك تم تعيين يحيى مرة, والقاسم مرةً أخرى, فضلاً عن عودة بني أمية للحكم أكثر من مرة. ينظر: الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء: ٣٢.

علـــيكم بـــداري فاهـــدِموها دعائمـــاً

ففــي الأرض بنّــاؤون لــي ودعــائم

لـــئن أَخرَجَتْنِـــي عـــنكُمُ شَــرُّ عصــبةٍ

ففـــي الأرض إخــوانُ علــيَّ أكــارم

وإن هشّــــــمتْ حقـــــــي أميــــــة

فهاتـا علـى ظهـرِ المحجَّـةِ هاشمُ[١]

لا يخلو حكم الدولة الحمودية من نزاعات داخلية بين الأسرة الواحدة, وهي أحد الأسباب التي أدت إلى تقلص رقعة الدولة[٢], فضلاً عن النزاعات الخارجية مع الطوائف الأخرى[٣].

إنَّ النزاعات الخارجية مع الطوائف الأخرى تسببت في إنهاء سيطرة الحموديين على قرطبة وما يجاورها[٤], وعودتهم إلى مالقة, والجزيرة الخضراء[٥], ويبدو أن هذه المناطق الأخيرة كانت تحقق طموحات الحموديين أكثر من غيرها؛

---

(١) ديوان ابن شُهيد: ١٥٤.

(٢) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٣٧٠ وما بعدها؛ والبيان المُغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب, ج٣: ١٣٢ وما بعدها؛ والحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء: ٣٥.

(٣) إشبيلية كانت تابعة للحموديين شكلياً, يحيى بن حمود أراد فرض سيطرته عليها, ولكن الإشبيليين بقيادة ابن عباد استطاعوا التخلص منهم, وقتل يحيى ابن حمود سنة ٤١٧هـ. ينظر: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ١٣٧؛ وملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام: ١٣٧؛ والحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء: ٣٣.

(٤) ينظر: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ج٣: ١٢٢ وما بعدها؛ وملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام: ١٣.

(٥) الجزيرة الخضراء: مدينة مشهودة في الأندلس, من أشرف المدن وأطيبها, سميت بالخضراء لكثرة البساتين, وهي مدينة طيبة بأهلها, جامعة لفائدة البر والبحر, قريبة المناف من كل وجه؛ لأنها وسطى عرب الساحل, وأقرب مدن الأندلس لبلاد المغرب, نُسب إليها جماعة من أهل العلم. ينظر: معجم البلدان, ج٢: ١٣٥؛ والروض المعطار في خبر الأقطار: ٢٢٣.

لعوامل متعددة؛ جغرافيّة, وعسكرية, ومادية؛ ذلك أنّ هذه المناطق هي أقرب مناطق الأندلس إلى المغرب, فتُصبح المغادرة وقت الضرورة أمراً سهلاً, وكذلك تستطيع أخذ الإمداد من أقوامها في المغرب بسهولة وسرعة(١), فضلاً عن الإيرادات التي تعود على الخلفاء الحموديين من هذه المناطق التي تصل إلى أعلى بكثير من الإيرادات التي تعطيها قرطبة وما يجاورها(٢).

دامَ مُلك الحموديين في الأندلس ما يقارب النصف قرن من الزمان, توزع على كثير منهم(٣).

بنو حمّود في مالقة والجزيرة الخضراء:

مالقة: مدينة حَسِنة, جامعة لعدّة فوائد, وصَفَها الشريف الإدريسي (٥٦٠هـ), بأنها: "كثيرة الآبار, متسعة الأقطار, أسواقها عامرة, ومتاجرها دائرة, ونِعَمها كثيرة, ولها فيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين, وتينها يُحمل إلى مصر, والشام, والعراق, وربما وصلَ إلى الهند, وهو من أحسن التين طيباً, وعذوبة..."(٤).

---

(١) ينظر: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي: ١٤٤.

(٢) ينظر: الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء:٣١.

(٣) ينظر: م. ن: ٥٤ وما بعدها؛ وتاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي, ج٣: ١١.

(٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: أبو عبد الله, الحموي, مج٢: ٥٦٥.

تينُ مالقة, مشهور, ومنها يُجلب إلى بلاد المشرق والمغرب, وإلى ذلك أشار القاضي الشهير أبو محمد عبد الله بن سليمان حوط الله الأنصاري, عندما ولي قضاء مالقة, وقدِمَ عليها, خرج طلبتها إلى لقائه, فأنشدهم: [السريع]

مالقــة حييــتَ يــا تينهــا ... الفُلــك مــن أجلــك يأتينهــا

نهى طبيبي عنكِ في علّتي ... ما لطبيبي عن حياتي نها

ينظر: الروض المعطار: ٥١٨؛ ورحلة ابن بطوطة: ٦٨٢.

فضلاً عن هذه الفوائد التي ذكَرها الإدريسي آنفاً, فقد وصفوها القدامى, أنّها: آمنة من جوع وسبي[١].

وكَتَبَ لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ) في مشاهداته, رسالة طويلة يقارن فيها بين مدينة مالقة وسلا[٢], يبيّن لنا مدى أهمية هذه المدينة من حيث الجمال, والعمارة, والصناعة, والزراعة, فضلاً عن الحكّام الذين سكَنوها, ويَذكر منهم: بنو حمود, وبنو زيري[٣].

وهذه المحاسن التي تتمتع بها مدينة مالقة؛ هي التي جعلت بنو حمود يرغبون في الاستقرار فيها؛ فإيراداتها تصل أعلى بكثير مما تعطيه المدن الأخرى بالأندلس[٤].

وقد تمكّن بنو حمود من السيطرة على مالقة, منذ بداية عصر الطوائف, ففي أوائل القرن الخامس للهجرة, نشبت الفتنة في قرطبة في أعقاب سقوط الدولة

---

(١) هذه الكلمات وُجدت في بعض حجارتها نقشاً بالقلم الإغريقي, يُنظر: الروض المعطار: ٥١٨.

(٢) سلا: مدينة بأقصى المغرب, ليس بعدها معمور إلّا مدينة صغيرة, يقال لها: عزينطوف, وهي مدينة متوسطة في الصغر والكبر, وقد حاذاها البحر, والبر, يُنظر: معجم البلدان: ج٣: ٢٣١.

مقارنة لسان الدين الخطيب بين سلا ومالقة, يُخيّل لي, أنه كان متأثراً بالمشرق, فقد جاء في كتب المشارقة مثل هذا الأمر, فقد ذكر الجاحظ المحاورة التي دارت بين رجل من أهل مكة وبين محمد بن المناذر الشاعر, يُنظر: البيان والتبيين, ج١: ٣٣, وكذلك ما ورد في كتاب التعليقات والنوادر, ج٢: ١٦٤ من مقارنة بين البصرة والكوفة.

(٣) يُنظر: مشاهدات لسان الدين الخطيب (في بلاد المغرب والأندلس): ٥٧-٦٠.

(٤) يُنظر: الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء: ٣١.

العامرية, فانتهزَ علي بن حمود أمير سبتة[١] الفرصة, وعَبَرَ إلى مالقة, واستولى عليها[٢].

وعند استقرار الحموديين في مدينة مالقة, قاموا ببناء قصر في قصبة مالقة, عُرِف بقصر بني حمود, حتى إنّ الاكتشافات الحديثة لم يكن في حسبانها اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل, الذي يرجع إلى القرن الحادي عشر للهجرة[٣].

كان الحموديون على علاقة طيبة مع أهل مالقة, فقد ذكَرَ لنا صاحب كتاب جذوة المقتبس, في سياق حديثه عن إدريس بن يحيى[٤], قائلاً: "كان أرحم الناس قلباً, كثير الصدَقَة, يتصدق كل يوم جمعة بخمسمائة دينار, ورَدَّ كُل مطرود عن وطنه إلى أوطانهم, ورَدَّ عليهم ضياعهم, وأملاكهم, ولم يسمع بَغياً في أحد من الرعية..."[٥].

---

(١) سبتة: بلدة مشهورة, من قواعد بلاد المغرب, تقابل جزيرة الأندلس, يُنظر: معجم البلدان, ج٣: ١٨٢.

(٢) يُنظر: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس للهجرة): ١٤.

(٣) قام يحيى المعتلي ببناء قصر مالقة, ولم يبقَ من هذا القصر الذي أضيف إليه في عصر بني نصر سوى قاعة, يبلغ طولها (٧,٥٠) متراً, وعرضها (١٣) متراً, وتنتهي جنوباً بشرفة رائعة تطل على البحر, وعندما بدأت الحفائر في قصبة مالقة سنة ١٩٣٦م, لم يكن في الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل الذي يرجع إلى القرن الحادي عشر للهجرة, يُنظر: المساجد والقصور في الأندلس: ٦٨؛ والقصور في الشعر الأندلسي: ١٩.

(٤) إدريس بن يحيى المعتلي, بويع من قبل أهل مالقة سنة ٤٢٧هـ, وتَسَمّى بالعالي, يُنظر: جذوة المقتبس, ج١: ٦٥؛ ومالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس للهجرة): ١٦.

(٥) جذوة المقتبس, ج١: ٦٥.

ويبدو أنَّ الخلافات الداخلية بين الأسرة الحمودية؛ تسببت في خلع إدريس العالي, الذي كان على أحسن حالٍ مع الرعية, فضلاً عن تدخل الجند في أمور الدولة, مما تسبب ذلك في دخول الدولة الحمودية في حرب مع محمد المهدي[١], الذي بويع له بمالقة يوم خلْع عمّهُ إدريس العالي[٢].

ويبدو –أيضاً– أنَّ الدولة الحمودية قد أخذت بالضعف بعد تولّي محمد المهدي الحكم فيها, ومن بعده ثلاثة من بني حمّود, تنتهي بعدهم دولة بني حمّود[٣].

وينتهز باديس هذه الفرصة, إذ سار بجيشه إلى مدينة مالقة واستولى عليها, بعد ما كان بنو زيري ينضوون تحت لواء الحموديين[٤].

ويعزو الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في مذكراته, سبب استيلاء جدّه على مالقة؛ للحفاظ عليها من يد الطامعين؛ ولذلك بنى باديس "قصبتها بنياناً لم يقدر

---

(١) محمد المهدي: هو محمد بن إدريس المتأيّد بن الناصر علي بن حمود, يكنى أبا عبد الله, بويع بمالقة سنة ٤٣٢هـ, فتمت له الأمور, وبايعته البلاد, فضبطها وأحسنَ تدبيرها, يُنظر: البيان المغرب, ج٣: ٢٩٢.

(٢) العلاقة الطيبة التي يتمتع بها إدريس العالي, أغضبت جندهُ السودان, فراسلوا ابن أخيه محمد بن إدريس, وجرت بين إدريس وابن أخيه محمد, حروب كانت الغلبة لابن أخيه, الذي تسلم الأمر من بعده, ينظر: البيان المُغرب, ج٣: ٢٩١؛ ومدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها: ٤٦.

(٣) بعد وفاة محمد المهدي, تعرضت مالقة للعديد من الفتن والاضطرابات, وتتابع على حكمها ثلاثة من بني حمود: إدريس بن يحيى الملقب بالسامي, ثم إدريس بن يحيى الملقب بالعالي, ومحمد المستعلي, ولما تولى الأخير نَكَلَ زعماء بني زيري عن مبايعته؛ ولذلك سارَ باديس بجيشه إلى مالقة وضمّها إلى إمارته. ينظر: دول الطوائف: ١٣٠ و ١٣١؛ ومالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف: ١٦.

(٤) ينظر: دول الطوائف: ١٦.

على مثله أحد في زمانه, وأعدَّها عُدّةً للمهمات, وكان الذي يتوقع من كَلَب سلاطين الأندلس واتفاقهم عليه؛ لذلك أن يتحصَّن فيها من استطاع ..."[1].

ويبدو أنَّ الذي كان يحذره باديس قد وقع؛ فأهل مالقة لم يكونوا راضين عن حكم باديس لهم؛ ولذلك استعانوا بابن عباد؛ للتخلص من حكم باديس, فضلاً عن إنَّ ابن عباد كانت أطماعه في ضم أكثر الدويلات الأندلسية معروفة لدى القاصي والداني[2], وبعد دخوله إلى مدينة مالقة, هنّأ المعتضد بالله أهل مالقة على انتصارهم, وبيَّنَ لهم مدى الجهد الذي بذله؛ لكي يتخلصوا من سلطان بني زيري, من نحو ما قال: [الوافر]

بـــذلنا جهـــدنا عزمـــاً وحزمـــا
وَوَطَّنـــا الكمـــاةَ علـــى الطعـــانِ
وأجهـــدنا العـــزائم والمســـاعي
وأعملنـــا الحســـام مـــع الســـنانِ
ليهنـــأ أهـــل مالقـــة انتصـــاري
وإعـــزازي لهـــم بعـــد الهَـــوانِ
ســـينقذهم وينجـــيهم جميعـــاَ
رضـــاع الخيـــر إنْ درّت لبـــاني[3]

ويوجّه الملك عبد الله (حفيد باديس) باللوم إلى أهل مالقة؛ لتفضيلهم ابن عباد على جده, على الرغم من كل الإصلاحات التي قدمها, وعلى كل المستويات, مثلما

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله (آخر ملوك بني زيري): ٤٣.

(٢) يُنظر: البيان المُغرب, ج٣: ٢١٨ و ٢٧٣ و ٢٧٤؛ ودول الطوائف: ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٢.

(٣) ديوان المعتضد بن عباد, مجلة المورد, المجلد الخامس, العدد الثاني, ١٩٧٦م: ١١٥.

قال: "وكان حصول ابن عباد عليها لدخِالةِ أهلها وميلهم إليه, اختياراً له علينا, على إحسان المظفَّر[١] رحمه الله إليهم, وأنه وجدهم على أسوأ حالة, فأصلح من أحوالهم كثيراً, وحمل فُقهاءها ومُقرئيها على المطايا, وأنزلهم على أفضل المراتب, ما كان مشهوراً عنه في الأقطار, إذ كانوا قبلُ في حالِ قلّةٍ وعلى غير رتبة, ثم كافأوه بما فعلوا"[٢]. وحُكم ابن عباد في مالقة لم يدُمْ طويلاً, فسرعان ما استنجد الجند بباديس, فاستجاب لهم, واستطاع القضاء على العبّاديين, إذ لم ترَ "من العبّاديين إلّا أسيراً, وقتيلاً, أو فازعاً إلى الفرار ما وجد إليه سبيلاً, وامتلأت أيدي الباديسيين من السلاح والكراع"[٣].

لم تكن مالقة المدينة الوحيدة التي كانت تحت سيطرة الحموديين, فإشبيلية والجزيرة الخضراء, كانتا تابعتين للحموديين أيضاً, ولكن سيطرة الحموديين على إشبيلية لم تدم طويلاً, فسرعان ما استطاع محمد بن عباد بذكائه السيطرة على المدينة, وإعلان انفصاله عن الحموديين[٤].

---

(١) المظفَّر: ويقصد به جدّه باديس بن حبوس.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ٥٨.

(٣) البيان المغرب, ج٣: ٢٧٤.

(٤) عيّنَ علي بن حمّود, أخاه القاسم والياً على إشبيلية, ولكن بعد مقتل علي بن حمود سنة (٤٠٨هـ), دُعي القاسم لتولي الأمر بعد أخيه في قرطبة, فعَهَدَ الأمر في إشبيلية إل ابن عباد, لكن أهل قرطبة لم يرغبوا بالقاسم بن حمود, فضلاً عن الخلافات الأسرية بين القاسم وابن أخيه يحيى, حاول القاسم الرجوع إلى إشبيلية, لكن الإشبيليين تمرّدوا عليه, وكتبوا إلى ابن أخيه يحيى في مالقة يعرضون عليه تبعيتهم الإسمية, ويذكروا اسمه في خطبة الجمعة, ويضربوا النقود باسمه, على أن لا يدخل مدينتهم, فرفضَ يحيى, ولكنه بعد ذلك اضطر بالقبول, بعدما قدّم محمد بن عباد ولده المعتضد رهينة, ثم بعد ذلك دارت معركة بين ابن عباد ويحيى الحمودي, كانت الغلبة فيها لابن عباد. ينظر: البيان المغرب, ج٣: ١٩٥؛ وتاريخ قضاة الأندلس: ٤٦؛ وإشبيلية في القرن الخامس: ١١٢ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٥.

والجزيرة الخضراء[١]: مدينة مشهورة بالأندلس, جامعة لفائدة البر والبحر, قريبة المنافع, وفضلاً عن هذا هي أقرب من الأندلس إلى بلاد المغرب؛ فهي تقع قبالة مدينة سبتة التي كانت تحت سيطرة الحموديين[٢]؛ وبهذا يستطيع الحموديون أخذ الإمدادات من بلاد المغرب وقت الضرورة[٣].

وكانت الجزيرة الخضراء تابعة للقاسم بن حمود, لكن الخلافات الأسرية بين القاسم وابن أخيه يحيى المعتلي؛ جعلت الأخير يعتقل عمّه القاسم, ويبقى القاسم في قبضة يحيى حتى وفاته سنة (٤٣١هـ), ولكن بعد وفاة يحيى المعتلي عادت الجزيرة إلى بني القاسم: محمد ومن بعده ولده القاسم[٤].

سادَ الاستقرار والسلام في عهد محمد بن القاسم؛ ولكن بعد وفاته, وتسلّم ولده السلطة, وبعد مضي سنوات, تحركت أطماع المعتضد نحو الجزيرة, ويبدو أنَّ القاسم أحسَّ بعدم مقدرته على الاستمرار في مواجهة جيش المعتضد؛ ولهذا اتفق مع وزيره وقائد جيشه على تسليمه البلاد[٥]؛ وبذلك تصبح الجزيرة في قبضة ابن عباد[٦].

---

(١) ويُطلق عليها جزيرة أم حكيم, وهي جارية طارق بن زياد. خلفها هذه الجزيرة فنُسبت إليها, وأهل هذه الجزيرة هم الذين أبَوْا أن يضيّفوا موسى والخضر (عليهما السلام), وبها أقام الخضر الجدار, وخرق السفينة, وفيها الملك الذي كان يأخذ من كل سفينة غصباً. ينظر: صفة جزيرة الأندلس: ٧٣ و ٧٤.

(٢) ينظر: معجم البلدان, مج٢: ١٣٦, و صفة جزيرة الأندلس: ٧٤.

(٣) ينظر: دول الطوائف: ١٤٧؛ و ص٦ من هذا البحث.

(٤) ينظر: المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب: ٩٠ و ٩٩ و ١٠٠.

(٥) من بعد وفاة محمد بن القاسم, اختار أهل الجزيرة ولده القاسم ليخلفه, وانقضى حكمه بسلام, حتى تحرّكت أطماع المعتضد نحو الجزيرة, وعلى الرغم من القوة القليلة التي كانت في حوزة القاسم؛ إذ لم تتجاوز المائتي فارس, فقد قاوم القاسم, ولكن المعتضد حين نظر إلى قوة القاسم, استعدّ أكثر, وسلّح أسطولاً مقابل الجزيرة, وحاصرها براً وبحراً, القاسم طلب المعونة من مواليه في المغرب, لكن لم يتحرك أحد لمساندته, مما اضطره إلى الاتفاق مع الطرف الآخر لتسليمه المدينة. ينظر: البيان المغرب, ج٣: ٢٤٢ و ٢٤٣؛ والحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء: ٥١.

(٦) ينظر: دولة بني حمود في الأندلس: ١١٣.

وبهذا انتهى حكم بني القاسم في الجزيرة الخضراء, الذي دام ثلاثاً وثلاثين سنةً, توزّع على اثنين من أمرائهم:

١- محمد الملقب بـ (المهدي), من ٤١٣هـ وحتى ٤٤٠هـ.

٢- القاسم الملقب بـ (الواثق): محمد بن القاسم, من ٤٤٠هـ وحتى ٤٤٦هـ[١].

---

(١) ينظر: الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء: ٥٨.

ثانياً- بنو زيري:

من قبيلة صِنهاجة[١], وتسمّوا بالبربر[٢], ومن المؤرخين العرب من يقول بأنّ صِنهاجة من حميَر[٣], ومن قصيدة لابن دراج القسطلي, يمدح فيها سليمان المستعين, ويشير إلى نسب صِنهاجة العربي, قائلاً: [الطويل]

قبائـــلُ مِـــن أبنـــاء عـــادٍ وجُـــرْهُمٍ[٤]
لهـــم صـــفْوُ مـــا تنميـــه عـــادٌ وقحطـــانُ[٥]

دخول بني زيري إلى الأندلس كان لسببين:

١- الخلافات الأسرية داخل المملكة الواحدة على عهد بني زيري في المغرب[٦].

---

(١) صِنهاجة بكسر الصاد: قوم بالمغرب من ولد صنهاجة الحميري. ينظر: القاموس المحيط: ٩٢.

(٢) إنَّ افريقش بن قيس بن صيفي لما غزا المغرب, ورأى هذا الجيل من البشر, وسمع رطانتهم, قال: ما أكثر بربرتكم, والبربر: هي اختلاط الأصوات غير المفهومة, وتقسم قبائل البربر على سبع قبائل, صنهاجة تشكل ثلث البربر ومنهم بنو زيري. ينظر: تاريخ ابن خلدون, ج٦: ١١٦؛ والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى, ج١: ١٢١.

(٣) ينظر: المُطرب في أشعار أهل المغرب: ٦؛ وتاريخ ابن خلدون: ٦؛ والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى, ج١: ١١٦ و ١٢٠ و ١٢١.

(٤) جُرْهُم: بطن من القحطانية, كانت منازلهم في اليمن, ثم نزلوا بمكّة واستوطنوها. ينظر: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة, عمر رضا كحالة, ج١: ١٨٣.

(٥) يتحدث عن فضل صنهاجة وزناتة في تأييد سليمان المستعين, ويشير فيها على اتصال نسب صنهاجة بعرب اليمن. ينظر: ديوان ابن دراج القسطلي: ٢٦ و ٥٥.

(٦) هناك خلاف بين مملكة بني زيري في أفريقية, أدى إلى انتقالهم إلى الأندلس, فكتبَ شيخهم زاوي إلى المنصور بن أبي عامر, رغبته في الدخول إلى الأندلس. ينظر: الكامل في التاريخ: ١٢٩٩؛ والبيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ج٣: ٢٦٣؛ والإحاطة في أخبار غرناطة, مج١: ٤٣١.

٢- لغرض سياسي: وهو أَنَّ المنصور بن أبي عامر أراد أن يكون أجناده من قبائل مختلفة, فضلاً عن الشجاعة التي تتمتع بها هذه الأسرة, وقد أعجب بها المنصور بن أبي عامر إيما إعجاب[١].

وكان بنو زيري في السابق أعداء لبني أمية, فصنهاجة كانت لها ولاية للإمام علي (عليه السلام), وفي الأندلس كانت تدين بالولاء لبني حمود, لكن دخولهم إلى الأندلس, كان عملاً سياسياً مثلما أسلفنا, مع المنصور بن أبي عامر[٢].

عظُم سلطان بني زيري في عهد المنصور بن أبي عامر؛ إذ كان ذراعه يتسع لهم في جميع ما يبسطون عليه من قولٍ أو فعلٍ, إلّا ما يتعلق بالحقوق الشرعية[٣], لكن الدولة العامرية لم تُعمِّر طويلاً, إذ بعد سقوط الدولة لم يرغب أهل قرطبة ببني زيري, فلما تبيّن لهم ذلك[٤], انتقلوا إلى البيرة[٥], وعندما رأوْا اقتطاع كل أمير بلدة لنفسه, وذهاب ما كانوا عليه من عز وجاه, أرادوا الرجوع إلى إفريقية, لكن أهل البيرة

(١) ينظر: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري: ١٦؛ والكامل في التاريخ: ١٢٩٩؛ وأعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ٢٢٧.

(٢) صنهاجة (بنو مناد) كانت تساند الحركات الشيعية في الدولة الفاطمية وبنو حمود, وكانوا من ألدِّ خصوم الدعوة المروانية والدولة العامرية, بخلاف قبائل (زناتة) التي كانت متقلدة آراء أهل السنّة, وكانت تدين بالولاء لبني أمية. ينظر: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ج٣: ٢٦٢؛ وأعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ٢٢٧؛ والإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٤٣٥؛ وتاريخ قضاة الأندلس: ٩١؛ وتاريخ ابن خلدون, ج: ٢٠١؛ ودول الطوائف: ١٢٢؛ والتشيع في الأندلس (منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية): ٤١.

(٣) ينظر: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ٢٢٩؛ والشيعة في الأندلس (الخلافة الحمودية العلوية): ٨٣.

(٤) ينظر: دول الطوائف: ١٢٢.

(٥) البيرة: وهي كورة كبيرة من الأندلس, بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً, تتمتع بخيرات وفيرة, وفيها عدة مدن, ومنها: غرناطة وغيرها. ينظر: معجم البلدان, ج١: ٢٤٤.

كانوا بحاجة ماسة لهم؛ فشجاعتهم التي أعجب بها المنصور بن أبي عامر في السابق, كان أهل البيرة بأمسّ الحاجة إليها في الوقت الحاضر[١].

وعلى الرغم من حرص أهل البيرة الشديد على المال, إلّا أنّهم كانوا يعرضون المال والسكنى على بني زيري, مقابل بقاء الأخير في ديارهم, وحمايتهم, والذبّ عنهم, فهم يوجهون رسالة إلى زعيمهم زاوي بن زيري[٢], يقولون فيها: "إن كنتم جاهدتم, قبل اليوم, فهذا الجهاد آكَد عليكم: أنفس تحبونها, وديار تحمونها, وعزّة تأوون إليها! ونحن شاركناكم بأموالنا وأنفسنا: لكم منّا الأموال والسكنى, ولنا منكم الحماية, والذبّ عنّا!"[٣], وعندما اطمأنَّ زاوي بن زيري إلى كلامهم, وافقهم على البقاء, لكنه رأى من الصواب الانتقال إلى مكان آخر قريب من البيرة, يصلح للدفاع, فوقعت أنظارهم على وادي شُنيل[٤] المنحدر من جبل شُلير[٥], لتكون هناك مدينة جديدة ينزلون بها, وتكون معقلهم[٦], وهكذا أُنشِئَتْ مدينة غرناطة[٧].

---

(١) يحدثنا الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري: بأنّ أهل البيرة كان بهم من الغش بعضهم لبعض بحيث إن الرجل ليتخذ بجانب داره مسجداً أو حماماً؛ فراراً من جاره, ويصفهم بأنهم كانوا أجبن الناس, ولا يستطيعون على قتال أحد ولو كان الذباب, ينظر: مذكرات الأمير عبد الله: ١٩.

(٢) هو زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي, كان شجاعاً حازماً, حصيف الرأي, دخل إلى الأندلس على عهد المنصور بن أبي عامر, وكان بصحبته ابنا أخيه ماكسن, وحبوس. ينظر: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ٢٢٨ وما بعدها.

(٣) مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري, المسماة بكتاب التبيان: ١٩.

(٤) شُنيل: ينحدر من جبل شُلير, يمر على غربي غرناطة إلى فحصها, ويشق فيها أربعين ميلاً, بين بساتين وقرى وضياع كثيرة البيوت, والفِلال, وأبراج الحمام. صبح الأعشى, ج٥: ٢١٥.

(٥) شُلير: جبل بالأندلس, من أعمال البيرة, لا يفارقه الثلج شتاءً ولا صيفاً. ينظر: معجم البلدان, مج٣: ٣٦٠.

(٦) ينظر: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري: ١٨-٢١؛ ودول الطوائف: ١٢٤.

(٧) غرناطة: أقدم مدن كورة البيرة, من أعمال الأندلس وأعظمها, وهي في نهاية الحصانة, وغاية النزاهة, تشبه دمشق من الشام, بينها وبين البيرة أربعة فراسخ, وبينها وبين قرطبة ثلاثون فرسخاً. ينظر: معجم البلدان, مج٤: ١٩٥؛ وصبح الأعشى, ج٥: ٢١٤.

أَنشَأَ بنو زيري مدينة غرناطة, المقري (١٠٤١هـ) ينقل عن بعض كتب تاريخ الأندلس, في سياق حديثه عن باديس الصنهاجي(١), متحدثاً عن قصره في غرناطة, الذي ليس ببلاد الإسلام مثله, فيقول: "وهو الذي أكملَ ترتيب قصبة مالقة, وكان أفرس الناس وأنبلهم, ذا مروءة ونجدة, وقصره ليس ببلاد الإسلام والكفر مثله"(٢).

وقد كَتَبَ لسان الدين الخطيب (٧٧٦هـ) في هذا القصر قصيدة سينية, لا تقلّ أهمية عن سينية البحتري (٢٨٤هـ) التي قالها في وصف إيوان كسرى(٣), من نحو ما قال: [الطويل]

عسى خطرةٌ بالركب يا حادي العيس
على الهضبة الشماء من قصر باديس
لتظفر من ذاك الزلال بعلّة
ونَنْعم في تلك الظلال بتعريس(٤)
لقد رسخت آيُ الجوى في جوانحي
كما رسخ الإنجيل في قلب قسّيس(٥)

---

(١) باديس الصنهاجي: هو باديس بن حبوس بن ماكسن, ثاني ملوك بني زيري في الأندلس, لُقب بـ المظفر بالله, والناصر لدين الله. ينظر: البيان المُغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب, ج٣: ٢٦٢؛ وأعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ٢٣٠.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, المقري, مج١: ١٩٦.

(٣) إيوان كسرى الذي بالمدائن, من أعظم الأبنية وأعلاها, تعاون عدة ملوك على بنائه, وقد بقي منه طاق الإيوان, ومن أحسن ما قيل في الإيوان قول أبي عبادة البحتري, التي يقول فيها: [الخفيف]

حضرت رحلي الهُموم فَوَجَّهـ ـتُ إلى أبيض المدائن عنسي
أتسلّى عن الحُظوظ وآسى لمحلٍّ من آلِ ساسانَ درسِ

ينظر: معجم البلدان, مج١, ص٢٩٣؛ وديوان البحتري, مج٢: ٤٦٩.

(٤) تعريس: نزول القوم آخر الليل للاستراحة, ينظر: القاموس المحيط: ٥١٦.

(٥) ديوان لسان الدين الخطيب: ٧٢٩.

وقد واجَهَ بنو زيري في الأندلس تحديات خطيرة, وبخاصة على عهد باديس, فأول خطر واجههُ, هو حربه مع زهير العامري[١], مع العلم إن الأخير كان من أشد الحلفاء مع بني حمود, وبني زيري, ولكن هذه العلاقة أخذت بالفتور بعد مجيء باديس للسلطة[٢].

وكانت سياسة ملوك الطوائف قائمة على الحروب والتوسع على حساب القوى المجاورة[٣], لكن هذا لا يمنع من وجود تحالف وتعاضد بين البعض منها, فباديس يتحالف مع أبي الحزم بن جهور[٤], لصدّ ابن عباد[٥], الذي أراد النزول إلى قرطبة[٦], ابن زيدون (٤٦٣هـ) من قصيدة له, يشكر فيها باديس؛ لإخلاصه وصدقِه وصدقِه مع ابن جهور, ولذلك هو جدير بأن تفديه النفوس, مثلما قال: [الطويل]

---

(١) زهير العامري: أحد رجال خيران الصقلبي, صاحب المرية, تولى الأمر بعد وفاته سنة ٤١٩هـ, دامت خلافته عشرة أعوام, إلى أن قُتل بعد خروجه لحرب باديس, كان الظفر فيها لباديس, وانهزام جيش زهير. ينظر: البيان المُغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب, ج٣: ١٦٦-١٦٧؛ وأعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ٢١٦.

(٢) سبب فتور العلاقة بين زهير وباديس؛ إن زهير عمد إلى إيواء عدو باديس محمد بن عبد الله, زعيم زناتة. ينظر: البيان المُغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب, ج٣: ١٦٩؛ وأعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ١٢٦-١٢٧؛ ودول الطوائف (منذ قيامها حتى الفتح المرابطي): ١٢٨.

(٣) ينظر: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف: ٢٧٤.

(٤) كان والياً على قرطبة, اجتمع أهل قرطبة لاختياره سنة ٤٢٢هـ, انمازَ بحُسن السياسة والتدبير, توفي سنة ٤٣٥هـ. ينظر: البيان المُغرب, ج٣: ١٨٥-١٨٦.

(٥) محمد بن عباد: هو محمد بن عباد الملقب بـ المؤيد بالله, صاحب إشبيلية, توفي سنة ٤٣٣هـ, وقام من بعده ولده المعتضد بالله. ينظر: وفيات الأعيان, ج٥: ٢١ وما بعدها.

(٦) ينظر: البيان المُغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب, ج٣: ٢٠٣.

فــداءٌ لبــاديس النفــوس وجــادهُ — مـن الشكر فـي أفق الوفـاء غَمـامُ
فمــا لحقــت تلــك العهــود ملامــةٌ — ولا ذَمَّ مــن ذاكَ الحِفــاظِ ذِمــامُ
ومِثلُــكَ وإلــى مثلـــهُ فتصـــافيا — كمــا صــافت المــاءَ القــراحَ مُــدامُ
رَسـيلُكَ فـي شـأوِ المعـالي كِلاكُمـا — بعيدُ المدى صعبُ الهُمومِ هُمـامُ[1]

ولعلَّ الطمع في السلطة, وسياسة التوسع على حساب الدول المجاورة, دفعَ بعض ملوك الطوائف إلى الاستعانة بملوك إسبانيا[2], وهذا الأمر في غاية الخطورة؛ لأنه يقضي على هيبة الدولة, ومن ثم استهانة الناس بالحاكم[3].

ولم يكن الاستعانة بملوك إسبانيا السبب الوحيد في القضاء على هيبة الدولة, فثمّة سبب آخر يرى الباحث أنه أسهم في خلخلة دولة بني زيري, وهو تفويض أمور دولتهم إلى أحد رجال أهل الذمة[4], فضلاً عن تدخل بعض الأدباء في سياسة الدولة

---

(١) ديوان ابن زيدون وشرح رسائله, د. علي عبد العظيم: ٣٣٥.

(٢) ابن عمار وزير المعتمد بن عباد, يعرض على ألفونسو (ملك قشتالة) الأموال؛ كي يوافق الأخير على مساعدة الإشبيليين على احتلال غرناطة. ينظر: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري: ٧٢؛ ومحمد بن عمار الأندلسي (دراسة أدبية تاريخية): ٨٨ وما بعدها؛ والمعتمد بن عباد الإشبيلي (دراسة أدبية تاريخية): ١٢٩ وما بعدها.

(٣) ينظر: دول الطوائف (منذ قيامها حتى الفتح المرابطي), د. محمد عبد الله عنان: ٤١٩؛ والعلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف: ٢٧٠ و ٢٧٢.

(٤) إسماعيل بن النغريلة اليهودي وأخيه يوسف, الأول وزير لصاحب غرناطة حبوس, ثم لابنه باديس, والثاني يوسف, كان المدبّر لقتل بلقين بن باديس, فضلاً عن تآمره مع المعتصم بن صمادح صاحب المرية؛ لاحتلال غرناطة, فانكشفت مؤامرته, وبعد ذلك قُتل. ينظر: مذكرات الأمير عبد الله: ٤٣ و٥٠؛ والبيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ج٣: ٢٦٥ و ٢٦٦؛

الدولة عند بني زيري, والطوائف الأخرى[١], أمثال إسماعيل ابن النغريلة اليهودي[٢], وأبو الفتوح الجرجاني.

وعلى الرغم من استمرار الخلافات بين دول الطوائف في الأندلس[٣], لكن في النهاية, تم الاتفاق على الاستعانة بالمرابطين للقضاء على ملك قشتالة[٤], الذي كانت تدفع له الإتاوة سابقاً[٥].

دامت دولة بني زيري في الأندلس ثمانين عاماً, توزعت على أربعة من أمرائهم[١]:

والرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى, ابن حزم: ٨؛ ودول الطوائف: ١٣٣ و ١٣٧؛ وتاريخ الوزارة في الأندلس (١٣٨هـ-٨٩٧هـ): ١٥١.

(١) حَرّكَ أبو الفتوح الجرجاني مطامع (يدير) ابن عمّ الأمير باديس؛ وذلك أنَّ النجوم طالعته, وأنَّ باديس سيفقد العرش, فراحَ يعدّ المؤامرة, التي سرعان ما انكشف أمرها, وقُتل على إثرها, وكذلك أحمد بن عباس كاتب ووزير زهير صاحب المرية الذي كان يخطط لزهير, ونتج عن سوء تدبيره أن خسر زهير المعركة مع باديس, والوزير ابن عمار الأندلسي الذي عبر عنه عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري بـ أسّ الفتنة, وفي مقدمتهم أيضاً ابن النغريلة اليهودي الذي كان يلقب بالوزير والمشير, فضلاً عن غزارة علمه, وإلمامه بالرياضة والمنطق. ينظر: المسلمون في الأندلس, رينهرت دوزي, ج٣: ٣٤ و٢٢ و٢٣؛ ودول الطوائف (منذ قيامها حتى الفتح المرابطي): ١٢٩؛ و محمد بن عمار الأندلسي: ٨٨ وما بعدها.

(٢) ابن النغريلة اليهودي: من إحدى بيوتات اليهود المشهورة في غرناطة, استوزره باديس بن حبوس, فاستهزأ بالمسلمين, وراح ينظم أشعاراً وموشحات في القرآن الكريم يُغنى بها, فثارت صنهاجة على اليهود وقتلت منهم مقتلة عظيمة, وفيهم الوزير ابن النغريلة, ينظر: المُغرب في حلى المغرب, ج٢: ١١٤.

(٣) ظلت الأندلس في اضطراب دائم, لا تستقر على حال, حتى افتتحها يوسف بن تاشفين. ينظر: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث, بطرس البستاني: ٢٤.

(٤) اتفق الملك عبد الله آخر ملوك بني زيري مع زملائه ملوك الطوائف عل استدعاء المرابطين, وتم الاتفاق فيما بينهم على غزو قشتالة. ينظر: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري: ١٠٢ وما بعدها؛ ودول الطوائف: ١٤٥ وما بعدها.

(٥) أغلب ملوك الأندلس كانوا يؤدون الإتاوة إلى ألفونسو ملك قشتالة, فالإسبان وهم مسيحيون يرون أن العرب والبربر دخلاء عليهم. ينظر: المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب: ١٩٣؛ وينظر: ظهر الإسلام, أحمد أمين: ٤٧٢.

١- زاوي بن زيري: ٤٠٣-٤١٠هـ.

٢- وحبوس بن ماكسن: ٤١١-٤٢٨هـ.

٣- وباديس بن حبوس: ٤٢٨-٤٦٥هـ.

٤- وأخيراً عبد الله بن بلقين: ٤٦٥-٤٨٣هـ.

بنو زيري في غرناطة:

غرناطة(٢), من أشهر بلاد الأندلس, ينقل المقري (١٠٤١هـ) عن الشقندي(٣) (٦٢٩هـ) في وصفها, قائلاً: "غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس, ومسرح الأبصار, ومطمح الأنفس, ولم تخلُ من أشراف أماثل, وعلماء أكابر, وشعراء أفاضل, ولم يكن لها إلّا ما خصّها الله تعالى به من المنّ الطويل العريض, نهر شنيل لكفاها"(٤).

سُميت بدمشق الأندلس؛ لأنها شبهها في غزارة الأنهار, وكثرة الأمطار(٥). وكان لموقع غرناطة على الضفة اليمنى من نهر شنيل, واختراق نهر حدرة لها أثر كبير في إحاطة الجنان والبساتين بها(٦).

---

(٦) ينظر: دول الطوائف (منذ قيامها حتى الفتح المرابطي): ٤٦١.

(١) وقيل: أنَّ الصواب أَغرناطة, ومعناها بلغتهم الرمانة. ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, ج١: ١٤٧.

(٢) الشقندي: هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد, تولّى القضاء في بياسة وأُبَّدَة, وتفنَّنَ في العلوم القديمة والحديثة, توفي سنة ٦٢٩هـ. ينظر: المُغرب في حلى المَغرب, ج١: ٢١٨ وما بعدها.

(٣) وقد ذكر المقري أبياتاً لم أعثر على قائلها, يفضل فيها الشاعر غرناطة على المدن الأخرى, إذ يقول:[البسيط]

غرناطة ما لها نظيرُ ... ما مصر ما الشام ما العراق

ما هي إلّا العروس تجلى ... وتلك هي جملة الصّداق

يُنظر: نفح الطيب, ج١: ١٤٨.

(٤) ينظر: الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية, ج١: ١٨٨.

(٥) ينظر: المساجد والقصور في الأندلس: ١٤٠.

ويطل على غرناطة من الشرق والغرب جبل شُلير, الذي لا يفارقه الثلج في الشتاء والصيف, وكان للمرتفعين اللذين يفصل بينهما نهر حدرة, أهمية كبيرة في مناعة المدينة(١).

وغرناطة لا يفارقها البرد في الشتاء والصيف, حتى إنَّ الشاعر يستجير من بردها بسعير جهنم؛ ففي نظرِهِ (والعياذ بالله) هي أرحم من برد شلير, مثلما قال: [الطويل]

أُحِــــلَّ لنــــــا تــــــرك الصــــــلاة بأرضــــكم
وشــــــرب الحُميــــا وهــــو شــــيءٌ مُحَــــرَّمُ
فــــــراراً إلـــــى نــــــارِ الجحــــيم فإنَّهــــا
أَرَقُّ علينــــــا مــــــن (شـــــلير) وأرحـــــمُ
إذا هبـــــت الـــــريح الشـــــمال بأرضـــكم
فطـــــوبى لعبــــدٍ فــــي لظـــــى يتــــنعمُ(٢)

---

(١) المساجد والقصور في الأندلس: ١٤٠.

(٢) الأبيات لابن صارة الأندلسي (٥١٧هـ), ينظر: ابن صارة الأندلسي, حياته, وشعره: ٨٦. وقد وردت هذه الأبيات في مسالك الأبصار, ذكرها المؤلف في سياق حديثه عن جبل شنيل, قال فيه: وهو جبل شامخ, لا ينفك عنه الثلج, وبينه وبين غرناطة عشرة أميال. ينظر: مسالك الأبصار, ج٤: ١١٧.

وإذا كان ابن صارة الأندلسي يروم الهروب من برد غرناطة إلى سعير جهنم, فإنَّ القاضي أبي بكر محمد بن أحمد بن شيرين (٧٤٧هـ), يعتذر عن برد غرناطة, عندما يتبرم صاحبه منه, فيقول: [الطويل]

رَعــى اللَــهُ مِــن غَرناطَــةٍ مُتَبــوّأً ... يَسِــرُّ كَئيبــاً أَو يُجيــرُ طَريــدا
تَبَــرّم مِنهــا صــاحِبي بعــدَما رَأى ... مَســارحها بِــالبَرد عُــدْن جَليــدا
هِيَ الثَغرُ صانَ اللَه مَن أهلَت بِهِ ... وَمــا خَيــرُ ثَغــر لا يَكــون بَــرودا

ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٩٧؛ وتاريخ قضاة الأندلس: ١٥٣.

غرناطة بطبيعتها الساحرة, وحصانتها, ومناعتها, تجذب أكثر القادة لاتخاذها دار مُلك[(١)], فقد نقَلَ لسان الدين بن الخطيب عن ابن غانية[(٢)], إنه قال للمرابطين: "الأندلس درفةُ[(٣)] وغرناطة قبضتها, إذا جشتم يا معشر المرابطين القبضة, لم تخرج الدرفة مِن أيديكم"[(٤)].

وغرناطة مدينة محدثة من أيام زيري, وإنما كانت المدينة المقصودة البيرة, فعفت وانتقل أهلها إلى غرناطة[(٥)].

مَدَّنَها وحَصَّنَ أسوارها, وبَنَى قصبتها حبوس الصَّنهاجي, ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس, وكملت في أيامه وعمرت إلى الآن[(٦)], إذ "يرجع الفضل إلى بني زيري على أيام ملوك الطوائف أنْ قامت غرناطة, فقد نهض الأميران: حبوس, وباديس, بتشييد سور منيع يُحيط بالمدينة, وما زال باقياً داخل المدينة فيما بين باب البيرة إلى الباب الجديد..."[(٧)].

أصبحت غرناطة في ظل بني زيري من أهم قواعد الأندلس الجنوبية, وأنشأوا فيها جيشاً قوياً, ووطّدوا الدولة, ونظّموا مراتبها وعمالاتها[(٨)].

---

(١) قال لسان الدين الخطيب عن غرناطة: دار مُنعّمة وكرسي مُلك, ومقام حصانة. ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٩٧.

(٢) ابن غانية: أحد قادة المرابطين, ومقولته المذكورة آنفاً هي وصيته, أوصى بها المرابطين قبل وفاته, ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٩٧.

(٣) أحد مصراعَيْ الباب أو الشباك.

(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٩٧.

(٥) ينظر: صفة جزيرة الأندلس, أبو عبد الله الحميري: ٢٣.

(٦) م. ن: ٢٣.

(٧) غرناطة وآثارها الفاتنة, د. عبد الرحمن زكي: ٨٩.

(٨) ينظر: دول الطوائف: ١٣٩.

ومن الجدير بالذكر أنَّ غرناطة كانت تُعرف سابقاً بغرناطة اليهود؛ لأنَّ جزءاً من ساكنيها كانوا يهوداً(١), وكانوا على أحسنِ حالٍ من ساكني المدن الأخرى؛ من حيث الأمن والاستقرار(٢), حتى أنهم شغلوا مناصب مهمة في الدولة الزيرية في غرناطة؛ "فأمضى باديس وزيراً له وكاتباً وزير أبيه إسماعيل بن نغرالة اليهودي على وزارته, وكتابته وسائر أعماله, فدفعه فوق كل منزلة, فاتخذ هذا اليهودي عمالاً ومتصرفين في الأشغال, واكتسبوا الجاه والمال في أيامه, واستطالوا على المسلمين"(٣).

يبدو أنَّ باديس بالَغَ في الثقة بابن النغريلة, كان ظنّاً منه بأنه يُحسن تدبير الشؤون المالية, فضلاً عن تمكنه من أدوات الكتابة, لكن الموازين اختلّتْ, فبعدما كان المسلمون هم الذي يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة, أصبحت على العكس من ذلك(٤).

سخط المجتمع الغرناطي من اليهود في تلك المدة, وكانوا يترقبون الفرصة لإسقاطهم, ووجد المجتمع الغرناطي متنفّسَهُ في الشعر, أبو إسحاق الإلبيري (٤٥٩هـ) يكتب قصيدته المشهورة في التحريض على اليهود(٥), يقول فيها:[المتقارب]

أَلَا قُــل لِصِــنهاجَةٍ أَجمَعــين   بُــدورِ النَــدِيِّ وَأُســدِ العَــرِينْ

---

(١) ينظر: صفة جزيرة الأندلس: ٢٣.

(٢) ينظر: يهود الأندلس والمغرب, حاييم الزعفراني, ج٢: ١٧٦.

(٣) البيان المغرب, ج٣: ٢٦٤.

(٤) ينظر: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس), د. شوقي ضيف: ٢٢٥ وما بعدها.

(٥) ينظر: دول الطوائف, د. محمد عبد الله عنان: ٣٥.

لَقَـــد زَلَّ سَـــيِّدُكُم زَلَّـــةً		تَقِـرُّ بِهـا أَعـيُنُ الشـامِتينْ
تَخَيَّـــرَ كاتِبُـــهُ كـــافِراً		وَلَو شاءَ كانَ مِنَ المُسلِمينْ
فَعَـزَّ اليَهـودُ بِــهِ وَانتَخَـوا		وَتـاهوا وَكـانوا مِـنَ الأَرذَلـينْ
وَنـالوا مُنـاهُم وَجـازوا المَـدى		فَحانَ الهَلاكُ وَما يَشعُرون[١]

وقد أخذت قصيدة أبي إسحاق الإلبيري المذكورة آنفاً, مأخذها في غرناطة؛ فثارت صنهاجة على اليهود, وقتلت منهم مقتلة عظيمة, وفيهم الوزير ابن النغريلة, فأراح الله العباد والبلاد من ظلم اليهود, والفضل في هذا يرجع بعد الله (جَلَّ وعَلا) إلى أبي إسحاق الإلبيري, الذي قال كلمة الحق في قصيدته[٢].

---

(١) ينظر: ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٨٩.
يبدو أنَّ اليهود قد بلغوا غايتهم في تلك المدة في الوصول إلى السلطة, وليبسطوا نفوذهم, ليس في الأندلس فحسب, وإنما في مصر أيضاً, ففي عهد الدولة الفاطمية في مصر, تولّى الوزارة أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي, وكان يدبر الدولة معه, أبو أسعد التستري اليهودي, من سنة (٤٣٦هـ) إلى سنة (٤٣٩هـ), ولكن الشعراء كانوا لهم بالمرصاد, فهذا الشاعر المصري (الحسن بن خاقان), يقول فيهم:

يهـود هـذا الزمـان قـد بلغـوا		غايــة آمــالهم وقــد ملكــوا
العـزُ فـيهم والمــال عنــدهم		ومــنهم المستشــار والملــك
يا أهل مصر إني نصحت لكم		تَهَــوَّدوا قــد تَهَــوَّدَ الفلــك

ينظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري, ج١: ٩٥ وما بعدها؛ وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة, ج٢: ٢٠٧.
(٢) ينظر: المُغرب في حُلى المغرب, ج٢: ١٣٣؛ ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, ج٤: ٣٢٢.

وهكذا يتبيّن لنا أنَّ الاحداث السياسية لمدن الأندلس الخاضعة لسلطان دولتَيْ بني حمّود وبني زيري, قد شهدت أحداثاً كبيرة, وقد تسببت الخلافات الداخلية بين الأسرة الحمودية في ضعف سلطانها, واستيلاء الزيريين على مالقة, بعدما كانوا ينضوون تحت لواء الحموديين, ولم تكن غرناطة بعيدة عن هذه الأحداث السياسية, فقد كان الطمع في السلطة صفة مائزة عند بعض ملوك الطوائف, أمثال ابن عبّاد, مع وجود تحالف وتعاضد عند البعض منها لصدِّهِ, وقد آلت هذه الخلافات لتقويض سلطان ملوك الطوائف والاستعانة بالمرابطين.

الفصل الأول

معالم الأدب في ظل بني حمّود وبني زيري

مدخل:

حظيت دولتا بني حمود وبني زيري بنشاط واسع للأدب, إذ شهدت الأماكن التي كانت تابعة لسلطانهم نشاطاً لحركة الشعراء والأدباء والنقاد, على الرغم من الأوضاع السياسية المضطربة التي عاشتها الدولتان, وهو ما يعكس ضعف تأثير السياسة في الأدب ونشاطه, فقد تنافس الملوك في اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم, وسادت في هذا العصر روح من البذخ المسرف, ولهذا أصبح هذا العصر عصراً عظيماً للشعر والشعراء(١).

فقد عُقدت المجالس الأدبية في حضرة الخلفاء الحموديين والزيريين, وكانت هناك مجالس أخرى تُعقد في دور بعض القضاة ويحضرها عدد من الفقهاء والعلماء(٢), وكان للنساء دورٌ كبيرٌ في الحركة الأدبية في هذه الحقبة, مما أنتجن من شعر, مثل: حفصة بنت حمدون التي كانت تلقّب بخنساء الأندلس, ونزهون الغرناطية(٣).

---

(١) ينظر: الشعر الأندلسي, إميليو غيرسية غومس: ٤٥.

(٢) ينظر: تاريخ قضاة الأندلس: ٩٢, و مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف: ٨٨.

(٣) ينظر: نفح الطيب, ج٢: ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٢٨٧ و ٢٩٥, و تحفة القادم: ١٦٢ و ١٦٤, و ظُهر الإسلام: ٤٦٩.

المبحث الأول

النشاط الأدبي ومظاهره

على الرغم من كثرة الفتن والاضطرابات التي جرت في عصر الطوائف, إلّا أنَّ هذه الأحداث لم تُضعف من الحركة الأدبية في هذه الحقبة, فـ"الحياة العلمية لا تتبع الحياة السياسية ضعفاً وقوة, فقد تسوء الحالة السياسية إلى حَدٍّ ما, وتزهو بجانبها الحياة العلمية؛ ذلك لأنَّ الحياة السياسية إنما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس, ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيراً من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة أنْ يفرّوا من العمل السياسي إلى العمل العلمي؛ لأنهم يجدون العمل السياسي يعرّضهم لمصادرة وأحياناً لمصادرة أرواحهم, على حين أنَّ العمل العلمي يحيطهم بجوٍّ خاص هادئ مطمئن, ولو كان الجو العام مائجاً مضطرباً"[١].

---

[١] ظُهر الإسلام, أحمد أمين: ٨٥, وقد أشار بطرس البستاني إلى هذا الأمر أيضاً: إنَّ سوء الأحوال السياسية في هذا العصر لم يؤثر على الحركة الأدبية, فإنَّ الآداب والعلوم نهضت نهوضاً عظيماً, لتنافس الأمراء في تعزيزها, أو تقريب أصحابها. ينظر: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث: ٢٥.

ولمّا تقسّمت الدولة الأندلسية على طوائف[1], كانت ملوك كل دولة, تضم إليها كثيراً من العلماء والأدباء؛ ليكون أحسن دعاية لمملكتهم ودولتهم[2].

وتنافس هؤلاء الملوك في اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم, إذ سادت في هذا العصر روح من البذخ المسرف, ولهذا السبب كان هذا العصر عصراً عظيماً للشعر والشعراء[3].

وقد نقل المقري (١٠٤١هـ), عن الشقندي (٦٢٩هـ), في رسالته عن أهل الأندلس, ما يبيّن فيها التنافس الحاصل بين ملوك الطوائف على الأدباء, حتى إنَّ أحد الشعراء, أقسَمَ أنْ لا يمدح أحداً منهم بقصيدة بأقل من مائة دينار؛ إذ قال: "ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم في الرياض, وتفتك فتكة البراض[4], حتى

---

(١) وقد ذكر الأديب أبو طالب عبد الجبار في أرجوزته التاريخية, انقسام الدولة الأندلسية على دويلات, وما رافقها من أحداث؛ إذ يقول: [الرجز]

لمـا انقضـت دولـة آل عـامر　　　قام بها المهدي من آل ناصر

وقـال عـن هشـام المؤيـد　　　بأنـه قـد صـار رهـن الملحـد

ويستمر أبو طالب في الحديث عن الصراعات السياسية إبان هذا العصر, إلى أن يتحدث عن بني حمود وبني زيري؛ إذ يقول:

فلـم يـزل فـيهم سُـليمانُ يلـي　　　حتى انبرى لـه ابن حمود علي

فاستوسـق الأمـر لـه والطاعـة　　　وكـان فيمـا زعمـوا تلقاعـه

....

فاغتالـه الصـقلب فـي الحَمّـامِ　　　وجَرَّعـوه أكـؤس الحمـام

وثـار فـي غرناطـة حبّـوسُ　　　ثـمَّ ابنـه مـن بعـدِهِ بـاديس

ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٩٣ و ٧١٣ و ٧١٤ و ٧١٥.

(٢) ينظر: ظهر الإسلام, أحمد أمين: ٤٩٦.

(٣) ينظر: الشعر الأندلسي, إميليو غارسية غومس: ٤٥.

(٤) يقال: رجلٌ مبروض: مفتقر لكثرة عطائه, ينظر: القاموس المحيط: ٥٨٨.

إنَّ أحد شعرائهم بلغ ما رآه من منافستهم في أمداحه أنْ حلف ألّا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلّا بمائة دينار"(١).

ويبدو أنَّ هذا الشاعر الذي ذكره الشقندي (٦٢٩هـ) آنفاً, هو إدريس بن اليمان العبدري(٢)؛ فقد ذكر ابن بسام أنَّ ابن عباد يسأل الشاعر إدريس بن اليمان العبدري, أنْ يمدحه بقصيدة, يعارض فيها سينيته(٣) التي مدح بها ابن حمود, فأجابه, قائلاً: "إشارتي مفهومة, وبنات صدري كريمة, فمن أراد أن ينكح بكرها, فقد عرف مهرها"(٤).

ويبدو أنَّ معيشة الشاعر شأنه شأن كثير من شعراء عصره, وقبل عصره, كانت مقتصرة على العطاء الذي يعود عليه من قصائد المدح؛ ولذلك هو يطالب بالزيادة, والممدوح كان على دراية تامة بأنَّ هذه القصائد تخلّدهُ؛ فالشاعر عبد الجليل بن وهبون(٥) (٤٨٤هـ) يخاطب ابن عباد في قصيدة, وكأنه يتكلم عن شعراء عصره؛ وأنهم خُلِقوا ليمدَحوا الملوك, ويمجّدوهم, من نحو ما قال: [البسيط]

---

(١) نفح الطيب: ج١: ٤٥٦.

(٢) إدريس بن اليمان: من كبار شعراء الأندلس في القرن الخامس الهجري, وقد أخذت شهرته مساحة واسعة من الأندلس, وتمثَّلَ بشعرِهِ في البادية والحاضرة الأندلسية, وتردَّدَ على خلفاء بني حمود وبني زيري. ينظر: جذوة المقتبس, ج١: ٢١١, و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٣: ٢٥١.

(٣) لم يعثر الباحث على هذه القصيدة في شعر إدريس ابن اليمان المطبوع في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق, مج ٨١, ج١, ٢٠٠٦م.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٣: ٢٥١, ولم يورد صاحب الذخيرة نماذج من هذه القصيدة, ولم يعثر الباحث على هذه القصيدة في شعر إدريس بن اليمان المجموع في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق, المجلد الحادي والثمانون, ٢٠٠٦م, د. أحمد عبد القادر صلاحية.

(٥) عبد الجليل بن وهبون: هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي, نالَ شهرة واسعة في أيام ملوك الطوائف, وقد استقرّ به النوى في أشبيلية في ظل المعتمد بن عباد, ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢, ٣٥٧.

ألســـتمْ معشـــرَ الأمـــلاكِ طائفـــةً
تقضـــي بتخليـــدها هـــذه الأناشـــيدُ
فـــإنْ نقصـــتمْ أناســـاً مـــن نـــوالِكُمُ
فحـــقَّ مـــنكم لأهـــلِ الشـــعرِ تزييـــدُ
لكـــمْ خُلقنـــا ولـــم نُخلَـــق لأنفســـنا
فإنمـــا نحـــن تحميـــدٌ وتمجيـــدُ(١)

ويبدو أنَّ الزخم الحاصل على أبواب الملوك, لم يفسح المجال أمام بعض الشعراء, فاضطروا لامتهان حرفةٍ أخرى, فهذا الشاعر ابن صارة الشنتريني (٥١٧هـ), يمتهن حرفة الوراقة التي مردودها المالي لا يُسمن, ولا يُغني من جوع, مثلما يقول: [الكامل]

أما الوراقة فهي أيكة(٢) حرفة　　أوراقهـــا وثمارهـــا الحرمـــانُ
شبهت صاحبها بإبرة خائط　　تكسو العراة وجسمها عريانُ(٣)

وقد أشار ابن بسام في الذخيرة, إلى هذا الأمر؛ إذ يقول: "وكان أبو محمد على جودة شعره, وشغوفه على أهل قطره, ضيِّق المجال, زُحليَّ الانتقال, لم يسعه مكان, ولا اشتمل عليه سلطان, وكانت قصاراه تتبع المحقّرات, وبعدَ لأي ما ارتقى إلى كتابه بعض الولاة, فلما ما كان من خلع الملوك ما كان, أوى إلى إشبيلية أوحش حالاً من الليل, وأكثر انفراداً من سُهيل, وتبلَّغ بالوراقة وله منها جانب, وبها بَصَرٌ ثاقب, فانتحلها على كساد سوقها, وخلو طريقها"(٤).

---

(١) عبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره, سعيد أحمد محمد الغامدي: رسالة ماجستير, جامعة أم القرى, كلية اللغة العربية, السعودية, ١٤١٩هـ-١٤٢٠م: ١٥٤.
(٢) الأيك: الشجر الملتف الكثير, ينظر: القاموس المحيط: ٨٥٩.
(٣) ابن صارة الأندلسي (حياته وشعره), مصطفى عوض الكريم: ٦٣.
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٢: ٦٣٠.

ويبدو أنَّ عناية ملوك الطوائف بالأدب, واتخاذهم ألقاباً مشابهة للمشارقة, جعل بعض الباحثين يتهمهم بتقليد الخلفاء العباسيين والفاطميين, حتى إنَّ ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ) يقول فيهم: [البسيط]

ممّــا يُزهِّــدُني فــي أرضِ أنــدلُسِ
ســماعُ مقتــدرٍ فيهــا ومعتضــدِ
ألقـاب مملكـةٍ فـي غيـر موضـعها
كـالهر يحكـي انتفاخـاً صـولة الأسدِ[١]

وقد استغرب الدكتور أحمد مختار العبادي, من تقليد أغلب ملوك الطوائف للخلفاء العباسيين والفاطميين في حياتهم, ونعرتهم الخلافية[٢], وذكرَ المقري هذا الأمر في سياق حديثه عن بني حمّود؛ إذ قال: "وقد كان بنو حمود من ولد إدريس الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الخلافة المروانية بالأندلس يتعاظمون, ويأخذون أنفسهم بما يأخذه خلفاء بني العباس, وكانوا إذا حضر مُنشد لمدحٍ أو من يحتاج إلى كلام بين أيديهم من وراء حجاب, والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة"[٣].

وهذه الطريقة التي تحدّث عنها المقري آنفاً, وهي حضور مُنشد يمدح الخليفة الحمودي من وراء حجاب, نجد مصداقها عند الشاعر ابن مقانا الأشبوني[٤], فابن مقانا يمدح إدريس بن يحيى بقصيدة نونيّة مشهورة, منها: [الرمل]

---

(١) النتف من أخبار ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانييْن: ٢٥.

(٢) ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس, د. أحمد مختار العبادي: ٢٦٠.

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, ج١: ٢١٤.

(٤) هو أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا, من الشعراء المبرزين في الأندلس, على عهد دولة بني حمود, وهو شاعر مطبوع, وله شعر غزير, ضاع أكثره ولم يبقَ منه إلّا النزر اليسير, (ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٥٩٣).

وكـــأنَّ الشـــمس لمّـــا أشـــرقتْ فانثنـت عنهـا عيـون النـاظرينْ
وجـهُ إدريـسَ بِـنْ يحيـى بـن علـي بِــنْ حمّــودِ أميــر المــؤمنينْ[١]

وما إنْ أتمَّ الشاعر البيت الأخير؛ الذي يقول فيه:

أنْظرونـــا نقتـــبس مـــن نـــوركم إنــــه مــــن نــــور ربّ العــــالمينْ

حتى يأمر إدريس الحمودي برفع الحجاب؛ ويقول له: "أنظر كيف شئت, وانبسط الشاعر, وأحسَنَ إليه"[٢].

يعلّق أحد الباحثين على هذا الحادث؛ فيقول: "هذا الحادث يرينا مدى الروح الديمقراطية التي ظلت تسود حكام الغرب الإسلامي, رغم القداسة المصطنعة, التي حاولوا تقليد المشرق فيها"[٣].

وقصيدة ابن مقانا الأشبوني المذكورة آنفاً, لاقت إعجاب أكثر الأندلسيين, حتى إنَّ القوالين يتداولون أكثر أبياتها, وقد ذكر ابن بسام هذا في سياق حديثه عن هذه القصيدة, وسر إعجابه بها؛ إذ يقول: "يتداول القوالون أكثر أبياتها؛ لعذوبة ألفاظها, وسلاستها"[٤].

ومن المجالس الأدبية التي كانت تُعقد في حضرة الخلفاء الحموديين, مجلس المعتلي يحيى بن علي بن حمود, فقد كلّف الأخير الشاعر ابن الحنّاط الكفيف تذييل بَيْتَيْ تميم بن المعز في وداع أخيه نزار صاحب مصر, وهما: [المتقارب]

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٥٩٧ و ٥٩٨, و نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, ج١: ٢١٤.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, ج١: ٢١٤.

(٣) في تاريخ المغرب والأندلس: ٢٦٠.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٥٩٦.

أقـــــيم وترحـــــلُ وذا لا يكـــــون

لــئن صــحَّ هــذا ســتدمى عيــونُ

فـــــإني وإيـــــاك مثـــــل اليـــــدين

ولكــن لــك الفضــل أنــت اليمــينُ(١)

فقال ابن الحناط: [المتقارب]

سأســـــــلو بيحيـــــــى وأيامِـــــــهِ

فعـــذرُ الســـلوِّ بـــه مســـتبينُ

إمـــــامٌ تجمَّـــــعَ فـــــي راحتيـــــه

لأهـــلِ المحبـــةِ دنيـــا وديـــنُ

جنـــابٌ خصـــيبٌ وروضٌ أَريـــضٌ

وظـــلٌّ ظليـــلٌ ومـــاءٌ معـــينُ

لـــئن كـــان مـــن قبلـــه جـــدّه

علينـــا الوصـــيَّ فهـــذا الأمـــينُ(٢)

وضَمَّ مجلس إدريس بن يحيى الحمودي كثيراً من الشعراء, وكان إدريس أديباً ويقول من الشعر الأبيات الحسان(٣), و"له إحساسات رقيقة, وروح سهلة قليلة الانفعال, أَحَبَّ الشعر, وحَمَّسَ الشعراء, وكان بلاطه طوال فترة حكمه في مالقة,

(١) ما تبقى من أدب العميان في الأندلس: ١٧٢.

(٢) م. ن: ١٧٢ وما بعدها.

(٣) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٤, والحُلّة السيراء, ج٣: ٢٩, ومالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف, كمال السيد أبو مصطفى: ٨٩.

بلاطاً أدبياً مُشعّاً يجمع عدة شعراء"[1], ويبدو أنَّ هذه الصفات الحميدة التي تمتّع بها, هي التي جعلت كثيراً من الأدباء ينجذب نحوه, حتى قال أحدهم: [م. الوافر]

إذا ضـــاقت بـــك الـــدنيا فعَـــرِّج نحـــو إدريســـا
إذا لاقيتـــــه تلقـــــى رئيســـاً لـــيس مرؤوســـا
إمـــامٌ ماجـــدٌ ملـــكٌ يزيـــل الغـــمَّ والبؤســـا[2]

ويبدو أنَّ إدريس الحمودي قد أعجب بهذه الأبيات, ولكنه توقف عند (رئيساً غير مرؤوسا) وراح يسأل الحاضرين عنها, وعن جوازها عند أهل النحو, فأجابوه في اختلافها عند النحويين, وعندما سمع الرد أَمَرَ بتبديل الكلمة من (غير مرؤوسا) إلى (ليس مرؤوسا)[3], وقال: "السلامة من الاختلاف أولى في طريق الإنصاف"[4], وهو ما يعطينا صورة واضحة عن الروح الديمقراطية[5] التي كانت تسود الجو الأدبي في ظل بني حمود, فالخليفة يستمع لآراء الحاضرين ومن ثم يتخلّص من هذا الخلاف ويأمر بوضع الكلمة التي تنسجم نحوياً وعروضياً.

وقال فيه الشاعر غانم بن الوليد المالقي[6](٤٧٠هـ): [المديد]

---

[1] الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء, لويس سيكو: ٤٢.

[2] لم يذكر ابن بسام قائل هذه الأبيات, وإنما ينقل هذه الأبيات عن غانم بن الوليد الشاعر (٤٧٠هـ)؛ إذ يقول: وحضرت مجلس إدريس الحمودي, فتغنّى محمد بن الحمامي بشعر محدث, ويذكر هذه الأبيات. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٤, والحُلّة السَّيْراء, ج٣: ٢٩.

[3] ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٤.

[4] م. ن, ق١: ٦٥٥.

[5] ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس: ٢٦٠.

[6] أبو محمد غانم بن الوليد: نسَبهُ إلى بني مخزوم, من أهل مالقة, كان واسع المعرفة, يشار إليه بالبنان, مُعظّماً عند الملوك, مُقرّباً إليهم. ينظر: جذوة المقتبس, ج٢: ٥١٨, والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٤٦, وأعلام مالقة: ٣٣٢.

إنمـــا العـــالي[1] إمـــام هُـــدى حَلِيَـــتْ فـــي عصـــرِهِ الحـــالُ
مَلِـــــكُ إقبـــــال دولتــــــه لـــــذوي الأفهـــــام إقبـــــالُ
قُـــل لمـــن أكـــدت مطالبـــه راحتــــاه الجــــاهُ والمــــالُ[2]

ومما تجدر الإشارة إليه, أنَّ الشاعر عبادة بن ماء السماء[3], مخترع الموشحات[4], قد مدح الحموديين بكثير من القصائد[5], فضلاً عن مدحه لعليّ بن حمود في موشّحه, يَذكر فيها اسمه, "وقد وجدت هذه الموشحة صدىً كبيراً في المشرق والمغرب, وقلّدها وشّاحون كبار"[6], وكان عبادة من الموالين للحموديين, و"يفصح شعر عبادة عن تشيّع واضح للبيت العلوي, وولاء كبير للدولة الحمودية, وهي صفة لم يتبرأ الشاعر منها, وظهرت جلياً في شعره, وتناولها بروح المكابرة والمباهاة"[7].

ومن شِعره في علي بن حمود, قوله: [الوافر]

أطاعتْـــكَ القلـــوبُ ومـــن عصِـــيٌّ
وحَـــربُ الله حربُـــكَ يـــا علـــيٌّ
فكـــلُّ مـــن ادّعـــى معـــك المعـــالي

---

[1]) إدريس بن يحيى المعتلى, كان يلقب بالعالي. ينظر: الحُلّة السِّيراء, ج٣: ٢٧.
[2]) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٣.
[3]) عبادة بن عبد الله الأنصاري: من ذُرية سعد بن عبادة, وقيل: ابن ماء السماء لجدّهم الأول, ويُعد عبادة فحل من فحول الشعراء, وعَلَم من أعلام الأدباء, آدابه مشهورة, وله موشحات تُضرب بها الأمثال. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٣٦١, وأعلام مالقة: ٢٨١.
[4]) شعر عبادة بن ماء السماء (ت ٤٢١هـ), جمعُ ودراسةُ, د. محمد حسين عبد الله المهداوي, و د. عدنان محمد آل طعمة, مجلة جامعة أهل البيت (عليهم السلام), العدد (١٣), ٢٠١١م: ٤٣.
[5]) ينظر: م. ن: ٤٤–٤٥.
[6]) م. ن: ٣٨.
[7]) م. ن: ٢٦.

كـــذوبٌ مثـــل مـــا كـــذب الـــدعيُّ

أبـــى لـــكَ أن تهـــاض عـــلاك عهـــدٌ

هشــــــاميٌّ وجَـــــــدٌ هاشـــــــميُّ

ومـــــا ســــمِّيت باســــمِ أبيـــــكَ إلّا

ليحيـــا بالســـميِّ لـــــه الســـميُّ

فـــإنْ قـــال الفخـــور أبـــي فـــلانٌ

فحســـبُكَ أن تقـــولَ أبـــي النبـــيُّ[١]

ولاء عبادة لأهل البيت (عليهم السلام) موغل في القِدَم, وفي الأبيات المذكورة آنفاً ما يدل على ذلك, فحرارة التشيّع توزعت على مساحة الأبيات السابقة, فقد خاطب الشاعر الخليفة الحمودي بكلمات فيها من العقائد الإسماعيلية التي يؤمن بها الحاكم, ومنها (وضرب الله ضربُك يا علي), والخليفة الحمودي هو ظل الله في الأرض, وامتداد للشجرة العلوية المباركة مثلما ذكر الشاعر: (ليحيا بالسميِّ له السميُّ), وأخيراً فقد استطاع الشاعر بولائه وخبرته من نيْل رضا الممدوح.

ولم يقتصر الاهتمام بالشعر والشعراء على بني حمود فقط, فقد أحاط بنو زيري أنفسهم بطائفة من الشعراء والأدباء[٢]؛ فهذا غانم بن الوليد المالقي (٤٧٠هـ), يدخل مجلس باديس بن حبوس, والمجلس مكتظ بالجالسين؛ فقام له باديس وقرّب مجلسه منه, مما يدل على اهتمامه ورعايته للأدباء, فقال غانم بن الوليد بديهاً:

[البسيط]

صَـيّر فـؤادكَ للمحبـوب منزلـةً   سـمُّ الخيـاط مجـالٌ للحبيبـيْنْ

---

[١]) شعر عبادة بن ماء السماء (بحث): ٤٣.

[٢]) مملكة غرناطة في عهد بني زيري (٤٠٣هـ-٤٨٣هـ), مريم قاسم الطويل: ٢٦٩.

ولا تسـامحْ بغيضـاً فـي معاشـرةٍ   فقلَّمـا تَسَـعُ الـدنيا نقيضـيْنْ[1]

ومدَحَ باديسُ عدداً من الشعراء, منهم أبو محمد المصري[2], وقد أشادَ بفضلِه وبمجد أسلافِه, إذ قال: [الكامل]

رَسَـخَتْ أصـولُ عُلاكُـمُ تحـت الثـرى
ولَكُـــم علـــى خـــطِّ المجـــرَّةِ دارُ
تبـدو شـموس الـدَّجن مـن أطـواقكم
وتفـيض مـن بـين البَنَـانِ بِحـارُ
إنَّ المكـــارمَ صـــورةٌ معلومـــةٌ

---

(1) ينظر: أعلام مالقة: ٣٣٣, و بدائع البدائة: ٣٦٦, و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٠, وهذه الأبيات مأخوذة من قول الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٦هـ), وقد دخل عليه بعض أصدقائه, وهو على نمرقة صغيرة, فرحب به وأجلسه في مكانه, فقال له: إنها لا تسعنا, فأجابه الخليل: ما تضايق سمُّ الخياط لمحبّين, ولا اتسعت الدنيا لمتباغضين, وسمع هذا أيضاً ابن عبد ربه, فقال هذين البيتين:

صِـل مـن هويـت وإنْ أبـدى معاتبـةً
فأطيَـبُ العـيش وصـلٌ بـين خليلـين
واقطـــع حبائـــل خـــلٍ لا تلائمـــه
فرُبَّمـــا ضـــاقت الـــدُنيا بـــاثنين

ينظر: بدائع البدائة: ٣٣٦, و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٠.

(2) أبو محمد المصري: لقّب بالمصري لطول إقامته بمصر, وكأنه لم يأخذ من الشهرة ما يستحق في مصر, حتى دخلَ الأندلس وذاع صيته, وتردّد على ملوك الطوائف, حتى نستطيع أن نطلق عليه بـ (الشاعر الجوال), وفضلاً عن شهرته بالشعر, اشتهر بالطب أيضاً. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ٢٤٣, والمُغرب في حلى المَغرب, ج١: ١٣٠, وتاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ٧٦.

أنـــتم لهـــا الأســـماع والأبصـــارُ

ذلّــتْ لكـــم قِمَــمُ الخلائـــق مثلمـــا

ذلّـــت لشــــعري فــــيكم الأشــــعارُ

فمتـــى مـــدحت ولا مـــدحت سِـــواكُمُ

فمـــديحكمْ فـــي مدحِـــهِ إضـــمارُ(١)

فالشاعر يرسّخ في ذهن المتلقين تلك المكارم النبيلة التي اتصف بها باديس, ليكون مجلسه قبلة للشعراء والأدباء, ومقصداً لطلاب العِلم, وأفئدة الناس تهوي إليه, وباديس يستحق تلك الكلمات التي تخلّده, لِما يحمله من قمم الخلائق, والمكارم النديّة التي تجعله مقدماً على غيره من الممدوحين.

وفضلاً عن المجالس التي كانت تُعقد في حضرة الخلفاء الحموديين والزيريين, فقد كانت هناك مجالس أخرى تُعقد في دور بعض القضاة ويحضرها عدد من الفقهاء والعلماء(٢), ومن هذه المجالس مجلس القاضي الحسن بن حسون(٣), الذي كان يعقده في داره, ويحضره عدد من العلماء والأدباء(٤), وكان غانم بن الوليد المالقي (٤٧٠هـ), يستوحش هذا المجلس, بعد أن قضى الموت على صاحبه, وكان من قبل يأنس بحضوره, ويستلذ أوقاته فيه, وراح يتذكره بقصيدة يُرثي بها هذا القاضي, ويقول: [الكامل]

---

(١) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ٢٤٣, والمُغرب في حلى المَغرب, ج١: ١٣٠.

(٢) القاضي محمد بن الحسن الجذامي النُّباهي قاضي مالقة, كان يقيم في دارِهِ المجالس ويحضرها شيوخ عصره من الفقهاء والأدباء. ينظر: تاريخ قضاة الأندلس: ٩٢, ومالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف, د. كمال السيد أبو مصطفى: ٨٨.

(٣) القاضي أبو علي الحسن بن حسون: من أعيان مالقة, وواسطة عقدها, ولّى قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود. ينظر: المغرب من حُلى المغرب, ج١: ٤٣٠.

(٤) مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف: ٨٩.

قــد كــان مجلسُــكَ المُبــارك موســماً
فأقــامَ أوحــشَ مِــن غُــداةِ فِــراقِ
غُيّبْــتَ عنـــهُ مَغيــب بــدرٍ كامــلٍ
والليـــلُ أدهـــمُ ضـــاربٌ بِـــرِواقِ
ومــن العجائــب والكســوف مُرتّــبٌ
قمــرٌ تــوارى فــي زمــانِ محــاقِ[١]

فالمجلس الذي كان يؤنس الشاعر في حضوره وهو عامر بأهله ومريديه, قد أضحى موحشاً بفقده, الذي ترك في نفْس الشاعر غصّة, جَعَلَته يستذكر تلك الأيام, ويحنّ إليها, ويبكي على مُقيمِه, ويتذكره بقصيدة والتي هذه الأبيات هي جزء منها.

ومن المجالس الأخرى, مجلس الأديب ابن السراج المالقي[٢] (شاعر بني حمّود), الذي كان يجتمع مع أصدقائه خارج مدينة مالقة؛ حيث الطبيعة الأخاذة وجريان الماء, ويقضون هناك ليالي وأياماً, يتبادلون الأشعار[٣], فجمال الطبيعة الأخاذ "مصدر إلهام للشعراء, يستمدون منها صورهم, ويثرون مخيلاتهم بتلك المناظر التي تراها أعينهم"[٤].

---

[١] من أعلام الأندلس (أبو محمد غانم بن الوليد القرشي المالقي) أخباره وجمع آثاره (بحث), عارف عبد الكريم مطرود, مجلة جامعة البصرة (كلية الآداب), العدد (١٤), ٢٠٠٩م: ٩.

[٢] محمد بن السراج المالقي: يُنسب إلى مالقة, أديب مشهور, له أشعار في مدح بني حمود, ووزيرهم أحمد بن بقنه. ينظر: جذوة المقتبس, ج٢: ١٠٦, والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٩.

[٣] ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٠ و ٦٦١؛ و مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف: ٩٠.

[٤] حركة الشعر العربي في مصر الفاطمية, د. محمد حسين المهداوي: ٤٢.

وحَقّاً, فالطبيعة الأندلسية مكّنت الشعراء من أن ينظموا كثيراً في وصف الطبيعة, وكانت رافداً من روافد النشاط الأدبي(١), و"كثيراً ما خرج الشعراء جماعات وأفراداً يمتّعون النفس بجمال الطبيعة, ثم يعبّرون عمّا في أنفسهم, وكيف لا يصنعون وبيئتهم مرحة طروب, ونفوس الأندلسيين ميّالة للهو والمتاع"(٢), ومن هذا ما نقل ابن بسام عن ابن السراج المالقي, وقد خرج مع صديقه خارج مدينة مالقة, وكانا "على جريةِ ماءٍ في موضع حَسِن يحارُ فيه الطرف, ويقصر عنه الوصف, وأقمنا هنالك في أطيب عيشٍ, وأظرف منظر"(٣), ويبدو أنَّ هذا المنظر هيّجَ قريحة ابن السراج المالقي, فقال: [الطويل]

شـربنا علـى مـاءٍ كـأنَّ خريـرَهُ خريرُ دموعي عند رؤيـةِ أزهرِ
حلفتُ بعينيها لقد سَفَكَتْ دمـي بـأطرافِ فتّـانٍ وإلحـاظِ جـؤذرِ(٤)

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ الحمّامات كانت مركزاً للاجتماعات المرحة, ومجلس للأنس واللهو والغناء, فضلاً عن الدور الذي تؤديه, كالشعور بالراحة ونظافة الأبدان(٥).

ومما جاء في هذا الباب قول غالب الحجام(١) في تمثال مرسوم من المرمر فيه جارية تحتضن صَبياً, وهي تنظر في ذعر إلى حية تقترب منه: [الوافر]

---

(٢) ينظر: ظهر الإسلام: ٥٤٨.

(٣) شعر الطبيعة في الأدب العربي, د. سيد نوفل: ٢٦١.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٠ و ٦٦١, وبدائع البداهة: ٨١.

(٥) م. ن, ق١: ٦٦٠.

(٦) ينظر: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس, د. عبد العزيز سالم: ٢٠٨ وما بعدها, و مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف: ٩١.

ودميـــــة مرمـــــرٍ تُزهـــــى بخَـــدٍّ
تنـــاهى فـــي التـــورّدِ والبيـــاضِ
لهـــا ولـــدُ ولـــم تعـــرف حلـــيلاً
ولا ألمـــتْ بأوجـــاع المخـــاضِ
ونعلـــم أنهـــا حَجَـــرٌ ولكـــن
تُيِّمنـــــا بألحـــــاظٍ مـــــراضِ[٢]

ما أجمل الصورة التي رسمها الشاعر, فهو يُقرّب للمتلقي وصف هذا التمثال المرسوم على أحد الجدران في الحمام, فالجارية تحمل هذا الطفل وهي لم تتزوج من أحدٍ, ولا تجشمت عناء المخاض, ومن ثم يعود ليصرح للمتلقي بحقيقة هذه الصورة التي هي من حَجَر, ولا علاقة لها بالواقع, والهدف من هذا كله تحقيق المتعة في هذه الأماكن التي كما أسلفنا كانت جزءاً من النشاط الأدبي في هذه المدة من عُمر الدولتين.

ومن العادات التي كانت سائدة في المجتمع الأندلسي؛ هي الاحتفال بقدوم حاكم جديد على المدينة, وبخاصة إذا كان الحاكم الذي قبله مستبداً جائراً[٣], وهذا ما حدث مع إدريس بن يحيى الحمودي؛ فعند مجيئه إلى مالقة, عمّت الفرحة والسرور على أهل المدينة, وهذا ما يؤيده كلام غانم بن الوليد المالقي؛ إذ يقول: "ولم يترُك

---

(١) غالب بن الحجام: من شعراء الأندلس في مدة ملوك الطوائف, إلّا أنَّ شِعره يخلو من الرقيق السهل الذي يصل إلى عامة الناس, ولا يقترب أيضاً من الفصيح الجزل. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٣: ٦١٩, و المغرب في حلى المغرب, ج٢: ٤٠.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٣: ٦١٩.

(٣) نجاء الصقلبي اعتقل إدريس الحمودي, واستبدّ بالأمر في مالقة, وعَيَّنَ في مالقة رجل من خاصته يدعى بالسطيفي, وتوجّه إلى الجزيرة الخضراء يريد أن يقبض على ابنَيْ القاسم بن حمود, فلم يتهيّأ له ما أراد؛ فأولاد القاسم استطاعوا القبض عليه, وقتلِهِ, وثارت العامّة على السطيفي في مالقة وقتلوه أيضاً, وبويع إدريس الحمودي والياً على مالقة سنة (٤٣٤هـ). ينظر: البيان المغرب, ج٣: ٢٩١, والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥١ و ٦٥٢.

المتطوَّل علينا عَزَّ وِجهُه بالهدى, أمّةُ محمدٍ "عليه السلام" سُدىً, بل نَظَّمَ شملها بإمامٍ عادلٍ تجتمع إليه, وتُعوِّل عليه, تتوارثهُ كابراً عن كابر, وتتلقاه غابراً عن غابر, إلى أنْ أَذِنَ الله للإمام الهاشمي, والمَلِك الفاطمي, والفرع العلوي, إدريس العالي بالله, بن يحيى المعتلي بالله ابن علي الناصر لدين الله بن حمود بن أبي اليعيش بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب..."[1].

ويستغرق ابن الوليد في الحديث عن إدريس الحمودي, ويتبيّن من كلامه مدى السعادة التي عمّت أهل مالقة بعد تعيين إدريس الحمودي حاكماً عليها[2], وهو يؤرخ مجيء إدريس في أبياتٍ, يقول فيها: [السريع]

واســــتقبل المَلِـــكُ إمـــامُ هـــدى
فــــي أربـــعٍ بعــــد ثلاثينــــا

خلافـــة العـــالي ســـمتْ نحـــوَه
وهــو ابــنُ خمــسٍ بعــد عشــرينا

إنّـــي لأرجـــو يـــا إمـــام الهُـــدى
أنْ تملُــــك المُلْــــك ثمانينــــا

لا رَحِـــمَ الله امـــرءاً لـــم يقـــل
عنـــد دُعـــائي لـــكَ آمينـــا[3]

وكان للنساء دورٌ كبيرٌ في الأدب, ومنهن الشاعرات اللائي أسهمن في الحركة الأدبية؛ بما أنتجن من شعر, ومن أشهرهن في إشبيلية: اعتماد جارية

---

[1] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥١ و ٦٥٢.

[2] ينظر: م. ن, ق١: ٦٥٢.

[3] من أعلام الأندلس أبو محمد غانم بن الوليد المالقي (٤٧٠هـ), أخباره, وجمع آثاره: ٢١.

المعتمد, وبثينة بنت المعتمد, وفي غرناطة: حفصة بنت حمدون التي كانت تُلقَّب (بخنساء الأندلس)[1], ونزهون الغرناطية[2].

فهذه حمدة الوادي آشيّة[3], تصف لنا جمال الوادي آشي, فتقول: [الوافر]

وَقَانـــا لَفْحَـــةَ الرَّمْضــــاءِ وادٍ
سَـــقاهُ مُضـــاعَفُ الغيـــث العمـــيمِ
حَلَلْنـــا دَوْحَـــهُ فَحَنـــا عَلَيْنـــا
حُنُـــوَّ المُرضِـــعاتِ علـــى الفطـــيمِ
وأَرْشَـــــفَنا علـــــى ظَمَـــأٍ زُلالاً
أَلَـــذَّ مِـــنَ المُدامـــةِ للنـــديمِ
يَصُـــدُّ الشـــمسَ أَنّـــى واجَهَتْنـــا
فَيَحجُبَهـــا ويَـــأذَنُ للنَّســـيمِ[4]

فقد وصفت حمدة الوادي آشية جمال الوادي, الذي وقاها هي ومن معها من النساء قيظ الصيف, وقد أطفأ حرارة الظمأ بماءٍ زلال, وقد أعجب أحد الباحثين بهذا

---

[1]) ومن الباحثين من يطلق عليها لقب: (صنوبرية الأندلس), نسبةً إلى شاعر الطبيعة الصنوبري, ولأنَّ أغلب شعرها في الغزل ووصف الطبيعة, وليس الرثاء الذي اشتهرت به الخنساء. ينظر: الأدب الأندلسي, سامي أبو زيد: ٢٤١.

[2]) ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, ج٤: ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٢٨٧ و٢٩٥, وتحفة القادم: ١٦٢ و ١٦٤, وظهر الإسلام: ٦٤٢.

[3]) حمدة الوادي آشية: من أهل وادي آشي في غرناطة, وهي من الشواعر المتأدبات. ينظر: نزهة الجلساء في أخبار النساء: ٩٣.

[4]) نزهة الجلساء في أخبار النساء: ٩٧ وما بعدها.

الوصف وهذا التشخيص, فقد جعلت الشاعرة الوادي أمّاً حنوناً كحنين الأم المرضع على وليدها[١].

واشترك اليهود مشاركة فعالة في الحياة الأدبية في الأندلس[٢]؛ ومن أشهرهم الوزير ابن النغريلة اليهودي, وابن جبيرول[٣], وموسى بن عزرا[٤], وكان ابن النغريلة من أهل الأدب والشعر[٥], واستطاع اجتذاب الشعراء نحوه, وكَوّنَ لنفسه حاشية جمع فيها عدداً من الشعراء المسلمين, ومنهم: المُنفتل[٦], والأخفش بن ميمون القبذاق[٧], القبذاق[٧], ومن اليهود: ابن جبيرول[٨].

ومن قصيدة للمنفتل يمدح فيها ابن النغريلة اليهودي, يقول فيها: [الطويل]

ومن يكُ موسى منهُمُ ثم صنوه
فقل فيهمُ ما شئت لن تبلغ العشرا
فكم لهم في الأرضِ من آيةٍ تُرى
وكم لهم في الناس من نعمةٍ تَتْرى

---

[١] ينظر: الأدب الأندلسي, سامي يوسف أبو زيد: ٢٤٢.

[٢] ينظر: ظهر الإسلام: ٤٦٩.

[٣] ابن جبيرول: سَلُومون بن يهودا بن جبيرول, توفي (٤٦٢هـ), ويسمّيه المسلمون أبا أيوب سلمان بن يحيى, والنصارى أفيسبرون, قراَ كُتب فلاسفة العرب, وصقَلَ موهبته بما فيها من الآراء والأفكار. ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ٥٥١.

[٤] موسى بن عزرا: شاعرٌ يهوديٌّ من أهل غرناطة, أكثر أشعاره في الخمر والغزَل واللهو, صاغَها على طريقة العرب القدامى. ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ٥٥٧ وما بعدها.

[٥] البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب, ج٣: ٢٦٤.

[٦] المنفتل: أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة, من أعلام شعراء البيرة في مدة الطوائف. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥٧٤, و المُغرب في حُلى المَغرب, ج٢: ٩٩.

[٧] الأخفش بن ميمون: يُعرف بابن الفرّاء, أصله من القبذاق, وتعلّم ودرسَ في قرطبة, وله أمداح في ابن النغريلة اليهودي, وزير غرناطة, ينظر: المغرب في حلى المغرب, ج٢: ١٨٢.

[٨] ينظر: اليهود في الأندلس: ٤١, و الأثر العربي في الفكر اليهودي, د. إبراهيم موسى هنداوي: ٨٥ و ٨٦ و ١٠٢.

أجـــامعُ شـــمل المجـــد وهـــو مشـــتّتُ

ومُطلق شخص الجود وهو مـن الأسرى

فضــــلت كـــرام النـــاس شـــرقاً ومغربـــاً

كمـــا فضـــل العقيـــانُ بـــالخطر القطـــرا

ولـــو فرّقـــوا بـــين الضَّـــلالةِ والهـــدى

لمَـــا قبّلـــوا إلّا أناملـــك العشـــرا[١]

وقد ذكرَ ابن بسام هذه الأبيات بعدما يتبرأ إلى الله من قائلها, ويعلّق عليها, قائلاً: "فقبّح الله هذا مكسباً, وأبعد من مذهبه مذهباً, تعلق به سبباً, فما أدري من أي شؤون هذا المدلّ بذنبه, المجترئ على ربّه, أعجبُ: أَلِتفضيل هذا اليهودي المأفون على الأنبياء والمرسلين, أم خلعه إليه الدُّنيا والدِّين؟ حشره الله تحت لوائه, ولا أدخله الجنة إلّا بفضل اعتنائه"[٢].

ومن قول ابن جبيرول (أشهر أدباء زمانه) فيه, قصيدة بالعبرية:

مـن ذا الـذي يشبه الفجـر إذا انفلـق

وينيـــــر كالشــــمس جليـــــا

ذو مجد وذو شرف كـالأمراء النـبلاء

طيبـــه كـــالبخور إذا احتـــرق

خـــــدّه كالسوســــــن المحمـــــر

أرى به سحراً وهو ليس بمسحور[٣]

بمســـــــــــــــحور[٣]

---

[١] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥٨٢.

[٢] م. ن, ق١: ٥٨٢.

[٣] اليهود في الأندلس, د. محمد عبد المجيد: ٤٢.

أمّا النثر, فقد لقي الأدباءُ عناية خاصة من لدن الأمراء, على عهد ملوك الطوائف, ولعلَّ أغلب الشعراء الذين عاشوا في ظل هذه الدويلات هم ممن يجمعون بين الصناعتيْن (الشعر والنثر)؛ فغانم بن الوليد له في إدريس الحمودي "نثر طويل إذ ولي الخلافة, إذ قال فيه بعد الصَّدر: ولم يترك المتطوِّل علينا عز وجهه بالخلافة أمة محمد عليه السلام, سُدى, بل نظم شملها, بإمامٍ عادلٍ نجتمع إليه, ونعوِّل عليه"(١).

وكانت الأوضاع السياسية, والحروب القائمة بين الطوائف في تلك المدة, تزيد من رغبة الملوك في كُتّاب يشار إليهم بالبنان؛ ولهذا نلحظ وجود هذه الطبقة البارزة من الكُتّاب في بلاط الأمراء. فنجد مثلاً عند بني حمود, ابن برد الأكبر (٤١٨هـ), الذي قال فيه ابن بسام: "كان أبو حفص في ذلك الأوان واسطة السلك, وقطب رحى المُلك؛ استقلّ ببهائه وجلالِه, ورفل في بُكرِه وأصاله, وبرز على نظرائه وأشكاله..."(٢), وله رسالة في معنى الرعية عن لسان علي بن حمود, قال فيها: "إنَّ الله تعالى قلَّدني من رعاية عبادِه, وحمَّلني من سياسة خَلقِه, وعصب بي من تدبير أمورهم وإصلاح شؤونهم, وألزَمَني من النظر لهم, والعمل بما يصلحهُم..."(٣).

ومن الأدباء الذي عاشوا في كنف الدولة الحمودية؛ ابن الحنّاط الكفيف(٤) (٤٣٧هـ)؛ فهو فضلاً عن مدائحه في آل حمود؛ له رسالة طردية طويلة في وصف

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥١ وما بعدها.

(٢) م. ن, ق١: ٩٠.

(٣) م. ن, ق١: ١٠٢.

(٤) ابن الحنّاط الكفيف: أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الكفيف, كان متقدماً في الآداب والبلاغة والشعر, وزعيم من زعماء النظم والنثر في عصره, مدَحَ بني حمود, ومات في كنف الأمير محمد بن القاسم الحمودي في الجزيرة الخضراء, في حدود ٤٣٧هـ. ينظر: جذوة المقتبس, ج٢: ١٠١ و ١٠٣, والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٣٣٨.

الظباء, وصيدها, وهي رحلة مع علي بن حمود, ذكر فيها: المأكل والمشرب والمركوب, ويصف فيها المكان الذي انتهوا إليه عند خروجهم من البحر[١], ابن الحناط في هذه الرسالة كثيراً ما يمدح علي بن حمود, فمن جملة ما قال: "يؤويني كنف رعايته, ويلتحفني جناح عنايته, فألوذ بما غمر من فضله, وشمل القريب والبعيد من عدله..."[٢].

وكان من كُتّاب الدولة الحمودية أيضاً أبو جعفر اللمّائي (٤٦٥هـ)؛ الذي كان في عصره: "أحد أئمة الكُتّاب, وشُهُب الآداب, مَن سُخّرت لهم فنون البيان تسخير الجنَّ لسليمان, وتصرَّف في محاسن الكلام تصرُّف الرِّياح بالغمام..."[٣].

ويستمر ابن بسام في الثناء على أبي جعفر اللمّائي, وإنه كان من أعلام الكُتاب في ظل الدولة الحمودية, والقائم بمسؤولياتهم أحسنَ قيام؛ إذ يقول: "وله إنشاءات سرِّية, في الدولة الحمودية, إذ كان علم أدبائها, والمُضطلع بأعبائها"[٤].

ومن الأدباء الذين عاشوا في ظل بني زيري في غرناطة؛ أبو عبد الله البزلياني, ويبدو كان للبزلياني رغبة للعمل في الدواوين بغرناطة؛ فاستكتبه أميرها حبوس, وأصبح رئيساً لديوانه وكُتّابه, وعمل بعدها مع ابنه باديس (٤٢٩-٤٦٥هـ)[٥], قال فيه ابن بسام: كان "أحد شيوخ الكُتّاب, وجهابذة أهل الآداب, ممن أدار الملوك ودبَّرها, وطوى الممالك ونشرها"[٦].

---

(١) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٢٢٨ - ٢٣٠.

(٢) ينظر: م. ن, ج٢: ٣٠٥.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٧٢, وينظر أيضاً: المُغرب في حلى المَغرب, ج١: ٤٤٦.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٧٢.

(٥) يُنظر: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس): ٣٩٨.

(٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٧٧.

وفضلاً عن البزلياني, فقد ضمت غرناطة على عهد بني زيري كثيراً من الكُتّاب؛ من المسلمين واليهود, وأبرزهم: الوزير ابن النغريلة, وموسى بن عزرا, وأبو إسحاق إبراهيم بن الحكم[١], وأبو الفتوح الجرجاني.

تنقّل أبو الفتوح بين دول الطوائف؛ حتى استقر به النوى في غرناطة, وكان يلقي فيها دروساً عن الشعر القديم, وكتاب الحماسة خاصة[٢].

ومن الأدباء الذين ترددوا على غرناطة؛ ابن شرف القيرواني, ويبدو أنه في إحدى زياراته إلى غرناطة أهدى إلى أميرها باديس, كتابه الموسوم بـ (أبكار الأفكار), طرّزه بخطبة, فيها ما فيها من المدح والثناء على باديس ودولتِه, قال فيها: "ما ظننت الابتداع إلّا أبلغ, ولا حسبت الاختراع إلّا فرغ, حتى استأثرت بُنيّات صدري, ولطائف فكري ببيت واحد الجنسية, ومعنى غريب الأبنية, قلت لنفسي: هيهات لا شك أنك سبقت إلى هذه الغاية, وعِلتُك قِلّةُ الرواية, وكثر سباق الرواد, ومُرّاط الوُراد, فما تركوا للمتأخرين من الرياضِ زهرة, ولا من الحياض قطرة..."[٣].

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن الحكم: كاتب باديس بن حبوس ملك غرناطة و(كان ناظماً ناثراً, حَسِن المحادثة, لائقاً بخدمة الملوك, وترقّى إلى أن استكتبه واستوزره باديس بن حبوس), ومن شعره في باديس بن حبوس, قوله:

صــابِحْ مُحَيَّــاهُ تَلْــقَ الــنجحَ فــي الأَمَــلِ
وانظــرْ بناديــه حُسْــنَ الشــمس والحَمَــلِ
مــا إنْ يُلاقــى خليــلٌ فيــه مــن خَلَــلٍ
وكلمــا حــالَ صــرفُ الــدهر لــم يَحُــلِ[١]

المُغرب في حلى المغرب, ج٢: ٢٢٣.

(٢) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي, آنخل جنثالث بالنثيا: ١٣٥.

(٣) الذخير في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ١٢٤ وما بعدها.

ويستمر ابن شرف في الحديث, حتى يذكر لنا وصوله إلى غرناطة؛ قائلاً: "ثم سفَّر لي الدهرُ عن سفرٍ إلى مغرب الدنيا ومشرق العليا, والبقعة المباركة الباديسية, والدولة المُظفرية, والمملكة الشامخة الحميريّة, والحضرة الشريفة المنيفة الغرناطية, فعاينْتُ عالماً في عالم, وقد شركوه في النسبة إلى آدم, وانفرد من مناسبتهم, وشذَّ عن مجانستهم بجميل طرائق, وحميد خلائق..."[١].

ومن الجدير بالذكر أنَّ ابن شرف القيرواني كان على صلة ببني زيري من قبل مجيئهم إلى الأندلس, إذ كان هو ومجموعة من الشعراء في خدمة المعز بن باديس[٢].

إذا كان ابن شرف القيرواني, قد أهدى كتابه (أبكار الأفكار) إلى باديس بن حبوس, وكتَبَ في مقدمته, الخطبة المذكورة آنفاً, هناك من العلماء من يرفض طلب أحد الأمراء وهو مجاهد العامري, أمير مُرْسية[٣], حيث طلب من تمام بن غالب اللغوي المعروف[٤], أنْ يزيد من ترجمة كتابه الذي ألّفهُ في اللغة, (مما ألّفَهُ تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد)؛ فرفض تمام, وأجاب مجاهد العامري, قائلاً: "والله لو بُذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب, فإني لم أجمعهُ له خاصة, لكن لكل طالب عامة"[٥].

---

(١) الذخير في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ١٢٥.

(٢) ينظر: رسائل البلغاء, محمد كرد علي: ٢٣٣ و ٢٣٥.

(٣) مرسية: مدينة بالأندلس ذات أشجار وحدائق, وإليها يُنسب أبو غالب تمام بن غالب اللغوي المرسي, وكان أبو الجيش مجاهد العامري, صاحب دانية قد غلب على مرسية وأرسل إلى أبي غالب ألف دينار, على أن يزيد في ترجمة الكتاب, فرَدَّ الدنانير وأبى. ينظر: معجم البلدان, ج٥: ١٧٠, والروض المعطار: ٥٣٩.

(٤) تمام بن غالب: كان إماماً في اللغة, ثقة في إيرادها, له كتاب مشهور, جَمَعَه في اللغة, والقصة المذكورة آنفاً تدل على فضله ونزاهته, حتى الأمير مجاهد أُعجِب بردّه, ينظر: جذوة المقتبس, ج٥: ٢٨٣.

(٥) نفح الطيب, ج٣: ١٧٢.

وفضلاً عن وجود الكُتّاب في غرناطة, كان الأمراء يمتلكون ثقافة واسعة, ولهم المقدرة على الكتابة, فالأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري "قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة, شاعراً جيّد الشعر, مطبوعُه, حسِن الخط, كانت بغرناطة ربعة مصحف بخطه في نهاية الصنعة والإتقان"[١].

والدارس لكتابه: التبيان, المسمى بـ(مذكرات الأمير عبد الله), يَلحظ بأنّ المؤلف على قدرٍ عالٍ من الثقافة؛ فالمؤلف ذكر في الكتاب الكثير من الأمور التي تدل على سعة ثقافته, فمثلاً: آراؤه في التنجيم, وآراء طبية في الأغذية, والنبيذ, ومسائل فلكية, والعلوم الطبيعية والطب وغيرها من الأمور الثقافية, فضلاً عن الأحداث التاريخية[٢].

ويبدو أنَّ الأمير عبد الله قد ورث صنعة الكتابة عن والده بلقين بن باديس؛ فقد أورد لنا لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة نصّاً لبلقين بخطّ يده, عيَّنَ فيه أبو عبد الله بن الحسن الجذامي[٣] وزيراً وقاضياً في مالقة, قال فيه: "هذا ما التزِمهُ, وأعتقِدْ, وأعتَقَدَ به بُلكين بن باديس, للوزير القاضي أبي عبد الله بن الحسن الجذامي سلّمه الله, اعتقد به إقراره على خُطّة الوزارة والقضاء في جميع كُوَره, وأن يُجرى من الترفيع والإكرام له إلى أقصى غاية, وأن يُحمل على الجزية في جميع أملاكه بالكُوَر المذكورة, حاضرتها وباديتها الموروثة منها, والمكتسبة القديمة الاكتساب والحديثة,

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة, ج٣: ٣٧٩ وما بعدها.

(٢) ينظر: كتاب التبيان, المسمّى بـ (مذكرات الأمير عبد الله): ١٨٣ و ١٨٨ و ١٩١.

(٣) القاضي محمد بن الحسن الجذامي النباهي: قاضي مالقة, كان حازماً, صارماً في أحكامه, ولمّا توفي إدريس العالي, دخل باديس مالقة سنة (٤٤٨هـ), فملكها وقدم القاضي ابن الحسن الجذامي, ثم خرج باديس من مالقة, وعيّن ابنه بلقين للولاية من بعده. ينظر: تاريخ قضاة الأندلس: ٩٠ وما بعدها.

وما ابتاع منها من العالي[1] رحمه الله وغيره, لا يلزمها وَظيف بوجه, ولا يُكلف منها كُلفة على كل حال, وأن يُجرى في قرابته وخوله وحاشيته, وعامرى ضيفه, على المحافظة والبرُّ والحرية, وأقسم على ذلك كله بُلكين بن باديس, بالله العظيم, والقرآن الحكيم, وأشهَدَ الله على نفسه وعلى التزامه له, وكفى بالله شهيداً, وكتب بخط يده مستهل شهر رمضان العظيم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة, والله المستعان"[2].

يعلّق لسان الدين الخطيب على هذا النص, قائلاً: "ولا شك أنّ هذا المقدار يدل على نبل, ويعرف عن كفاية"[3].

وقد ازدهرت في هذا العصر فنّ المقامات, بعدما اطلع أهل الأندلس على مقامات الهمداني, وكانَ من أول المتذوقين لها, والناسجين على منوالها: ابن شهيد, وابن شرف القيرواني, وغيرهم[4].

وإذا سرنا مع تطور المقامات في المشرق, وجدنا صدىً لهذا التطور في الأندلس, فقد حرص الأندلسيون على متابعة كل ما هو جديد في المشرق[5].

وهكذا تبيّن لنا حركة شعرية دؤوبة, فقد تعددت روافد النشاط الأدبي في ظل الدولتين, ومنها المجالس التي كانت تعقد في حضرة الخلفاء الحموديين والزيريين ويحضرها عدد من الأدباء والعلماء, وكان للطبيعة دورٌ في اجتماع الأدباء ويتبادلون الأشعار هناك, فجمال الطبيعة مصدر إلهام لهم, ولا ننسَ دوْر النساء الشواعر, فقد

---

(١) هو إدريس بن يحيى المعتلي. ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٤٣٣.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٤٣٣, و تاريخ قضاة الأندلس: ٩١ وما بعدها.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٤٣٣.

(٤) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين), د. إحسان عباس: ٢٤٣.

(٥) ينظر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين, د. حازم عبد الله خضر: ٢٢٣.

أَسْهَمْنَ في الحركة الأدبية بما انتجن من شعر, ومن أشهرن نزهون الغرناطية, وحمدة الوادي آشية, ولا يفوتنا ذكر شعراء اليهود الذين شاركوا مشاركة فعالة في الحياة الأدبية في هذه المدة من عُمر الدولتين, أمثال: ابن النغريلة اليهودي, وموسى بن عزرا.

وفي مجال النثر لقي الأدباء عناية خاصة من لدن خلفاء بني حمود وبني زيري, وأغلبهم كان ممن يجمع بين الصناعتين, أمثال: غانم بن الوليد, وابن الحناط الكفيف, وغيرهم.

وقد نشطت حركة التأليف, فأُلّفت كثير من الكتب على عهد الدولتين, أمثال: أبكار الأفكار لابن شرف القيرواني, وحانوت عطار لابن شهيد الأندلسي, ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي, وشرح أشعار الحماسة لأبي الفتوح الجرجاني, وغيرها من الكتب الأدبية التي سنتناولها في حديثنا عن النثر التأليفي, في المبحث الثاني من الفصل الرابع من هذا البحث.

المبحث الثاني

حركة التأليف في ظل الدولتين

أسهمت الأوضاع السياسية التي عاشتها الأندلس, في مطلع القرن الخامس الهجري, في ازدهار الحركة الثقافية, فقد كانت هذه الأوضاع سبباً في انتشار كثير من المؤلَّفات التي كانت مقتصرة في كثير من الأحيان على مكتبات الحُكّام, فضلاً عن بيع عدد من المكتبات, إذ تسبَّبَتْ الأحداث السياسية في بيع العديد من الكتب التي كانت بقرطبة, وبخاصة ما كان في مكتبة الحكم؛ فقد عثر طلبة العلم على كتبٍ لم يستطيعوا الحصول عليها من قبل, ومثلما عُرضت مكتبات أخرى للبيع, مثل مكتبة ابن الأفطس(١), وقد جمعَ فيها من الكتب ما لم يجمعه أحد من قبله في الأندلس, وقد بقيت كتبه تباع مدة سنة كاملة, وبهذا أصبحت كثير من الكتب النادرة في متناول طلّاب العلم, وقد ألقى هذا الأمر بظلالِه على الحركة العلمية والأدبية في الأندلس(٢).

واهتمَّ ملوك الطوائف بالعلوم, وشارك بعضهم في التأليف, فالمظفر بن الأفطس "له التصنيف الرائق, والتأليف الفائق, والمترجم بالتذكرة, والمشتهر أيضاً اسمه بالكتاب المُظفّري(٣) في خمسين مجلدةً, يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسِيَرٍ ومَثَل وخَبَر وجميع ما يختص به علم الأدب, أبقاه للناس خالداً..."(٤).

---

(١) المظفر بن الأفطس: من جملة ملوك الطوائف, أصله من قبائل كناسة, تولّى المظفر الحكم بعد أبيه في بطليوس, وكان عالِماً وأديباً وشجاعاً, توفي سنة ٤٦١هـ. ينظر: أعلام الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ١٨٢ وما بعدها.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة), د. إحسان عباس: ١٣٧ وما بعدها.

(٣) الكتاب المظفري: ولعلّه مفقود, وعسى أن يجود الزمان فيُظهِر لنا هذه التحفة من المؤلفات القيّمة.

(٤) نفح الطيب, ج٣: ٣٨٠.

والأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في الأندلس ألّفَ كتاباً سَمّاهُ (التبيان), شَرَحَ فيه تاريخ مملكته[١] بأسلوب بليغ, وخَتَمَهُ بمقطوعات من شعرِه[٢].

ويبدو أنَّ الأوضاع السياسية التي كانت قائمة إبان هذه الحقبة, وحِرص بعض الملوك على الرياسة, جعَلَ بعضاً منهم يَحرمُ أبناءهُ من مطالعة الكتب والدواوين الشعرية, ويحثّه على التصدّي للعمل السياسي, فقد كان أبو خالد يزيد بن المعتمد شغوفاً بمطالعة الكتب, ولكن والده كان كثيراً ما يلومه على هذا الأمر, ويحثّه على التصدّي للحياة السياسية[٣].

وقد انمازت أكثر المدن الأندلسية بجمع الكتب, وافتخرَ علماؤها بذلك على غيرهم, وقد أوردَ لنا المقري مناظرة جرت بين ابن زهر[٤] وابن رشد[٥] في تفضيل قرطبة على إشبيلية, وإنها أكثر بلاد الله كُتُباً, من نحو ما قال: "إذا مات عالِم بإشبيلية فأُريدَ بيع كُتُبه حُملت إلى قرطبة حتى تُباع فيها, وإنْ مات مطرب بقرطبة فأُريد بيع آلاته حُملت إلى إشبيلية, وقال: وقرطبة أكثر بلاد الله كُتُباً"[٦].

---

(١) الكتاب مطبوع بتحقيق المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال, بإسم: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة.

(٢) ينظر: مشاهدات لسان الدين الخطيب: ٣٨٠.

(٣) ينظر: قلائد العقيان, ج١: ١١٠ وما بعدها.

(٤) ابن زهر: أبو العلاء بن زهر, مشهور بالعلم والمعرفة, وقد اشتغل بصناعة الطب في أيام المعتضد بن عباد, فضلاً عن اشتغاله بعلم الأدب, وقد انمازَ بحُسن التصنيف وجوْدة التأليف, ينظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء, ج٣: ١٠٤.

(٥) ابن رشد: أبو الوليد محمد بن رشد الأندلسي, من أهل قرطبة ألَّفَ نحو خمسين كتاباً في الفلسفةِ والحكمةِ والمنطقِ... وغيرها من العلوم, انمازَ بحُسن الخُلق وسَداد الرأي. ينظر: الأعلام, ج٥: ٣١٨.

(٦) نفح الطيب, ج١: ١٥٥.

تبيّنَ لنا أنَّ قرطبة بلاد العِلْم والعلماء, وإنها تهتم بالكُتُب والمؤلّفات, وتُفضّلها على سائر العلوم الأخرى, وإنَّ إشبيلية معنيّة بالغناء وآلات الطرب, وإنَّ الغناء والطرب يمثّل السمة العامة لأهل إشبيلية, وفيها سوق رائج لآلات الطرب واللهو والغناء.

وقد اشتهرت مدينة مالقة أيضاً بحب أهلها للكتب, وتفضيلهم القراءة على الخمر والغناء, وقد ذكر أحمد بن رضي المالقي(١) ما يؤيد هذا الأمر, قائلاً:

[البسيط]

لـيس المدامـة ممـا أسـتريح لـه
ولا مجاوبـةُ الأوتـار والـنغمِ
وإنمـا لَـذَّتي كُتُـبٌ أطالعهـا
وخـادمي أبـداً فـي نصـرتي قلمـي(٢)

وقد بيّنَ لنا الشاعر أهمية مطالعة الكتب, فهي تحقق له ما لا يحققه أيّ شيء في الوجود؛ ولذلك هو يقرأ ويسخّر قلمه ليكون نصيره في الحياة, فيفخر بما أنتجه, وينتصر به على المدن الأخرى التي تنافسه في التأليف.

ولعلّ مطالعة الكتب صفة انمازَ بها أكثر الناس في هذا العصر, وقد عَبّرَ عنها الشعراء, فهذا الشاعر محمد المصري يطلب من الناس منادمة الكتُب ومصاحبتها أبد الدهر, فمصاحبتُها تغذّي العقول بالأخبار والأسرار, مثلما يقول:

---

(١) أحمد بن رضي: هو من شعراء أهل مالقة, ولم أعثر على ترجمة وافية له.

(٢) نفح الطيب, ج٣: ٣٢٥.

فنـــادم الكُتُـــب ممـــا عُمّـــرت إنَّ لهـــا

عنـــدي وعَيْشِـــك أســـرار وأخبـــار[١]

إذا كان الشاعر في البيت الآنف الذكر يطلب من الناس منادمة الكتب ومصاحبتها, فهذا الشاعر ابن الحداد الأندلسي[٢] ينصح نفسه بالابتعاد عن الناس, والانفراد بالكتب التي يأمن صاحبها منها الزَلل والمَلل, مثلما يقول: [الخفيف]

ذَهَـــبَ النـــاسُ فـــانفرادي أنيســـي

وكتـــــابي مُحَـــــدّثي وجليســـــي

صـــاحبٌ قـــد أمِنْـــتُ منـــه مَـــلالاً

واخـــتلالاً وكُـــلَّ خَلْـــقٍ بئـــيسِ[٣]

ليس الحث على المطالعة, وملازمة الكتب, الميزة الوحيدة التي طالَبَ بها أكثر العلماء والأدباء في هذا العصر, وإنما حُسن التعامل مع الكتاب والمحافظة عليه, حتى تكون هناك رغبة دائمة في القراءة, فضلاً عن السؤال عمّا يجهلُه القراء؛ حتى تكون القراءة نافعة ومثمرة, ومن ثم يستفيد القارئ, ويُفيد الآخرين في المستقبل حينما يتصدى لمهنة التعليم, فهذا القاضي أبي محمد عبد الله الوحيدي[٤], يخاطب طُلّابَه بهذه الأمور, قائلاً: [البسيط]

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ٢٤١.

(٢) الشاعر ابن الحداد الأندلسي: أبو عبد الله ابن محمد ابن الحداد القيسي, كان متفنناً في العلوم ولا سيما القديمة, له ديوان شعر كبير, وكان أكثر عمره عند المعتصم بن صمادح ملك المرية, ثم فرّ إلى ابن هود صاحب سرقسطة, ثم عاد إلى المعتصم بن صمادح. ينظر: المُغرب في حلى المَغرب, ج٢: ١٤٤.

(٣) ديوان ابن الحداد: ٢٢٨.

(٤) هو أبو محمد عبد الله الوحيدي, أحد أعلام زمانه, ولي القضاء برَيَّه سنة ٥٣١, استمرت مدة ولايته ثمانية عشر عاماً, آلَ إلى الزهادة في آخر حياته وكثرة الاستغفار, توفي في مالقة سنة ٥٤٢هـ. ينظر: تاريخ قضاة الأندلس: ١٠٤ وما بعدها.

صُـــنْ الكتـــاب ولا تجعلـــه مِنـــديلا
ولا يكـــن صـــونه للـــدرس تعطـــيلا
وسَـــلْ فقيهـــك فيمـــا أنـــت جاهلُـــهُ
فَرُبَّمـــا كنـــتَ بعـــد اليـــوم مســـؤولا[١]

ويبدو أنَّ كثرة الحثّ على القراءة وجمع الكتب مِن لدن العلماء والأدباء للناس, جَعَلَ حتى غير المختصين يهتمّون بجمع الكتب ويتخذونها زينة في بيوتهم, وقد أورد المقري عن أحد العلماء قوله: "أقمت مرّة بقرطبة, ولازَمت سوق كُتُبِها مدّة, أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبِهِ اعتناء, إلى أن وقع وهو بخطٍّ جيد, وتسفير مليح, ففرحت به أشدّ الفرح, فجعلت أزيد في ثمنه, فيجعل إليّ المنادي بالزيادة علَيَّ, إلى أنْ بلغَ فوق حدّه, فقلت له: يا هذا أرني مَن يزيد في هذا الكتاب حتى أبلغه ما لا يساوي, قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة, فدنوت منه, وقلت له: أعَزَّ الله سيدنا الفقيه, إنْ كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك, فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه, قال: فقال لي: لستُ بفقيه, ولا أدري ما فيه, ولكنّي أقمت خزانة كتُب واحتفلت بها بين أعيان البلد, وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب, فلمّا رأيته حَسِن الخط, جيّد التأليف, استحسنته ولم أبخل بما أزيد فيه"[٢].

ويَلْحَظْ هنا أنَّ شُغْل الناس الشاغل في هذا العصر هو جمْع الكتُب, والبحث عن الكتب النادرة, والقضية المهمّة التي تعرّفنا عليها من النص الآنف الذِكر, هي كيفية اعتناء بائعي الكتب بجودة الخط وتجليد الكتب, وهذا ما يؤكد ازدهار سوق الوراقة في هذا العصر.

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس: ١٠٤.

(٢) نفح الطيب, ج١: ٤٦٣.

وقد أصبحت مهنة بيع الكتب هواية عند العلماء, حتى بلغ الأمر عند البعض منهم بأنْ يتخلوا عن مهنتهم الأم, ويزاولون بيع الكتب في الأسواق, إذ نرى أنَّ العلماء في غرناطة اندمجوا في بيع الكتب وشرائها, مع قلة ما تعود عليهم هذه المهنة من أرباح, وقد انسحبَ هذا الأمر إلى مهنة الوراقة, فهذا الشاعر ابن سارة اشتغلَ زماناً بهذه المهنة, على الرغم من الشهرة والمنزلة الكبيرة التي كان يمتلكها بين أبناء عصره, وإنْ دَلَّ هذا الأمر على شيء فإنه يدل على نشاط حركة التأليف في هذا العصر[١].

ويبدو أنَّ عادة جمْع الكتب وحُبّ المطالعة عند العرب في الأندلس, قد سَرَتْ عند الإسبان النصارى, وقاموا بجمع الكتب العربية, وأفادوا منها[٢], وبخاصّة الشباب منهم, التي لم تعجب علماءهم, الذين يريدون من هؤلاء الشباب الإقبال على الكتب المسيحية أو الإنجيل, أو تفنيد الكُتب العربية, بدلاً من الإقبال عليها بشغفٍ ولهفةٍ, حتى راح أحد علمائهم يتأسّف على هذا الفعل؛ قائلاً: "إنَّ الشباب المسيحيين الذين هُمْ أبرز الناس مواهب, ليسوا على عِلْم بأيِّ أدب, ولا أيّة لغة غير العربية؛ فهم يقرأون كُتُب العرب, ويدرسونها بلهفةٍ وشغفٍ, وهم يجمعون فيها مكتبات كاملة تكلّفهم نفقات باهظة, وإنهم لَيَترنّموا في كل مكان بمدح تراث العرب, وإنّك لَتَراهُم مِنَ الناحية الأخرى يحتجّون في زِراية, إذا ذكرت الكتب المسيحية بأنَّ تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم..."[٣].

---

(١) ينظر: التربية الإسلامية في الأندلس (أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية), خوليان ريبيرا: ١٩٣.

(٢) ينظر: حضارة الإسلام, جوستاف جرونيباوم: ٨١ وما بعدها.

(٣) م. ن: ٨٢.

وتميّزت الأندلس في هذا العصر بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة, ولكن للأسف سقط كثيرٌ منها من يد الزمن, ولم يبقَ منه إلّا القليل, ولعله كان للخصومات السياسية بين ملوك الطوائف, والخصومات الأدبية بين الأدباء أنفسهم, أثَرٌ كبيرٌ في ضياع كثير من هذه المؤلفات, فقد شكّل النزاع السياسي المستمر بين غرناطة وإشبيلية أثراً سلبياً على الأدباء؛ فَمَدْحُ بني زيري والتقرّب إليهم, والتأليف في دولتهم ربما يُثير ضغينة حكّام إشبيلية, ومن ثم تشكّل هذه القضية عقبة عند البعض من الأدباء الذين يترددون على ملوك الطوائف الأخرى, وما يتعلق بالخصومات الأدبية, ابن شهيد يتهم ابن الأفليلي بضعف التأليف, مع إنَّ الأخير قد ألّف كتاباً يشرح فيه ديوان المتنبي, والخصومة الأدبية بين ابن شهيد وابن الأفليلي كانت قائمة آنذاك, وكان للخصومات السياسية بين ملوك الطوائف, والخصومات الأدبية بين الأدباء أنفسهم, أثرٌ كبيرٌ في ضياع الكثير من هذه المؤلفات[١].

والدارس لشعراء هذا العصر, يلحظ بأنَّ كثيراً منهم قد ضاعت أشعارهم, وبخاصة الشعراء الذين ينتمون لبني حمّود وبني زيري, ولكن هناك عدداً منهم قد حُقّقت دواوينهم, مثل: ابن دراج القسطلي[٢], وابن شهيد الأندلسي[٣], وأبي إسحاق الإلبيري[٤].

وبعضهم جُمِعتْ أشعارهم؛ إذ تصدّى عدد من الباحثين والمهتمين بالتراث العربي الأندلسي بجمع أشعارهم, وإغناء المكتبة الأندلسية بها, مثل شعر عبادة بن

---

(١) ينظر: عواصم بني زيري, إسماعيل العربي: ٩٧ وما بعدها, و الحركة اللغوية في القرن الخامس الهجري, البير مطلق: ٣٦٠.

(٢) ديوان ابن دراج القسطلي, بتحقيق: د. محمود علي مكي.

(٣) ديوان ابن شُهيد الأندلسي, بتحقيق: يعقوب زكي.

(٤) ديوان أبي إسحاق الإلبيري, بتحقيق: د. محمد رضوان الداية.

ماء السماء[١], وشعر غانم بن الوليد[٢], وشعر إدريس بن اليمان اليابسي[٣]... وغيرهم.

أمّا القسم الثالث فلم تُجمَع أشعارهم, وبقيت مبثوثة في بطون الكتب, مثل: الشاعر محمود المصري, وابن مقانا الأشبوني[٤], وابن السراج المالقي, والقاضي علي ابن حسون, والمنفتل, والأخفش بن ميمون القبذاق, وابن النغريلة اليهودي, وابن جبيرول... وغيرهم.

وفي مجال التأليف, فقد أُلّفتْ كثير من المؤلفات على عهد بني حمود وبني زيري, وقد شهدت حركة التأليف صنوف المعرفة كافة: الأدب, والتاريخ, والجغرافية, والدين, والفلسفة, والفلك, ففي حقل الأدب أَلّفَ الشاعر عبادة بن ماء السماء كتاب (أخبار شعراء الأندلس)[٥], وقد تحدّث الشاعر فيه عن شعراء القرون الماضية التي سبقت عصر الشاعر, مع ذكرِهِ لنماذج من أشعارهم, فضلاً عن ذكرِهِ كثيراً من

---

(١) شعر عبادة بن ماء السماء (٤٢١هـ), جمع ودراسة الدكتور محمد حسين عبد الله المهداوي, والدكتور عدنان محمد آل طعمة, مجلة جامعة أهل البيت (ع), العدد (١٣), ٢٠١١م.

(٢) من أعلام الأندلس (أبو محمد غانم بن الوليد القرشي المالقي) أخباره وجمع آثاره (بحث).

(٣) شعر إدريس بن اليمان, أحمد عبد القادر صلاحية, مجلة مجمع اللغة العربية, دمشق, ج١, مج ٨١, ٢٠٠٦م, وقد جمع شعره الدكتور محمد عويد الساير مع مجموعة من الشعراء في كتابه الموسوم بـ (شعراء أندلسيون منسيّون), وقد جمع الدكتور الساير أيضاً أدب العميان في الأندلس ومن جملتهم ابن الحنّاط الكفيف, في كتابه (ما تبقّى من أدب العميان في الأندلس).

(٤) كَتَبَ الدكتور عدنان محمد آل طعمة بحثاً عن ابن مقانا الأشبوني, الموسوم بـ(ابن مقانا الأشبوني شاعر الدولة الحمودية) المنشور في مجلة جامعة أهل البيت (عليهم السلام), العدد (٦), ٢٠٠٨م.

(٥) الكتاب غير مطبوع.

الأحداث السياسية التي رافقتْ حياة الشعراء[١], وقد وَصَفَهُ القدامى بأنه كتاب حَسِن وجَيّد[٢].

وكتاب (أبكار الأبكار)[٣], لابن شرف القيرواني, وقد جمعَ فيه ما اختاره من شعرِه ونثرِه[٤], ولابن الحناط رسائل عدة في آل حمود, ومنها: (النيروزية)[٥], وكتَبَها إلى إدريس العالي, و(رسالة طردية)[٦], يصف فيها رحلته مع علي بن حمود, وفيها كثيرٌ من الأشعار في مدحِه والثناء عليه[٧].

وفي الرسالة عددٌ من الأبيات الشعرية التي جاءت في مدح علي بن حمّود, فمن جملة ذلك أبيات يُثني فيها ابن الحناط على ابن حمّود وكأنه يجعله الحاكم الأوحد في عصره, الذي حباه الله بكثير من الخصائل والشمائل, بحيث يستغني من يلجأ إليه عن الحكام الآخرين, من نحو ما قال: [الطويل]

فتـــى واحـــد فـــي عصـــرِه غيـــر أنـــه

(١) بقيت من هذا الكتاب فصول قليلة مخصصة لشعراء القرنيْن الثاني والثالث, وفيها يذكر سير أخبار الشعراء, مع ذكرِه لنماذج من أشعارهم. ينظر: المصادر التاريخية العربية في الأندلس: ٢٣٢.

(٢) ينظر: جذوة المقتبس, ج٧: ٤٦, ونفح الطيب, ج٣: ١٧٣.

(٣) الكتاب غير مطبوع, وقد أورد صاحب الخريدة الكثير من نصوص هذا الكتاب. ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٢٢٤-٢٣٠.

(٤) ينظر: تاريخ الأدب العربي, ج٤: ٥٦٤.

(٥) أورد صاحب كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة نصّاً قصيراً لهذه الرسالة, ويبدو أنه يهنئ بها إدريس الحمودي على تسلّمه الحُكم, جاء فيها: (هنّأ الله أمير المؤمنين وابن خاتم النبيين, كان تأييد الإله رائدهُ, وحُسن اليقين به قائدهُ). ينظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة, السفر السادس: ٢٢٢, وما تبقّى من أدب العميان في الأندلس: ١٨.

(٦) أوردَ صاحب الخريدة هذه الرسالة كاملة, وهي مقسمة على فصول عدة: في الأكل والشرب وفي الركوب في البحر وصيد أصناف من الأسماك, وفصل في وصف المكان. ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٢٩٨-٣٠٨.

(٧) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٣٠٥.

يقـــــوم لراجيــــــه مقــــــام ألـــــوفِ

ومــــا هـــــو إلّا رحمـــــة الله مـــــدّها

علـــى كـــلّ ملهـــوفٍ وكـــلّ ضـــعيفِ

وأنفَـــذَ فـــي الأحكـــام آراء فيصـــل

لهـــا فـــي قضـــاياه مضـــاء ســـيوفِ

فقـــل لليـــالي عـــن أياديـــه إنهـــا

حصـــوني التـــي أعـــددتها وكهـــوفي(١)

وكان لإعجاب الأدباء الأندلسيين بأشعار المشارقة أثرٌ كبيرٌ في تأليف عدد من الشروح لأشعارهم, والدارس لهذه الشروح يلحظ بأنها كانت في اتجاهيْن:

الاتجاه الأول: شروح لدواوين الشعراء, كشرح ابن الإفليلي لديوان المتنبي.

الاتجاه الثاني: شروح لمجاميع, كشرح ديوان الحماسة لأبي الفتوح الجرجاني, وشرح الأشعار الستة للأعلم الشنتمري(٢).

وقد اتّبع أبو القاسم الإفليلي المنهج التاريخي في دراسته لقصائد المتنبي(٣), فضلاً عن عنايته بالجانب الفني(٤).

ولعلّ أبا القاسم قد لاقى عناية من بني حمود, الأمر الذي جعله يتجه إلى تأليف هذا الكتاب؛ فمن أبيات له في يحيى بن حمود, يقول فيها: [المديد]

---

(١) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٣٠٥.

(٢) ينظر: الحركة اللغوية في الأندلس: ٣٢٦.

(٣) الكتاب مطبوع بجزئيْن, بتحقيق: د. مصطفى عليان.

(٤) ينظر: شرح شعر المتنبي, ج١: ٦٨.

أنـــتَ خيــر النـــاس كلّهـــمُ   يـــا بـــن مـــا مِثْلُـــهُ بَشَـــرُ
فـــــإذا مالَحــــــتَ بيـــــنهم   قيـلَ هـذا البَـدوُ والحَضَـرُ[١]

فالقارئ لهذيْن البيتيْن, يلحظ وكأنّ أبي القاسم قد وجد ضالّته في بني حمّود, من ناحية اهتمامهم بالأدب والعلم, بعدما عانى ما عانى في ظل الحكومات السابقة[٢].

وشرحُ أشعار الحماسة لأبي الفتوح الجرجاني[٣], كان معنياً بشرح الكلمات التي يعتريها الغموض في الأشعار الواردة, فضلاً عن التعليقات التي ترد في شرح الأبيات من الشارح.

ويبدو أنَّ هناك اتجاهاً آخَر اهتمّ بشرح بعض الأشعار المختارة من شعراء المشرق[٤], وقد مثّل هذا الاتجاه: إسماعيل التجيبي المالقي[٥], في شرحه لمختارات من أشعار بشار بن بُرد, وقد كان الشارح معنيّاً في إبراز ثقافة بشار الشعرية؛ فهو

---

(١) المُغرب في حُلى المغرب, ج١: ٧٣.

(٢) كان المنصور بن أبي عامر يلاحق الناس في أفكارهم وآرائهم, ويبدو أنَّ أبي القاسم كان متهماً بالفكر الاعتزالي الذي كان يُعد من أكثر الأفكار التي تهدد السلطة يومئذٍ. ينظر: شرح ديوان المتنبي, ج١: ٣٣ و ٣٦.

(٣) الكتاب مخطوط, وهو موجود بين يَدَيْ الباحث.

(٤) اسم الكتاب: هو المختار من شعر بشار من اختيار الخالديين, وقد قام إسماعيل التجيبي المالقي بشرحه, والكتاب مطبوع بتحقيق: محمد بدر الدين العلوي.

(٥) إسماعيل بن أحمد بن زيادة التجيبي البرقي: من أهل اللغة والفضل الوافر. ينظر: بغية الوعاة, ج١, ٤٤٣.

في أغلب الأبيات التي يرد ذكرها, يذكر أشعار مشابهة لها عند شعراء قدامى ومحدثين, فضلاً عن شرحه للأبيات(١).

وساعدت الأوضاع التي عاشتها الأندلس، في القرن الخامس الهجري، على دفع عجلة النقد الأدبي إلى الأمام، فهناك تخلخل في المقاييس، واضطراب في الحياة الاجتماعية والأدبية، ومن هنا كان للأدباء دورٌ كبيرٌ في تعزيز دور الأدب الأندلسي أمام الآداب الأخرى، وتعزيز الثقة بالأديب الأندلسي أيضاً(٢).

وكَتَبَ ابن حزم (٤٥٦هـ) رسالة في فضل أهل الأندلس، يحكم فيها على الشعراء أحكاما متباينة، ويقدّم فيها من يستحق التقديم(٣)، فكان في جملة ما جاء في هذه الرسالة، قوله في ابن دراج القسطلي (٤٢١هـ): "ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلّا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخّر عن شأو بشار بن برد، وحبيب، والمتنبي"(٤).

ولابن شهيد الأندلسي مؤلفات ذات طابع نقدي, منها: كتابه حانوت عطار، ورسالته التوابع والزوابع، فكتابه حانوت عطار فيه أحكام نقدية عامة، ونماذج شعرية تنسجم مع هذه الأحكام(٥).

---

(١) ينظر: المختار من شعر بشار, وعلى سبيل المثال الصفحة ١٥٢.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة): ١٤١.

(٣) م. ن: ١١٤.

(٤) رسائل ابن حزم (٤٥٦هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، ج ٢: ١٨٧.

(٥) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري): ٤٧٦.

أما في رسالته التوابع والزوابع، فقد أراد ابن شُهيد أن يثبت فيها مقدرته الأدبية في الصناعتين؛ إذ نشبت بينه وبين بعض الأدباء في زمانه منافسات أدبية، دفعت بعضاً منهم إلى أنْ يَسعَوْا به إلى الحكام، وينتقصون من أدبِهِ(١).

ولابن شَرَفْ القيرواني مقامة تسمى: أعلام الكلام، تضمنت آراء نقدية، وقد تطرق فيها إلى قضايا نقدية مهمة في النقد العربي، ومنها: طبقات الشعراء، واللفظ والمعنى، والسرقات الشعرية، والقديم والحديث، والمطبوع والمتكلف، والعيوب العروضية(٢).

وكان للذوق الأدبي والإعجاب بأشعار المشارقة، حافزٌ لدى بعض الأدباء لدراسة هذه الأشعار؛ فوُضعت في الأندلس شروحٌ لشِعر الشعراء، فمثلاً: شرح الشعراء الستة للأعلم الشنتمري، وشرح ديوان المتنبي لابن الإفليلي، وشرح ديوان الحماسة لأبي الفتوح الجرجاني(٣).

ومن الكتب النقدية الأخرى التي تضمنت آراء نقدية: كتاب البديع في وصف الربيع، لأبي الوليد الحميري (٤٤٠هـ)، فقد "ضم الكتاب بين دفتيه قضايا نقدية

---

(١) نشبت خصومة بين ابن شهيد، وابن الحناط، وأبي القاسم الإفليلي، وأحمد بن عباس الكاتب وزير زهير الصقلبي، كانت حصيلة هذه الخصومة أن انعقدت بينهم مناقضات في الشعر والنثر. ينظر: بدائع البدائة: ٨٣ وما بعدها، و رسالة التوابع والزوابع: ٣٧ و ٤٩، وتاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة): ١٤١ وما بعدها، و تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات (الأندلس): ٤٥٠.

(٢) ينظر: القضايا النقدية في كتاب مسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني، رسالة ماجستير، فازية مصباحي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ٢٠١٢م: ١٥.

(٣) ينظر: البديع في وصف الربيع, لأبي الوليد إسماعيل الحميري الإشبيلي (٤٤٠هـ): ٤٦ وما بعدها، و تيارات النقد الأدبي في الأندلس (في القرن الخامس الهجري): ٩٠ و ١١٣ و ١٧٩، و تاريخ الفكر الأندلسي: ١٣٥.

جوهرية تشكل لُبنات جديرة بالعناية والاهتمام في تاريخ النقد الأدبي؛ إذ نراه يحلّق في آفاق نقدية تمسّ رُكْنَيْ النص الأدبي المتمثلَيْن في الشكل والمضمون، مع الكشف عن مَواطن الجمال في الصورة البيانية، وموازنات ومقارنات بين المقطوعات الشعرية، وتحليل للألفاظ، إلى أحكام عامة تنمّ عن ذوق وإدراك لمَواطن الحُسن والإبداع..."[١].

ومن الكتب الأخرى كتاب: المحاضرة والمذاكرة، لموسى بن عزرا، الذي اهتم بالشعر العبري، متخذاً من الشعر العربي مصدراً لهذا التأليف، معترفاً بفضله، وموضحاً مظاهر العظمة فيه[٢].

ويُعد موسى بن عزرا أول مَن وضع قواعد النقد والبلاغة العبرية في هذا العصر، في كتابِه (المحاضرة والمذاكرة)[٣]. وابن عزرا اليهودي عندما ألّفَ هذا الكتاب كان متأثراً بالجوّ الثقافي في غرناطة، الذي تميّز بالازدهار في عصر الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري[٤].

ومما تجدر الإشارة إليه، إننا نعثر على نقاد لديهم من الآراء النقدية ما تستحق أن تُجمع، لكي تصبح مادة لدراسة أدبية في النقد، فهذا ابن حيان القرطبي (٤٢٢هـ) المؤرخ في كتاباته التاريخية لم يقتصر على الترجمة لهم أو لأخبارهم، وإنما يشفع ذلك بالحُكم لهم أو عليهم[٥].

---

(١) البديع في وصف الربيع: ٤٨.

(٢) ينظر: المحاضرة والمذاكرة: ١٠، و المكونات العربية في الشعر العبري الأندلسي (موسى بن عزرا أنموذجا) (بحث): ٥٤.

(٣) ينظر: المحاضرة والمذاكرة: ١٠.

(٤) ينظر: المكونات العربية في الشعر العبري الأندلسي (مروان بن عزرا أنموذجا): ٥٥ وما بعدها.

(٥) لأبي حيان آراء في الكثير من الأدباء ومنهم: ابن حزم، وابن شهيد، وأبو القاسم الإفليلي، فمن جملة آراءه قوله في ابن شهيد: "كان أبو عامر يبلغ المعنى، ولا يطيل سفر الكلام، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظيره في بديهيته ورؤيته..."، ينظر: المقتبس، ج ٢: ١٣٦ و ١٣٩ وما بعدها.

ولم تكن كتابة التاريخ ببعيدة عن الحركة الثقافية التي رافقت عصر بني حمّود وبني زيري في الأندلس, فكَتَبَ ابن حيان[1] في تاريخ الأندلس كتابَهُ (المقتبس), وتناول فيه تواريخ الدول التي قامت قبل عصر الطوائف, حتى العصر الذي عاش فيه المؤلف[2].

ولابن حيان كتاب آخر تحدث فيه عن تاريخ الأندلس يسمّى (المتين), ويبدو أنّ هذا الكتاب يبتدئ فيه المؤلف في العصر الذي نشبت فيه الفتن والاضطرابات سنة ٣٩٩هـ, إلى قبيل وفاة المؤلف بسنوات, سنة ٤٦٣هـ[3].

إذا كان ابن حيان قد تحدّث في (المقتبس) و (المتين) عن تاريخ الأندلس بشكل عام, فقد كَتَبَ الأمير عبد الله آخِر ملوك بني زيري, تاريخ مملكته في

---

(١) ابن حيان: هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان, من أعظم مؤرخي عصر الطوائف, قرطبي الأصل, كان يتمتع بثقافة واسعة؛ إذ درسَ النحو وتفقّه وأتقن الأدب, ثم انتظم في سلك وظائف الدولة, توفي سنة ٤٦٩هـ. ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ٢٤٥.

(٢) كتاب المقتبس: يقع في عشرة أجزاء, تتناول تاريخ الأندلس منذ افتتاحها حتى العصر الذي عاش فيه المؤلف, ولكن لا نجد اليوم إلّا خمسة أجزاء منه, جزء يضم إمارة الحَكَم (١٠٨-٢٠٦هـ), وشطراً من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ), وقد تملّكه المستشرق ليفي بروفنسال, ورجعَ إليه في كتابِهِ (تاريخ إسبانيا الإسلامية), ويبدو أنّ مصير هذا الجزء مفقود بعد موت بروفنسال, وضمّ الجزء الثاني إمارة عبد الرحمن الأوسط, وابنه محمد (٢٣٨-٢٧٤هـ), وقد نشرهُ الدكتور محمود علي مكي ببيروت, ويتحدث الجزء الثالث عن عصر الأمير عبد الله, نشرهُ الأب منشور أنطونيا سنة ١٩٢٨م, ويتحدث الجزء الرابع عن خلافة حكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦), وقام بنشرِهِ إميليو غارسية غومس, وأخيراً الجزء الخامس الذي يتحدث فيه ابن حيان عن خلافة المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ), وقام بنشرِهِ الدكتور عبد الرحمن الحجي. ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ٢٤٦, و عصر الدول والإمارات: ٥٠٢.

(٣) الكتاب ضخم ويقع في ستين مجلد, ويبدو أنَّ ضخامة حجم الكتاب كانت السبب في فقدانه وضياعه, ينظر: عصر الدول والإمارات: ٥٠١.

الأندلس, والأحداث التي رافقت هذه المملكة, منذ قيامها إلى وقت سقوطها على أيدي الموحدين(١).

وفي الجانب الديني ألّفَ ابن حزم الأندلسي رسالة رَدَّ فيها على ابن النغريلة اليهودي(٢), الذي استهزأ بالقرآن الكريم, وراحَ ينظم فيه أبياتاً, قال فيها: [م. الرَمَل]

نَقَشَتْ فـي الخَـدِّ سَـطراً مِـن كتـابِ الله مـوزون
لـن تنـالوا البِـرَ حتـى تُنفقـوا ممـا تحبّـون(٣)

والرسالة في قسمين, في الأول: تحدّث ابن حزم عن المشكلات التي أثارها ابن النغريلة, ويردّ ابن حزم على كل مشكلة منها, والآخَر: يناقش فيه بعض القضايا التي وردتْ في كتب اليهود(٤).

وفي الجانب الديني أيضاً ألَّفَ القاضي محمد بن سليمان المالقي كتاب (المَوْطأ)(٥), وهو شرح كبير لكتاب مالك, وَصَفَهُ القاضي النباهي بأنه كتاب حَسِن وجيّد(٦), وتأليف القاضي المالقي لكتابِه (الموطأ) يدلّ على مدى الحرية في التأليف, التي كانت سائدة في ظل بني حمّود الذين كانوا يُدينون بالمذهب الشيعي, و(الموطأ) هو كتاب عن مذهب مالك, وفضلاً عن الحرية في التأليف, هناك الحرية في المذهب, فبنو حمّود لم يُجبروا الآخرين على اعتناق عقيدتهم.

---

(١) الكتاب مطبوع, وقد نشرهُ المستشرق ليفي بروفنسال, بإسم (مذكرات الأمير عبد الله).

(٢) الرسالة مطبوعة مع أربعة رسائل, بتحقيق: د. إحسان عباس, بعنوان: الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى, والرسائل الثلاثة البقية, هي: رسالتان أجاب فيهما عن رسالتين سُئل فيهما سؤال تعنيف, ورسالة التلخيص لوجوه التخليص, والأخيرة: يردّ فيها على الكندي الفيلسوف.

(٣) المُغرب في حلى المَغرب, ج٢: ١١٤.

(٤) ينظر: الرد على ابن النغريلة اليهودي: ١٩.

(٥) الكتاب مفقود.

(٦) ينظر: تاريخ قضاة الأندلس, أبو الحسن بن عبد الله النباهي المالقي الأندلسي: ١٠٠.

ويبدو أنَّ الاهتمام بالجانب الأخلاقي, صفة انمازتْ بها دولة بني حمّود وبني زيري, فقد ألَّفَ ابن جبيرول كتاب في الأخلاق سمّاه (كتاب إصلاح الأخلاق)[1], ويبدو أنَّ هذا الكتاب تحدّثَ فيه ابن جبيرول عن صفات النفس من خلال الحواس الخمس, والقصد من تأليف هذا الكتاب هو إصلاح سلوك الإنسان وتوجيههِ الوجهة الصحيحة[2]. وألّفَ في الفلسفة ابن جبيرول كتابَهُ (ينبوع الحياة)[3], ويبدو أنَّ الفلسفة في ظل بني حمود وبني زيري لم يضيق عليها الخناق مثلما كانت عليه في السابق, وفي ظل بعض ملوك الطوائف الأخرى, فقد قام ابن عباد بإحراق كُتُب ابن حزم الأندلسي التي تحدّث فيها عن الفلسفة, والمنطق[4], ولمّا سمع ابن حزم بذلك, قال:

[الطويل]

فإنْ تحرِقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمّنهُ القرطاس بلْ هو في صَدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي
وينزل إنْ نزِل ويُدفن في قبري
دعوني من إحراق رَقٍّ وكاغد
وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس من يدري[5]

---

(١) الكتاب مكتوب باللغة العِبرية.

(٢) ينظر: يهود الأندلس والمغرب, ج١: ١٥٣.

(٣) ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب, ولم تبقَ إلّا ترجمته اللاتينية, وقطعة من ترجمته العبرية. ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ٥٥٢.

(٤) حذّر الفقهاء الذين عاشوا في عصر الطوائف ملوكهم من التقرب إلى ابن حزم؛ لاهتمامه بالفلسفة والمنطق, فأصبح الملوك يُقصونه عن قربهم, وحُرقت بعض كتبه في إشبيلية في ظل بني عباد. ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة, ج٤: ١١٥ وما بعدها.

(٥) ديوان ابن حزم: ٢٢٩.

وبرزَ في علم الفَلَكْ والهندسة والطب أبو القاسم ابن السمح[١], فممّا ألّفَ في الهندسة كتابه (المدخل إلى الهندسة)[٢] في تفسير كتاب إقليدس[٣], وكتاب (ثمار العدد)[٤], وكتاب (طبيعة العدد)[٥], الذي تحدّث فيه عن أجزاء الخطوط: المستقيم والمقوس والمنحني, ولهُ كتابان في الاسطرلاب, وهو مقسّم على قسمين, الأول: في التعريف بصورة صنعتها, والثاني: بالتعريف بجوامع ثمارها[٦].

كان الهدف من التأليف عند بعض العلماء, هو لفائدة طلبة العِلم الذين تقع على عاتقهم مسؤولية تكملة المسيرة العلمية التي بدأ بها أساتذتهم, فهذا مجاهد العامري يطلب من تمّام بن غالب, اللغوي المعروف, بأنْ يضيف اسمه على كتاب ألّفَهُ في اللغة, لكنه يرفض رفضاً تامّاً, ويقول له: "والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب, فإني لم أجمعهُ له خاصة, لكن لكلّ طالب عامّة"[٧].

والحركة الثقافية التي شهِدَتها الأندلس في عصر ملوك الطوائف بشكل عام, وفي ظل بني زيري بشكل خاص, ظلت خالدة على مرّ العصور, فهذا لسان الدين

---

(١) أبو القاسم بن السمح: هو أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهدي, كان متحققاً بعلم العدد والهندسة, ومتقدماً في علم هيئة الأفلاك وحركات النحو, توفي في غرناطة في عهد الأمير حبوس بن ماكسن بن مناد الزيري سنة ٤٢٦هـ. ينظر: طبقات الأمم: ٩٠, وتاريخ الفكر الأندلسي: ٥٠٣.

(٢) الكتاب غير مطبوع.

(٣) إقليدس: عالم كبير في الهندسة, كَتَبَ أكبر وأنفع كتاب في الهندسة, سمّاه (أصول الهندسة), وكان الفلاسفة الإغريق يضعون على أبواب مدارسهم العبارة الشهيرة (لا يدخلها من لم يتعلم أصول هندسة إقليدس). ينظر: الخالدون من أعلام الفكر, الجزء العربي: ٤٢.

(٤) الكتاب غير مطبوع.

(٥) الكتاب غير مطبوع.

(٦) ينظر: طبقات الأمم: ٩١, وتاريخ الفكر الأندلسي: ٥٠٣.

(٧) جذوة المقتبس, ج٥: ٢٨٣.

بن الخطيب يمرّ على قصر باديس بن حبوس, وكأنه يتمنّى بأنه عاشَ في ظل هذه الدولة؛ لكي ينعم بالعيش الرغيد الذي تنَعّمَ به غيره من العلماء, مِن نحو ما قال:

[الطويل]

عسى خطرةٌ بالركب يا حادي العيس
على الهضبة الشمّاء من قصر باديس
لنظفـــر مـــن ذاك الـــزلال بعَلّـــةٍ
ونـــنعم فـــي تلـــك الظـــلال بتعـــريس
لقـد رسـخت آيُ الجَـوى فـي جـوانحي
كما رسخَ الإنجيل في قلب قسّيس[١]

وهناك كثير من الأدباء والعلماء الذين عاشوا في كنف الدولة الحمودية والزيرية ممن اشتهروا ببراعتهم بسائر العلوم التي كانت سائدة آنذاك, مثل الطب والفلسفة والأفلاك... وغيرها من العلوم, فضلاً عن تمكنهم في كتابة الصناعتين, ومن المؤكد أنه كانت لهم مؤلفات في هذه المجالات, لكنها ضاعت مثلما ضاعَ غيرها, ومنهم: ابن الحناط الكفيف, فهو فضلاً عن تمكّنه من الصناعتين, كان عالِماً بالأفلاك والطب وسائر العلوم الأخرى, فقد ذكَرَ ابن بسام ذلك في سياق حديثه عن ابن الحناط, وفضله, ومنزلته العلمية, قائلاً: "وكان من أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية, والإسلام, بصيراً بالآثار العلوية, عالِماً بالأفلاك والهيئة, حاذقاً بالطب, والفلسفة, ماهراً في العربية, والآداب الإسلامية, وسائر التعاليم الأوائلية"[٢].

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب: ٧٢٩.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٣٣٩.

وغانم بن الوليد المالقي الذي كان مشهوراً بين علماء عصرِه بمهارتِه في البيان, وبراعتِه في المنظوم, فكانت مهارته في الصناعتين تستميل لها الأسماع, وتعمر الجوانح والأضلاع, فقد وَصَفَهَ القدامى بأنه كان: "معَظَّماً عند الملوك, مقرَّباً لديهم, مع ما كان عليه يرحمه الله من الحفظ للآداب واللغة, وغلب عليه الأدب, وبه اشتهر"(١).

ويَنقل لنا صاحب كتاب أعلام مالقة, قول أحد الكُتّاب فيه: "حَبْرٌ يعجز عن وصفِه اللسان, وبحرٌ يحدّث عنه بلا حرج الإنسان, وبدرٌ طلَعَ بين ذوائب النوائب في سماء الإحسان, إنْ نثرَ فأسبقَ في البيان من سحبان(٢), أو نظم فأثبت في الإحسان من حسان, وأعرف من آلِ جُفنة في غسان"(٣).

بعد ذِكْر ما تقدّم, لا يصدّق أحد أنّ مثل هكذا أديب وعالِم, لم تكن له مؤلفات أفاد منها كُتّاب عصره, والذين جاءوا من بعدهم, وإلّا بماذا نفسّر هذه الكلمات السابقة التي قيلت في حقّه من علماء بارزين.

وبرَزَ في مالقة في عهد بني حمود الفقيه عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي, فقيه مالقة, كان فقيهاً مشهوراً جليل القدر, قيل عنه: "عُصْرةُ أهل العِلم الرفيعة, وهضبة العبقة البديعة, بذّ فيه جموع الأفذاذ, وأربى نظره على النقاد في

---

(١) أعلام مالقة: ٣٣٢.

(٢) سحبان بن وائل: وُلِدَ في الجاهلية, وأدركَ بداية الدولة الأموية, كان خطيباً بارعاً, انماز بالفصاحة والبلاغة, وضُرب به المَثَل في المقدرة على الخطابة, حتى سُمّي بخطيب العرب, ينظر: تاريخ الأدب العربي, د. عمر فرّوخ, ج١: ٣٩٠ وما بعدها.

(٣) هذا الكلام نَقَلَهُ ابن خميس وابن خنجر من كتاب الفقيه أبو العباس بن أصبغ, ولم يُذكر اسم الكتاب, أعلام مالقة: ٣٣٢.

النفاذ, وبورك فيما منع من الاستيفاء والاستحواذ, امتدَّ في العلوم شأوه, وامتلأت إلى عقد الكرب دلْوَه"[1].

وقد امتدحه الفقيه أبي الحسن بن هارون[2] بقصيدةٍ, يطلب فيها من طلاب العلم الذين يريدون ترك بلادهم والذهاب إلى بغداد لكسب العلم والمعرفة, ترْكُ هذا الأمر, وقصْدُ الفقيه الشعبي للاقتباس من علمِه السابغ, وذهنِه المتوقد, من نحو ما قال: [الكامل]

يـــا قاصـــداً بغـــداد رامـــي علمهـــا
رد فـــاقتبس مـــن ذهنِـــهِ المتوقـــدِ
يـــا طالـــب درر المعـــالي بـــالنُّهى
جـــيء فـــاغترف مـــن دُرّه المتســـدد
هـــذا ســـرج النـــور يســـطع نـــورُهُ
فـــي رِيَّـــةٍ فاعمـــد إليـــه واقصُـــدِ
تلـــقَ الفضـــائل والمكـــارم والنـــدى
وسـنا المعـالي جُمعـت فـي أوحـدِ[3]

ومن المؤكد أنّ عِلْم الشعبي السابغ وذهنه المتوقد, قد ترك لطلبة العِلم الذين في زمانه ومَن أتى من بعدهم, جملة من المؤلفات, لكنها ضاعت أو غُيّبت, والله أعلم.

---

(1) أعلام مالقة: ٢٥٨ وما بعدها.

(2) أبو الحسن بن هارون: من جُلّة علماء مالقة, ومن الفقهاء المشاهير المبرزين, اشتهر بكتابة الشعر, وقد أبدع فيه أيّما إبداع, قال فيه الفقيه الأصبغ: "من العلماء, ومشى على ديدن الفضلاء؛ لأنه كان في عصره أحد الأطواد, وعَلَم الأمجاد..", ينظر: أعلام مالقة: ٢٩١.

(3) أعلام مالقة: ٢٥٩.

وفي مالقة أيضاً برزَ القاضي بن حسون, وكان "مفخراً يتباهى به النثرُ والنظام, وتتبارى في طلبِهِ السيوف والأقلام"[1].

والميزة التي انمازَ بها القاضي بن حسون, هي صحبتهُ للعِلْية والصلحاء, فلا يعتني إلّا بأبناء المجد[2], وقد امتدحه الفقيه أبو الحسن بن هارون[3] بقصيدة, ذكرَ فيها منزلة القاضي العلمية, فهو وعاء من أوعية العلم في زمانِه, فضلاً عن الخُلُق الرفيع الذي يتمتع به هذا القاضي, فعلمه السابغ وخُلُقه الدمث, هما اللذان جذبا أهل العلم نحوه, مثلما ذكر الفقيه بن هارون: [الطويل]

لقــد كــان الــدهر أعمــى أصــمّ مِــن
قـــديم فأضـــحى مـــدين ويســـمع
وعــادَ مضــيئاً بــابن حســون إذ رأى
لـــهُ غـــرّةٌ زهـــراء بـــالنور تســـطعُ
بـدا مـذ رأيت الشـمس عاليـة السَّـنا
كمـا غيّبـت شُـهُبَ الـدُجا حـين تطلـع
جميـــل المحيّـــا رائـــعٌ متوقـــدٌ
ذكـــاءً ونُـــبْلاً كامـــل الـــرأي أروعُ
ومـــا الـــدُرُّ إلّا مِـــن قلائـــد لفظَـــهُ
ومـــا السِـــحرُ إلّا مـــا يشـــي ويرصـــعُ

---

(1) أعلام مالقة: ٢٩٢.
(2) م. ن: ٢٩٢ وما بعدها.
(3) يُنظر: م. ن: ٣٠٧.

هنيئـــاً بمـــا أعطـــاك ربُّـــكَ إنـــه

رآك لعليـــاء المراتـــب تســـرعُ[1]

وعاش في مالقة في ظل بني حمود: أحمد بن أبي الربيع المالقي (ت ٤٦٠هـ), وكان "فقيهاً أديباً خطيباً بليغاً شاعراً مطبوعاً حافظاً للغة, مِن أهل العلم والعمل الصالح, وله قصائد زهدية أخذها الناس وقتاً ونقلوها"[2], وهو فضلاً عمّا تقدّم كانت له معرفة في علوم القرآن والحديث النبوي الشريف[3].

وكان الميْل لبني حمود مثلبة عند بعض ملوك الطوائف, يُحاسب عليها, وقد فعلَ ذلك ابن عباد مع سعيد بن سهل الشرفي, فهو من الفقهاء البارزين والمعاصرين لبني حمود, وبسبب ولائِهِ لهم, قام ابن عباد بمحاربته ومصادرة أمواله[4], وربما قام بإحراق نتاجه الثقافي والأدبي مثلما فعل مع ابن حزم.

ومن الأدباء الذين ضاعت مؤلفاتهم: أبو جعفر اللمائي, وقد ذكرَ هذا الأمر ابن بسام في سياق حديثه عن أبي جعفر, قائلاً: "إلّا أني لم أجد عند تحريري هذه النسخة من كلامه إلّا بعض فصول من منثور (هي ثماد من بحور), وقد أخرجتُ من براعته ما يشهد له بالفضل من صناعتِهِ, والتقدم على أكثر جماعته"[5].

---

(١) أعلام مالقة: ٢٩٢ وما بعدها.

(٢) الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة,, ابن عبد الملك الأنصاري, ق١: ٦٨.

(٣) م. ن: ٦٨.

(٤) ينظر: ترتيب المدارك, ج٤: ٧٥٧.

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٧٢.

كلام ابن بسام فيه دلالة واضحة تؤكد ما ذهبَ إليه الباحث, وهو ضياع أكثر مؤلفات العلماء والأدباء من الذين يشهد لهم أهل العلم بالفضلِ والمنزلة العلمية الرفيعة.

ومن الأدباء في مالقة من الذين عاشوا في كنف الدولة الحمودية: الحسن بن محمد بن سليمان المالقي, ويُعرف بابن عامل, كان يتمتع بثقافة واسعة, وله حُسن تصرف في العلوم القديمة, وله مؤلفات في اللغة العربية, فضلاً عن براعته في الصناعتين(١). ومن النحويين, محمد بن سليمان النحوي, المعروف بابن أخت الشاعر غانم بن الوليد, قيل فيه بأنه: "كان أحفظُ أهل زمانه للنحو, لا سيما كُتب أبي زيد والأصمعي, قائماً على المعونة والإفادة, حافظاً لكلام الأطباء وأحوال الديانات"(٢).

وهكذا فقد أسهمت الأوضاع السياسية التي عاشتها الأندلس, في مطلع القرن الخامس الهجري, في ازدهار الحركة الثقافية, فقد كانت هذه الأوضاع سبباً في انتشار كثير من المؤلَّفات التي كانت مقتصرة في كثير من الأحيان على مكتبات الحُكّام, فضلاً عن بيع عدد من المكتبات, وقد ضمّتْ دولَتا بني حمود وبني زيري

---

(١) ينظر: بغية الوعاة, جلال الدين السيوطي, ج١: ٥٢١. ويبدو أنّ مؤلفات ابن عامل قد ضاعت, والسيوطي ذكر لنا بأنّ له مؤلفات في العربية, لكنه لم يذكر لنا أسماءها, فقط ذكرَ لنا بيتيْن من الشعر, يقول فيهما:

كأنما البطيخ في جِنسِهِ وحُسنه غضاً ولم يُمتهنْ

جماجم السكر قد بُطنات خوفاً من الماء بجلد السُّفُن

ينظر: بغية الوعاة, ج١: ٥٢١.

(٢) م. ن, ج١: ١١٦.

يبدو أنّ ابن أخت غانم بن الوليد الشاعر, قد انتقلَ من غرناطة وسكنَ المرية لأسباب سياسية, ينظر: م. ن, ج١: ١١٧.

العديد من الفقهاء والأدباء والعلماء, ممن يشهد لهم أهل الحل والعقد بالفضل والمنزلة الرفيعة, وهناك كثير من الأدباء والعلماء الذين عاشوا في كنف الدولة الحمودية والزيرية ممن اشتهروا ببراعتهم بسائر العلوم التي كانت سائدة آنذاك, مثل الطب والفلسفة والفلك... وغيرها من العلوم, فضلاً عن تمكنهم في كتابة الصناعتين, ولكن من المؤسف ضاعت نتاجاتهم الثقافية, وبقي منها النزر اليسير.

الفصل الثاني

أغراض الشعر التقليدية

مدخل:

نشطَ الشعر في ظل دولتي بني حمود, وبني زيري, ومثّل شعرهم انعكاساً للواقع الذي عاش الشعراء في ظلّه, فتأثروا بالسياسة, فضلاً عن العلاقات الاجتماعية التي كانت تسود المجتمع يومذاك.

وتبعاً لذلك فقد تعددت أغراض الشعر التي نظم فيها الشعراء, فازدهر شعر المديح والهجاء والرثاء والغزل, وبرع فيها شعراء مشهورون, مثل: ابن مقانا الأشبوني, وعبادة بن ماء السماء, وابن درّاج القسطلي, وابن الحنّاط الكفيف, وإدريس ابن اليمان اليابسي, والسميْسر... وغيرهم من الشعراء.

وسنسلط الضوء في هذا الفصل على أغراض الشعر التقليدية التي نمت وازدهرت في ظل الدولتين, وفي مبحثين:

المبحث الأول: المديح.

المبحث الثاني: أغراض شعرية أخرى, ويشمل:

أولاً– الهجاء.

ثانياً– الرثاء.

ثالثاً– الغزل.

المبحث الأول

المديـح

من الأغراض الشعرية التقليدية التي احتلّت مساحة واسعة من دواوين الشعراء الأندلسيين, وشكّلت ظاهرة بارزة عندهم, وبخاصّة في ظل ملوك الطوائف, ولعلّ بروز هذه الظاهرة يرجع إلى أمريْن:

الأول: تعدّد الممالك في هذا العصر, وحاجة كل مَلكٍ من الملوك إلى الشعراء والأدباء؛ نتيجة للتنافس الحاصل فيما بينهم, ولِبثّ الأفكار السياسية التي يتبنّاها الملوك؛ إذ يُعد الشعر من الوسائل الإعلامية المهمة آنذاك(١), وهذا السبب يتعلّق بالملوك أنفسهم, وبحاجتهم إلى الشِعر والشعراء.

والأمر الآخَر يرجع إلى حاجة الشعراء أنفسهم إلى المال؛ مما دفعهم إلى التقرّب من السلاطين والأمراء من أجل التكسّب, فضلاً عن حاجة الشاعر إلى الأمان, لِما انتشر في تلك المدة من فتن واضطرابات(٢).

والدارس للشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف, وبخاصة في ظل بني حمّود وبني زيري, يستطيع تقسيمه على قسميْن:

الأول: مديح الخلفاء الحمّوديين والزيريين.

الآخَر: مديح الوزراء والقضاة والعلماء.

أولاً– مديح الخلفاء الحمّوديين والزيريين:

---

(١) ينظر: الشعر السياسي الأندلسي في عصر الطوائف, د. محمد شهاب العاني: ١٦٥, والتكسب بالشعر, د. جلال الخياط: ٦٢.

(٢) السمات الفنية لمقطعات الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين: ٩٦, وينظر: هوية الشعر الأندلسي: ٥١.

اتخذ هذا النمط من المديح منحيين أساسييْن, تمثّل الأول في المديح الديني, والتركيز على المعاني المذهبية (الشيعية), وبخاصة في مدائح الشعراء لبني حمود, والآخَر ركّزَ فيه الشاعر على المعاني العقلية التي أَحَبَّ العربي –منذ القِدَم– أنْ يُمدح بها, ومما يلاحظ بدءاً أنه لم يكن هناك قصائد مستقلّة في مديح أهل البيت الأطهار (عليهم السلام), وإنما جاءت على ألسِنةِ الشعراء في أثناء مديحهم لبني حمود؛ لأنهم يرجعون بالنّسَب إلى سبط النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم), وبهذا يكون الشعراء قد جَمعوا في قصائدهم المدحية بين مديح أهل البيت الأطهار وبين مديح بني حمّود الذين هم امتداد لأهل النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)[١], فضلاً عن ضياع كثير من الأشعار التي قيلت في أهل البيت الأطهار آنذاك, فالمجتمع الأندلسي خليط من الاتجاهات.

وقسَّمَ الدكتور سعد إسماعيل شلبي, الشعراء الذين مدحوا بني حمّود, ووظّفوا المفردات الشيعية في أشعارهم, على قسمين:

القسم الأول: يشمل ابن درّاج القسطلي, وابن شُهَيد الأندلسي, وكِلا الشاعريْن بحسب الدكتور إسماعيل شلبي بأنَّ أشعارهم لا تَصدر عن عقيدة ثابتة, بل تدخُل في باب المدح الاعتيادي[٢].

وقد يكون الدكتور شلبي محقّاً مع ابن شُهَيد الأندلسي, لكن الباحث لا يوافقه الرأي في ابن دراج القسطلي, على نحو ما سيأتينا في قابل البحث.

---

[١] ذكَرَ الدكتور محمد المهداوي في كتابِه: حركة الشعر العربي في مصر الفاطمية: ٤٩, ذلك, فقال: "انصراف كثير من شعراء هذه الحقبة إلى مديح الخلفاء الفاطميين؛ بوصفهم يمثلون امتداداً شرعياً –بحسب ظنّهم– إلى أهل البيت (عليهم السلام), وهم يمثّلون فرعاً عنهم...". ولأنّ خلفاء دولة بني حمود, وبني زيري من الشيعة الأدارسة الذين يؤمنون بأنَّ الخليفة هو امتداد لأهل البيت (عليهم السلام), فقد استعاضوا بالخليفة في المديح بدلاً عن مديح أهل البيت (عليهم السلام), مما رجّح قلة توافر شواهد مديح أهل البيت عند شعراء هاتين الدولتين.

[٢] ينظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (عصر ملوك الطوائف), د. سعد إسماعيل شلبي: ٢٣٧.

وفيما يتعلق بابن شهيد الأندلسي, فقد مدحَ علي بن حمّود بقصيدة, الهدف منها هو الاستعطاف ونيْل رضا الممدوح, فمن جملة الأبيات التي قالها ابن شهيد, وهي تتضمن مفردات تشير إلى (التشيع) بوصفه مذهباً سانداً في الدولتين: (الإمام أمير المؤمنين, سطوةٌ علوية, آباء وجدود), من نحو ما قال: [الطويل]

ولســـتُ بـــذي قيـــدٍ يـــرقُّ وإنمـــا
علـى اللحـظ مـن سُـخْطِ الإمـام قُيُـودُ

....

أطَاعَـــتْ أميـــر المـــؤمنين كتائِـــبٌ
تصـــرَّفَ فـــي الأحـــوالِ كيـــف يُريـــدُ

فللشـــمسِ عنهـــا بالنَّهـــارِ تَـــأَخُّرٌ
وللبـــدرِ عنهـــا بـــالظَّلامِ صُـــدودُ

أَلا إِنهـــا الأيّـــامُ تلعـــبُ بـــالفتى
نُحُـــوسٌ تهـــادي تـــارةً وسُـــعُودُ

ومــا كُنــتُ ذا أَيْــدٍ فيُــذعِنَ ذو قُــوى
مـــن الـــدَّهرِ مُبـــدٍ صـــرفَهُ ومُعيـــدُ

وراضَـــتْ صِـــعابي ســـطوةٌ علويَّـــةٌ
لهـــا بـــارِقٌ نَحْـــوَ النَّـــدى ورُعـــودُ

تقـولُ التـي مِـن بَيْتِهـا خَـفَّ مَركَبـي
أَقُرْبِـــــكَ دانٍ أمْ نَـــــوَاكَ بَعِيـــــدُ

فقُلْتُ لهـا: أَمـرِي إلـى مـن سَمت بـه

إلـــى المجـــدِ آبـــاءٌ لـــه وجُـــدودُ[1]

نلحظ من الأبيات السابقة كيف وظَّفَ الشاعر المفردات التي تشير إلى التشيع في قصيدته, وكان هدفه الوحيد هو كسب رضا الممدوح, فالمفردات الشيعية جاءت لدعم النص, لكنها فعلاً تخلو من حرارةِ التشيّع؛ فالممدوح حاكِمْ وباستطاعتِه العفو عن ابن شهيد أو معاقبته؛ ومن المؤكَّد أنَّ الشاعر يحرّك أحاسيس الممدوح بهذه الكلمات التي من شأنها أن تُلقي بظِلالها على الممدوح. ومن الجدير بالذكر أنَّ هناك قصائد متعددة لابن شهيد في مدح المعتلي, وهي في أكثرها لا تَخرج عن الإطار السابق[2].

أمّا ما يتعلق بابن دراج, فالأمر يختلف عمّا ذكَرَهُ الدكتور سعد إسماعيل شلبي, فالقارئ لأشعار ابن دراج في مدح بني حمود يلحظ غير ذلك, فهو في قصيدته التي يمدح فيها علي بن حمّود, يقول: [المتقارب]

---

[1] ديوان ابن شهَيد: ١٠١ وما بعدها.

[2] ينظر: م. ن: ١٠٧ و ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٧ و ١٥٤.

وهناك قصيدة يمدح فيها ابن شهَيد, علي بن حمّود في بداية حُكم ملوك الطوائف, فبعدما هضمَ خلفاء بني أمية حقّهُ, صار على ثقة بأنَّ الحمّوديين وعلى رأسهم علي بن حمّود, لهم القدرة على استرجاع حقوقه, من نحو ما قال: [الطويل]

علـــيكم بـــداري فاهِـــدموها دعائمـــاً
ففـــي الأرضِ لـــي بَنّـــاؤون لـــي ودَعـــائِمُ

لَـــئِنْ أخرَجَتْنـــي عـــنكم شـــرُّ عُصـــبة
ففـــي الأرضِ إخـــوانٌ عَلَـــيَّ أكـــارِمُ

وإنْ هَشَـــمَتْ حقّـــي أُميّـــةُ عِنـــدها
فَهاتـــا علـــى ظَهْـــرِ المُحَجَّـــةِ هاشِـــمُ

ينظر: ديوان ابن شُهيد: ١٥٤.

لَعَلَّـــكِ يـــا شـــمسُ عِنْـــدَ الأصـــيل

شَـــجِيتِ لِشَـــجْوِ الغريـــب الـــذَّليلْ

فكُـــوني شَـــفِيعِي إلـــى ابـــن الشَّـــفيع

وكُـــوني رســـولي إلـــى ابـــن الرَّســـولْ

فإمَّـــا شـــهِدْتِ فـــأزكى شـــهيدٍ

وإمَّـــا دَلَلْـــتِ فأَهـــدى دَليـــلْ

عَلَـــى ســـابقٍ فـــي قُيُـــودِ الخُطُـــوبِ

ونَجـــمِ سَـــناً فـــي غُثـــاءِ السُّـــيُولْ

يُنـــادِي النَّـــدى لِسِـــقامِ الضَّـــياعِ

ويشـــكُو إلـــى المُلـــكِ داءَ الخُمُـــولْ

وعَـــزَّ عَلَـــى العِلْـــمِ مَثـــواهُ أرضـــاً

عَلَـــى حُكـــمِ دهـــرٍ ظَلـــومٍ جَهُـــولْ

ويَعْجَـــبُ كيـــف دنـــا مِـــن (عَلِـــيٍّ)

وَلَـــمْ تنفصِـــمْ حَلَقـــاتُ الكُبُـــولْ

وكيـــــف تنسَّـــــمَ آلَ النبـــــيِّ

وأَبْطَـــأَ عنـــــهُ شِـــــفاءُ الغَليـــلْ

وأطـــــوادُ عِـــــزِّهِمُ مـــــائِلاتٌ

لَـــهُ وَهْـــوَ يَرنُـــو بطـــرفٍ كَليـــلْ

وأَبْحُـــــرُهُمُ زاخـــــرتٌ إليـــــهِ

ويَرشُـــفُ فـــي الثَّمَـــدِ المُســـتحيلْ[1]

---

(1) ديوان ابن درّاج القسطلي: ٧٥ وما بعدها.

فالقارئ لهذه القصيدة يلحظ انتشار العاطفة على مساحة النصّ كلّها, ولهذا يقول عنها ابن بسام: "وهي من الهاشميات الغُرَّ, بناها من المِسْكِ والدُّرّ, لا مِن الجصّ, والآجُرّ, لا بل خَلّدها حديثاً على الدهر, وشرّبها مطالع النجوم الزُّهر, ولو قرعت سمع دِعبِل بن علي الخزاعي, والكميت بن زيد الأسدي, لأمسَكا عن القول, وبَرِئا إليها من القوةِ والحول, بل لو رآها السيدُ الحميري, وكُثيرُ الخُزاعي, لأقاماها بيّنةً على الدَّعوى, ولتلقّياها بشارةً على زعمها بخروج الخيل من رضوى[1], وقد أثبت أكثرها إعلاناً بجلالة قدرِها, واستحساناً لعجزها وصدرها"[2].

وإذا كان ابن بسام من المعجبين بقصيدة ابن دراج القسطلي المذكورة آنفاً, وعدّها من الهاشميات الغر, فإنَّ هناك من يرى –من المحدثين– أنَّ هذه القصيدة اللامية, وقصيدة أخرى دالية, من المراثي الحسينية؛ إذ استدلوا من قراءتهم المتفحصة لديوان ابن دراج القسطلي "أنَّ هناك نَصّيْن شعرييْن يتضمّنان رثاءً للإمام الحسين "عليه السلام", والشاعر لم يصرّح في هذيْن النصّيْن بذلك الغرض الشعري المضمّن في القصيدتين الدالية واللامية, فهو في القصيدة الدالية يزعم أنه يقول النص في القاسم بن حمّود الوزير الذي كان بقرطبة, وحينما سألهُ أنْ يكتب لأخيه علي بسبتة, ولكن مضمون النص كان رثاءً للإمام الحسين "عليه السلام", واللامية يزعم أنَّ

---

(٢) بحسب رأي ابن بسام, الذي يؤمن بأنَّ السيد الحميري وكُثير عزة, كانا كيسانيّيْن, والكيسانيّة يؤمنون بأنَّ ابن الحنفية في جبل رضوى عنده عسل وماء, وإنه يرجع ليملأ الأرض عدلاً, بعد أنْ مُلئت جوراً, ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١, ٧٩.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٧٩.

غرضها مدح علي بن حمّود بسبتة, حين قَصَدَهُ من الأندلس, وكان المضمون أيضاً رثاءً للإمام الحسين (عليه السلام)"[1].

فمن جملة الأبيات التي استشهدوا بها, وأكدوا أنَّ المقصود فيها هو الإمام الحسين (عليه السلام), قوله في مدح القاسم بن حمّود: [الكامل]

الهاشِـــميَّ الطـــالِبيَّ الفـــاطِمِ يَّ الـوارث العليـاء بـأعلى أُعـدَدِ[2]

فهذه الصفات التي ذكرها الشاعر في البيت الآنف الذكر (الهاشمي, الطالبي, الفاطمي), تتجسَّد في شخصية الإمام الحسين (عليه السلام)[3].

وما يتعلق باللامية, فكأنه يُصوّر لنا واقعة الطف الأليمة, وهوْل المصاب, فيقول:

غَريــــبٌ وكــــم غرَّبَـــــتْ راحَتــــا
هُ فــي الأرض مــن وَجــهِ بكْــرٍ بَتُــولِ

....

تُضــــيءُ لهـــا مُظلِمـــاتُ النُّفُـــوسِ
وتُــــروى بهـــا ظامئـــــاتُ العُقُــــولِ
وتطلُــــعُ فــــي زاهـــراتِ النُّجـــومِ
ومُطلِعُهـــــا جـــــانِحٌ للأُفُــــــولِ

---

(1) المراثي الحسينية في الأشعار الأندلسية (قصيدَتَيْ ابن دراج القسطلي أنموذجاً), أ. د. محمد حسين المهداوي, و أ. د. عدي حسن الإزيرجاوي, و أ. م. د. مرتضى كمال حريجة, مجلة كلية التربية, جامعة واسط, المؤتمر العلمي الدولي الحادي عشر, نيسان/ ٢٠١٩م: ٩٩.

(2) ديوان ابن دراج القسطلي: ٧٢.

(3) المراثي الحسينية في الأشعار الأندلسية (بحث): ١٠٠.

شَــــريدُ السّـــيُوفِ وفَـــلُّ الحُتُـــوفِ

يَكيـــــدُ بـــــأَفلاذِ قلـــــبٍ مَهُـــــولِ

تَهـــاوَتْ بِهِـــم مُصـــعِقاتُ الرَّواعِــدِ

فـــي مُـــدْجِناتِ الضـــحى والأصـــيلِ

بـــــوارِقُ ظَلْمـــــاءِ ظُلْـــــمٍ تُبـــيحُ

دُمـــىً مِـــنْ حِمـــىً أَوْ دَمَـــاً مِـــن قَتيـــلِ

فأذهَـــــلَ مُرضِـــــعةً عَـــــنْ رَضـــــيعٍ

وأَنســـــى الحَمـــــائمَ ذِكْـــــرَ الهَـــديلِ[١]

فبعدما وقعت المصيبة, واذهلت كل مرضعةٍ, فما تسمعُ صوتاً إلّا صريخ أطفال يتامى, ونساء أرامل, ولا سبيل للعين إلّا أنها تذرف السيْل من الدموع, مثلما يقول:

وشَـــطَّ الصَّـــريخُ علـــى ذي الصُّـــراخ

وفـــــاتَ المُعَـــــوَّلُ ذاتَ العَويـــــلِ

فمـــا تَهتَـــدي العَـــيْنُ فيهـــا ســـبيلاً

سِـــوى سَـــيْلِ العَبَـــراتِ الهُمُـــولِ[٢]

يقول ابن بسام في اللامية, أنها من الهاشميات, فهي في رأيِه تتفوّق على القصائد التي سبَقَتها, كهاشميات الكميت, وقصائد دِعبِل وغيرها, وكأنه يُلمح إلى أنَّ القصيدة اللامية من المراثي الحسينية, التي تتوزع فيها حرارة الواقعة, ومشهد يوم الطف الأليم.

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي: ٧٧.

(٢) م. ن: ٧٧.

والقسم الآخَر: يلحظ القارئ في أشعارهم نزعة عَلَوِيّة قوية, ومنهم: عبادة بن ماء السماء, وابن الحناط الكفيف, وابن مقانا الأشبوني, وغانم بن الوليد, وإدريس بن اليمان اليابسي... وغيرهم[١], فالسامع لأشعارهم الخاصة ببني حمّود يحسّ "أنهم يُعبّرون عن شعورٍ صادقٍ, وأنَّ الروح الدينية التي استمدَّ منها هؤلاء العلويون سلطانهم, قد سَرَتْ في هذه الثلة من الشعراء, فراحوا يرددون: الفاطمية, والهاشمية, ونور الخلافة, ويصبغون قصائدهم بصبغة دينية"[٢].

ويبدو أنَّ من أكثر هؤلاء الشعراء الذين قد سرت العقيدة الشيعية في قصائدهم, عبادة بن ماء السماء (٤٢١هـ), "فشعر عبادة يُفصِح عن تشيّع واضح للبيت العلوي, وولاء كبير للدولة الحمّودية, وهي صفة لم يتبرّأ الشاعر منها, وظهرت جلياً في شِعرِهِ, وتناوَلَها بروح المكابرة والمباهاة"[٣], فمن جملة القصائد التي قالها في بني حمّود, أبياتٌ يتقدّمُ بها إلى الخليفة علي بن حمّود بالطاعة والولاء الصادق, ويوازن بينه وبين الملوك الذين سبقوه من بني أمية, قائلاً: [الوافر]

أطاعتْــكَ القلــوبُ ومــن عصــيّ
وضـــرْبُ الله ضـــربُك يـــا علـــيُّ
أَبَـى لـك أن تهـاض عـلاكَ عهـدٌ
هشـــــاميٌّ وجَـــــدٌّ هاشـــــميُّ

---

[١] وهناك بعض الشعراء كان ذكرهم مرتبطاً ببني حمّود, ولكن لم نعثر على أشعارهم التي قيلت في بني حمّود, ومنهم ابن السراج المالقي الذي قال عنه صاحب الذخيرة: شاعر بني حمّود, وأبو القاسم عبد الرحمن المعروف بابن الطبني, الذي ذكره الدكتور سعد إسماعيل شلبي في سياق حديثه عن شعراء دولة بني حمّود. ينظر: الذخيرة, ق١: ٥٩, والبيئة وأثرها في الشعر الأندلسي: ٢٣٧.

[٢] البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ٢٣٨ وما بعدها.

[٣] شِعر عبادة بن ماء السماء (بحث): ٣٨.

ومـــا سُــمِّيت بإســمِ أبيــك إلّا

ليحيـــى بالســـميِّ لـــه الســـميُّ

فــإنْ قــالَ الفخــور أبِــي فُــلانُ

فحَسْــبُكَ أنْ تقــولَ أَبِــي النبــيُّ[1]

يركّز الشاعر في الأبيات المذكورة آنفاً على النَّسَب العلوي الشريف الذي ينتمي إليه الخليفة الحمّودي, فقرابتهُ من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تجعل كل من يدّعي المعالي وينافسَهُ كذّاب.

وولاء عبادة بن ماء السماء للبيت العلوي, موغِل في القِدَم, تورّثهُ من أبيه, وقد صرَّحَ بهذا الأمر[2], قائلاً: [الطويل]

فهــا أنــذا يــا ابــن النبــوة نافــثٌ[3]

من القول أرياً[4] **غير ما ينفثُ الصِلُّ**

وعنــدي صــريحُ فــي ولائــك مُعْـرِقٌ

تَشَــيُّعُهُ محــضٌ[5] **وبيعتُــهُ بتــلُ**[6]

---

[1] شِعر عبادة بن ماء السماء (بحث): ٢٦.

[2] تَوَجَّهَ عبادة بمدائحِهِ إلى الحمّوديين, ومَتَّ إليهم بصلةِ أبيه قيس بن سعد بن عبادة, بالإمام علي (عليه السلام), واصطبغَ شِعره بالتشيع, والتعصب على بني أمية. ينظر: المقتبس من أنباء أهل الأندلس: ٣٤٦.

[3] نافث: ما يخرج من الفم. ينظر: القاموس المحيط: ١٧٥.

[4] أرياً: العسل.

[5] محض: خالص لا تشوبه شائبة. ينظر: القاموس المحيط: ٥٨٢.

[6] بتل: مخلص في بيعته وحبّه. ينظر: م. ن: ٨٨٧.

ووالَـى أبـي قـيسٌ أبـاك علـى العُـلا

فَخَـيَّمَ فـي قلـب أبـي هنْـدٍ لـهُ غِـلٌّ(١)

وإذا كان عبادة بن ماء السماء قد ركّز في الأبيات السابقة الذكر على نَسَب بني حمّود للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم), فابن الحناط الكفيف قد سلَّطَ الضوء على قرابتهم من الصدّيقة الزهراء (عليها السلام), فهم أبناء الزهراء (عليها السلام), وهم بهذا الانتماء الطاهر, قد فاقوا الأنام جميعاً بالسماحة, والكَرَم, والعُلا, من نحو ما قال:

مـن القـوم الـذين سـمعت عنـهم بَنِـي الزهراء, واختصِر المقـالا(٢)

ومن أبيات أخرى, يقول: [البسيط]

أبنـــاء فاطمـــةِ رُسْـلُ العُـــلا رَضَـــعوا

وبالســـماحَةِ غُــذّوا والجــودِ إذ فُطِمــوا

قـــومٌ إذا حَلَـــف الأقـــوام أنَّهُـــمُ

خيــرُ البريــة لــم يحنــثْ لهــم قَسَــمُ

سما لهم في سماء المجدِ من شرفٍ

بيــتٌ تــداعت إليـــه العُــربُ والعَجَــمُ

مناقــبٌ ســمحت فـــي كُــلِّ مَكْرُمَــة

كمــا هـــي فـــي أنــف العُــلا شَــمَمُ(٣)

---

(١) شعر عبادة بن ماء السماء (بحث): ٢٠.

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٢٣٦.

(٣) م. ن, ج٢: ٢٣٦.

وما أشبه هذه القصيدة بميميّة الفرزدق التي أنشدها في حقّ الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليهما السلام), فقال: [البسيط]

هــذا ابــنُ فاطمــةٍ, إنْ كُنْــتَ جاهِلَــهُ
بِجَـــدِّهِ أنبيـــاء الله قـــد خُتِمــوا
ولــيس قولُــك: مَــنْ هــذا؟ بضــائِرِهِ
العُــربُ تَعــرِفُ مَــنْ أنكَــرْتَ والعَجَــمُ
مُقَـــدَّمٌ بعـــد ذِكْـــر الله ذِكْـــرِهُمُ
فــي كُــلِّ بَــدءٍ, ومختــومٌ بــه الكَلِــمُ
إنْ عُــدَّ أهــل التُّقــى كــانوا أئمــتهُم
أو قيل: مَنْ خير أهل الأرض؟ قيل: هُمُ(1)

ويبدو أَنَّ أكثر من شاعر أندلسي قد تأثّر بهذه القصيدة, فهذا أبو القاسم الإفليلي يمدح علي بني حمّود في أبيات, نلحظ وكأنَّ الشاعر قد تأثّر بهذه القصيدة, من نحو ما قال:

أنــتَ خيــر النــاس كلِّهــمُ　　　يــا بــن مَــنْ مــا مِثْلُــهُ بَشَــرُ
فــإذا مــا كُنْــتَ بيــنهُمُ　　　قيــلَ هــذا البَــدْوُ والحَضَــرُ(2)

جَعَلَ أبو القاسم الإفليلي الممدوح دون الخالق, وفوق المخلوقات جميعاً, فهو في نظر الشاعر يمثّل الناس جميعاً مِن بَدْوٍ وحاضرةٍ, وأصبح هذا الأمر الذي ذكره الشاعر معروفاً عند القريب والبعيد من الناس.

---

(1) ديوان الفرزدق, ج٢: ١٧٨.

(2) المُغرب في حُلى المَغرب, ج١: ٧٣.

إذا كان الشعراء الذين تمّ ذكرهم آنفاً, قد وظّفوا المفردات الشيعية في أشعارهم, فإنَّ ابن مقانا الأشبوني قد تغلغلَ في صميم عقيدة الحموديين, ففي قصيدته النونية التي مَدَحَ فيها علي بن حمّود "يوظّف الشاعر قصيدة المدح في الدفاع عن المذهب الفاطمي, وإعلان موقفه بصراحة ووضوح من خلال مدح آل الرسول, ودفاعه عن حقهم في الخلافة, وإثبات نسبهم إلى رسول الله"(1), فيقول:

[الرمل]

نــزلَ الــوحيُ عليــه فــاحتبى　　　في الدُّجى فوقهُم الرُّوح الأمينْ

خُلِقــوا مــن مــاءِ عــدلٍ وتُقــى　　　وجميعُ الناسِ من ماءٍ وطينْ(2)

وذَكَرَ في البيت الأخير أحد معتقدات الإسماعيلية, عندما أضفى على ممدوحه نوراً مستمَدّاً من نور الله, فقال(3):

أنظرونــا نقتــبس مــن نــوركم　　　إنّــه مــن نــورِ ربِّ العــالمينْ(4)

ومِن الشعراء الذين مدحوا بني حمّود, وتضمّنت أشعارهم مفردات تدلّ على تشيّعهم لآل البيت, إدريس بن اليمان, من نحو ما قال:

هــذا ابــنُ خاضــبِ ذي الفقــار بجــانبي

ووداي حُنَـــيْنٍ(5) والصـــفوفُ حوافـــلُ

وبخيْبرٍ والحربُ(1) بارقُ عارضٍ

---

(1) قصيدة المديح الأندلسية (دراسة تحليلية), د. فيروز الموسوي: ١٦٥.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:, ق٢: ٥٩٨.

(3) قصيدة المديح الأندلسية (دراسة تحليلية): ١٦٥.

(4) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٥٩٨.

(5) حُنين: وادي بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. ينظر: معجم البلدان, مج٢: ٣١٣.

وبنـــــاتُ أعــــوجَ ماشَــــحَتْهُ زائــــلُ

دَفَـــعَ الرســـولُ إليـــه رايتـــه وقـــد

طَمَحَــــتْ عيـــونٌ نحـــوهُ وأنامـــلُ

أَربَـــتْ علـــى الغايـــاتِ غايـــةُ مجـدهم

فـــالوَهْمُ عـــن إدراكهـــا متضـــائلُ[٢]

الشاعر هنا يمدح الخليفة الحمودي بأنه ابن ذاك الفحل الذي خضّب سيفه بدماء أعدائِه في يومِ حُنين, وخيبر, وقد أشارَ في سياق حديثه عن معركة خيبر لحديث النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله وسلم), عندما قال قُبيل المعركة: "لأعطينّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله, ويُحبّه الله ورسوله..."[٣].

والأمر اللافت للانتباه, إننا لم نعثر في أثناء دراستنا لشعراء بني زيري, على أبيات قد تسرّبتْ إليها العقيدة الشيعية, ويبدو لي أنَّ ضياع كثير من شعر العقيدة الشيعية التي كانت سائدة في ظل الدولتين بفعل أعداء المذهب يومذاك, وما تلاه من فتن واضطرابات قاد إلى ضياع ذلك الشعر, مثلما ضاع كثير من شعر شعراء بني حمود العقائدي.

---

(١) خيبر: موضع قريب من المدينة المنورة, ويشتمل على سبعة حصون, ومزارع, أكثر سكانه من اليهود, دارت فيه معركة بينهم وبين المسلمين, كان للإمام علي (عليه السلام) الفضل في انتصار المسلمين فيها. ينظر: معجم البلدان, مج٢: ٤٠٩ وما بعدها.

(٢) شعر إدريس بن اليمان اليابسي (بحث), ق٢: ٢٥٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٤٠.

أما النمط الآخَر من المديح في ظل الدولتين, فهو المديح التقليدي الذي يركّز فيه الشاعر على المعاني العقلية التي أَحَبَّ العربي –منذ القدم– أن يمدح بها, وهي تمثّل المعاني العقلية التي أشار إليها قدامة بن جعفر[1].

فحقّاً, الشاعر هو الوسيلة الإعلامية التي من خلالها يتعرّف الآخرون على مناقب هذا المَلِك أو ذاك, وقد استقرَّ هذا الأمر في أذهان الملوك وعلى مرّ العصور, وراحوا يغدقون الأموال والعطايا على الشعراء, ولا يختلف عصر الطوائف عن العصور التي سبقته, فعلى الرغم من الاضطرابات التي رافقته, لكنها لم تؤثر في حركة الشعر, إذ ازدهر الشعر في هذا العصر, وتوزعت مدائح الشعراء على أغلب ملوك الطوائف, ولبني حمّود وبني زيري نسبة كبيرة من هذه المدائح, فقد مدَحَهُم جملة من الشعراء, أمثال: عبادة بن ماء السماء, وابن دراج القسطلي, وابن الحناط الكفيف, وغانم بن الوليد, وإدريس بن اليمان اليابسي... وغيرهم.

والقارئ لهذه القصائد يَلحظ تنوّعها, فمثلاً ابن الحناط الكفيف عندما يمدح علي بن حمّود, يبدأ القصيدة بوصف الطبيعة, فيقول: [الكامل]

راحـــت تُـــذكّر بالنســـيم الراحـــا
وَطفـــاءُ تنكســـرُ الجُنُـــوحُ جَناحـــا

جـادَتْ علـى التلعـاتِ فاكتسـتِ الرُّبـى
حُلَـــلاً أقـــامَ لهـــا الربيـــعُ وشـــاحاً

روضٌ يحـــاكي الفـــاطميَّ شَـــمائلاً
طيبـــاً ومـــزنٌ قـــد حكـــاه ســـماحا

---

[1]) ينظر: نقد الشعر: ٩٦, و حركة الشعر في مصر الفاطمية: ٤٧.

أَعلـــيُّ إنْ تعــلُ الملـــوك فـــإنهم

بِهِــمُ جُعِلْـــتَ أَغَرّهـــا الوضّـــاحا[1]

امتزَجَ وصف الطبيعة بالمدح, وقد شاعت هذه الظاهرة في أغلب قصائد المديح لدى الشعراء الأندلسيين[2], فالشاعر في الأبيات السابقة يُمهّد للممدوح بهذه المقدمة, فالروض الذي جادت عليه السحابة بالأمطار الغزيرة, يحاكي شمائل الخليفة الحمّودي في الطِيبِ والكرمِ والسماحةِ.

إذا كان ابن الحنّاط قد امتدح علي بن حمود في الأبيات السابقة, وبدأ قصيدته بوصف الطبيعة, فإنَّ ابن مقانا يمدح إدريس الحمّودي بِنُونيّة مشهورة, يمزج فيها بين صوت الرعد, وذِكر الحبيبة, ومجلس الخمرة, إلى أنْ يصل إلى غرضِه الرئيس, وهو مدح الخليفة, من نحو ما قال: [الرمل]

البَـرْقُ لائِـحٌ مِـن أنـدرين[3] **ذرفـت عينـاك بالمـاءِ المعـينْ**

لعبَـــتْ أســـيافهُ عاريـــةً كمخـاريقَ بأيـدي اللاعبــينْ

ولصـوتِ الرعـدِ زَجـرٌ وحنـينٌ ولِقلبـــي زَفَـــراتٌ وأنـــينْ

وأنــادي فــي الـدُّجى عـاذلتي ويـكِ لا أسـمع قـولَ العـاذلين

عَيَّرَتْنـــي بســـقامٍ وضَـــنَىً إنّ هـذيْنِ لَـدِينُ العاشـقين[4]

---

[1]) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق١: ٣٤٤ وما بعدها.

[2]) البديع في وصف الربيع: ٢٢.

[3]) أندرين: قرية في جنوب حلب يكثر فيها الكروم, وكأنَّ الشاعر أرادَ خمور الأندرين مثلما أرادَ الشاعر عمرو بن كلثوم في معلّقته. ينظر: معجم البلدان, مج١, ٢١٠ وما بعدها, و ابن مقانا الأشبوني شاعر الدولة الحمودية (بحث): ١٥ وما بعدها.

[4]) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٥٩٦.

يُشَبّه الشاعر معاناتِه ولوعتِه من محبوبتِه بصوتِ الرعد, وحبيبتهُ تلومه على هذه المعاناة, لكنه يردّ عليها بأنَّ هذه الأمور تشكوها كل الأحبّة, ولهذا فهي عُدّتْ من الأمور المحمودة, وليْسَ المذمومة كما تَدّعين.

ثم من بعد هذه الأبيات يبتدئ الشاعر يتحدث عن مجلس خمرة, قد عَقَدَهُ مع فتيان كرام, مثلما يُسَمّيهم, ويستمر هذا المجلس إلى وقت شروق الشمس, إذ يقول:

قـد بـدا لـي وَضَـحُ الصـبح المبـين
فاســـقنيها قبـــل تكبيـــر الأذيــــن
سَــــــقّنيها مـــــــزَّةً صـــــافية
عُتّقــت فـــي دنَّهـــا بضـــع ســـنين(١)

ويستمر في وصف هذه الجلسة إلى وقت الشروق, ويُشبّه شروق الشمس بوجه الممدوح إدريس, فيقول:

وانبـــرى جُـــنحُ الـــدجى عـــن أُفْقِـــهِ
كغـــرابٍ طـــارَ عـــن بـــيضٍ كنـــين
وكـــأنَّ الشـــمس لَمّـــا أشـــرقت
فانثنـــت عنهـــا عيـــون النـــاظرين
وجهُ إدريس بن يحيى بن علي
بـــن حمّـــودٍ أميـــر المـــؤمنين(٢)

وقصيدة ابن مقانا الأشبوني تختلف عن قصيدة ابن الحناط, ففي قصيدة ابن مقانا وزّعَ الشاعر مقدّمته بين الطبيعة والحبيبة والخمرة, حتى وصَلَ إلى غرض

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٥٩٧.
(٢) م. ن, ق٢: ٥٩٧.

القصيدة, لكن ابن الحناط مزَجَ بين الطبيعة والمدح, ويبدو أنَّ قصيدة ابن مقانا لاقت شهرة أكثر, وراحَ يتداولها أكثر القوالين, بعدما أُعجِبَ فيها الممدوح أيما إعجاب, وأَمَرَ الحاجب برفع الستار عن الشاعر[١].

وقد يختلف عبادة بن ماء السماء عن ابن مقانا الأشبوني, وابن الحناط الكفيف, في مدح بني حمّود, فقد مدحهم في قصائد متعددة, لكن الشيء المختلف عنده عن الاثنين, أنه قد أدخَلَ المدح في الموشحة, فقد مدحَ علي ابن حمّود في موشحةٍ, يقول فيها:

مَن ولي- في أمّةٍ أمراً ولم يعدلِ يُعـزَل- إلّا لحـاظ الرشـا- الأكحـلِ

جُـرتَ فـي – حكمـك فـي قتلـى يـا مُنصـفُ

فانصِــف – فواجــبٌ أنْ ينصــفَ المُنصِــفُ

وارأفِ – فـــإنَّ هـــذا الشـــوقُ لا يـــرأفُ

علِّـل قلبـي بـذاك البـاردِ السلسـلِ ينجلي- ما بفؤادي من جوى مشعلِ[٢]

استهلَّ الشاعر الموشحة بذِكر العدل, وكأنه يُلمح إلى الحكام الذين سبقوا آل حمّود, والقارئ للموشحة يلحظ أنَّ الشاعر على ثقة تامة بالممدوح في إقامة العدل, وإنصاف المظلوم, وقد مزجَ الشاعر كلامه عن العدل في الموشحة مع الغَزَل, ويستمرّ الشاعر في مدح علي بن حمّود في بقية الأبيات, ويَذكر اسم الممدوح بشكل صريح في الخرجة, فيقول:

يـا علـي سـلَّطتَ جفنيْـك علـى مقلتـي فابقِ لي قلبي وجُد بالفضل يا موئلي[٣]

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٥٩٦.

(٢) شعر عبادة بن ماء السماء (بحث): ٤٤.

(١) شعر عبادة بن ماء السماء (بحث): ٤٤.

ويبدو أنَّ موشحة عبادة بن ماء السماء قد لاقت إعجاباً كبيراً, مثلما لاقت قصيدة ابن مقانا المذكورة آنفاً, فقد وجدَتْ هذه الموشحة صدىً كبيراً في المشرق والمغرب, وقلّدها وشّاحون كبار[١].

وربما اختلف ابن شهيد الأندلسي عن الشعراء الذين مرّ ذكرهم, ففي مدحهِ ليحيى بن حمّود, إذ ابتدأ قصيدته بالشكوى من الزمان, وتقلُّب الأحوال, وهو يأمل من يحيى بن حمّود تلبية طموحه, وتحقيق رغباته, إذ يقول: [الكامل]

إنــــي أمــرُؤٌ لَعِــبَ الزَّمــانُ بِهِمَّتـــي
وسُـقِيتُ مـن كـأسِ الخُطـوبِ دِهاقَهـا
وكَبَـوْتُ طرْفـاً فـي العُـلا فاستضـحَكت
حُمُـــرُ الأنـــام فمـــا تَـــرِيمُ نهاقَهَـــا
وإذا ارتَمَـــتْ نَحـــوِي المُنـــى لأَنالَهـــا
وَقَــفَ الزَّمــانُ لهــا هُنــاك فَعاقَهــا[٢]

ويبدو أنَّ يحيى بن حمّود يحقق طموحهُ, ويردّ كيد الحاسدين, وابن شهيد يشكر ليحيى هذا الفضل, فيقول:

المُلبســـي ذهبيّـــةً مـــن فضـــلِهِ ... ثَنَـــتِ العُيُـــون فَلَـــمْ تُطِـــقْ رقراقهـــا
والمــانِعي مِــن صَــرفِ دَهــري بعــدما ... قَلَبَـــتْ إلَـــيَّ الحادثـــات حـــداقها[٣]

ويبدو أنَّ ابن شُهيد كان ملازِماً ليحيى بن حمّود, ففي قصيدةٍ أخرى, يمدحهُ ويُشيد بانتصاره على السودان, فيقول: [البسيط]

---

(٢) م. ن: ٤٥.
(٣) ديوان ابن شُهيد: ١٣٦.
(٤) م. ن: ١٣٧.

غَنّاكَ سَعدُكَ فـي ظِـلِّ الظُّبـا وسَـقَى فاشـرب هَنِيئـاً عَليْـكَ التـاجُ مُرتَفِقـا
قامَــتْ بِنَصــرِكَ لمّــا قــامَ مُــرتجلاً خَطِيــبُ جُــودِكَ فيهــا يَنْثُــرُ الوَرَقــا
سَـرَيْتَ تقـدُم جَـيْشَ النَّصـرِ مُتّخـذاً سُـبْلَ المَجَـرَّةِ فــي إثْـر العُـلا طُرُقـا
فــي ظِـلِّ ليْـلٍ مـن المـاذِيِّ مُعتكـرٍ يجلُـو إلـى الخَيْـلِ منـه وَجْهَـكَ الفَلقَـا
....
أجريـتَ للـزَّنجِ فـوقَ النَّهـرِ نهـرَ دَمٍ حتــى اسـتحالَ سـماءً جُلّلَـتْ شَـفَقَا
وســـاعَدَ الفَلَـــكُ الأَعلـــى بقـــتلِهِم حتَّـى غَدا الفُلْكُ بالنّاجِي بـهِ غَرِقـا[١]

يُشيد ابن شهَيد بشجاعة الخليفة الحمّودي المعتلي, وانتصاره في هذه المعركة قد زاد من تفوّقِهِ على ملوك الطوائف, وكان له الفضل بعد الله –جَلَّ وعَلا– في تثبيت أركان الدولة وهزيمة الأشرار.

وإذا كان ابن شهيد الأندلسي, يصف في الأبيات المذكورة آنفاً, شجاعة المعتلي وانتصاره على السودان, فإنَّ ابن دراج يصف كَرَم علي بن حمّود "ويذكّره بنسبهِ, فيجعله ابن مَن بدأ بالسلام, من ضيفه المكرمين, فقام بضيافة ملائكة السماء في منزلِهِ الذي صارَ مألفاً لمن ينزل به, ورَدّ عليهم سلام رجل حليم منيب, وجاءهم بعجلٍ سمين مِن خيار بَقَرِهِ, والممدوح لا يختلف عن أبيه إبراهيم, فأكنافه مألف للضيوف, وموطن كل صاحب عيال, أو فقير ومحتاج, وإكرام الضيف شريعة خلّدها في الناس في كل مكان وزمان"[٢], من نحو ما قال: [المتقارب]

ســـلامٌ وأنـــتَ ابـــنُ بَـــدءِ الســـلا مِ مِـــن ضَـــيفِهِ المُكْـــرَمين الـــدُّخولِ
غـــداةَ يُضَـــيِّفُ أهـــلَ الســـماءِ إلـــى منـــزلٍ آلِـــفٍ للنَّزيـــلِ
فَـــرَدَّ سَـــلامَ حَلـــيمٍ مُنيـــبٍ وجـــاءَ بعِجـــلٍ كـــريمٍ عَجـــولِ

---

(١) ديوان ابن شُهيد: ١٣١.
(٢) القصص القرآني في الشعر الأندلسي: ١٣٨.

وأَعطانُـــــهُ مَـــــأْلفٌ للضُّـــــيوفِ ومَـــــوْطِنُ ذي عَيْلَـــةٍ أَوْ مُعيـــلِ
شـــــرائِعُ خَلَّـــــدَها فـــــي الأَنـــــا مِ مِـن كُـلِّ أرضٍ وفـي كُـلِّ جيـلِ[١]

علي بن حمّود هو امتدادٌ لأجدادِهِ, فالكَرَم عندهُ أصيلٌ, توارَثَهُ منذ بدء الخليقة, وقد حثّتْ الشريعة الإسلامية على هذه الصفة الحميدة, وهي من الفضائل الإنسانية القديمة, والتي كثيراً ما وظّفوها الشعراء في مدائحهم, وقد تجسّدتْ في علي بن حمّود قوْلاً وفعلاً.

وقد مدحَ الشعراء بني زيري أيضاً, ولكنها قليلة إذا ما قيست بالنسبة لمدائح الحمّوديين, ويبدو أنَّ كثيراً منها قد ضاع, وقد يكون لبعض ملوك الطوائف مصلحة في ضياع هذه الأشعار, فقد كان التنافس بينهم قائماً, فضلاً عن الحروب فيما بينهم, التي كان الهدف منها التوسع على حساب الدول الأخرى[٢].

ومِن جملة القصائد التي قيلت في مدح بني زيري, أبيات لأبي محمد المصري, يشيد فيها بفضل باديس وبمجد أسلافِه, فيقول: [الكامل]

رَسَـخَتْ أصـول عُلاكـمُ تحـت الثـرى
ولكـــم علـــى خَـــطِّ المَجَـــرَّةِ دارُ
تبـدو شـموس الـدَّجن مـن أطـواقكم
وتفـــيض مـــن بـــين البنـــان بحـــارُ
إنَّ المكـــــارمَ صـــــورةٌ معلومـــــةٌ
أنـــتم لهـــا الأســـماعُ والأبصـــارُ
ذَلَّـــتْ لكـــم قِمَـــمُ الخلائـــقِ مثلمـــا

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي: ٧٩.
(٢) ينظر: عواصم بني زيري: ٩٧ وما بعدها.

ذَلَّـــتْ لِشِـــعري فـــيكُمُ الأشـــعارُ

فمتـــى مَـــدَحتُ ولا مَـــدَحتُ سِـــواكُمُ

فَمـــديحكم فـــي مدحِـــهِ إضـــمارُ(١)

إذا كان أبو محمد المصري قد مدح باديس في الأبيات المذكورة آنفاً, وأشادَ بالمعاني الإنسانية السامية التي يتمتّع بها, فإنَّ إدريس بن اليمان اليابسي يُشيد بشجاعته التي توارثها عن أسلافه الذين انمازوا بشجاعتهم في الماضي والحاضر, من نحو ما قال: [الكامل]

سَـــقياً لواديـــك الأغِـــنُّ مريعـــة

إنَّ الشـــبابَ بـــه مريـــعٌ مُمْـــرَعُ

إنْ كـــان خَـــدٌّ فيـــه وَردٌ يـــانعٌ

فَهَـــواكَ فـــي عينـــي وقلبـــي أيْنَـــعُ(٢)

فبعد هذه المقدمة القصيرة الرقيقة التي يُمهّد فيها للممدوح, ينتقل ليصف شجاعتهُ وتفوّقَهُ في الحرب, قائلاً: [الكامل]

القائـــدَ الجـــردَ العتـــاق كأنهـــا

لُجَـــجٌ زواخـــرُ أو عَـــوارِضُ لُمَّـــعُ

متوقّـــدٌ فـــي الحادثـــاتِ إذا دَجَـــتْ

فكأنـــهُ فيهـــا شِـــهابٌ يســـطَعُ

عَلَـــمٌ هـــو القمـــرُ المبـــاهي طالعـــاً

صـــنهاجةً وهُـــمُ النجـــومُ الطُّلَّـــعُ

---

(١) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ٢٤٣, والمُغرب في حُلى المغرب, ج١: ١٣٠.

(٢) شعر إدريس بن اليمان الأندلسي, القسم الثاني (بحث): ٢٤٧.

مُتســــرّبينَ لكُــــلِّ حَـــربٍ مُـــرّةٍ
بأســـاً يُقَـــرِّعُ كـــل مـــن لا يقـــرعُ
لَـــوْ أنّهـــم رفضـــوا الأســـنَّةَ والقَنـــا
قامَـــــتْ قلـــــوبُهُمُ بهـــــا والأذرُعُ[1]

يُرَسِّخُ الشاعر في ذهن المتلقّي الشجاعة والمكارم النبيلة التي اتَّصَفَ بها باديس, فهو عَلَمٌ من أعلام قبيلة صنهاجة, ومن حق هذه القبيلة أنْ تفخَر بباديس, فهو المتصدي لكلّ الأخطار التي تُحيط بدولتِهِ, وقد استطاعَ بشجاعتِهِ وحنكتِهِ الحفاظ على هذه القبيلة في الماضي والحاضر.

وقد مَدَحَهُ ابن زيدون, وأشادَ بصدقِهِ وإخلاصهِ مع ابن جهور, فباديس تحالَفَ مع ابن جهور لصدّ ابن عباد الذي أرادَ النزول إلى قرطبة, وشَكَرَ ابن زيدون باديس على هذا الفعل النبيل, ويُجازيه على فعلته هذه بأنْ يفديه بنفسه, وهو أقصى غاية الجود, ولا يكتفي وحده بذلك, وإنما يدعو الآخرين أيضاً, فيقول: [الطويل]

فِـــداءٌ لبـــاديسَ النفـــوسُ وجـــادَهُ
مِـنَ الشُـكرِ فـي أُفـقِ الوفـاءِ غَمـامُ
فمـــا لَحَقَـــتْ تلـــك العُهـــود مَلامَـــةٌ
ولا ذَمَّ مِـــــن ذاك الحِفـــــاظِ ذِمـــــامُ
ومِثْلُـــكَ وَالَـــى مِثْلَـــهُ فَتَصـــافيا
كمـــا صـــافَتِ المـــاءَ القَـــراحَ مُـــدامُ
رَســـيلُكَ فـــي شَـــأوِ المَعـــالي كِلاكُمـــا
بَعيـدُ المَـدى صَـعبُ الهُمـومِ هُمـامُ[2]

---

(1) شعر إدريس بن اليمان الأندلسي, القسم الثاني (بحث): ٢٤٧ وما بعدها.

(1) ديوان ابن زيدون وشرح رسائله, د. علي عبد العظيم: ٢٣٥.

يبيّن الشاعر للمتلقي بأنَّ باديس حافظ للحقوق والعهود, وشبه الشيء منجذبٌ إليه, فابن جهور وباديس كلاهما يتمتعان بالصفات الإنسانية الحميدة, وقد بلغا المجد والعِزّة, وتفوّقا على غيرهم من ملوك الطوائف.

انمازَتْ القصائد التي قيلت في مديح الخلفاء الحمّوديين بتنوّع مقدماتها, فمنها ما امتزَجَ فيها المدح بوصف الطبيعة, ومنها ما امتَزَجَ معه بوصف الشراب, ومنها ما كان مع الموشحة, مثلما هو الحال في موشحة عبادة بن ماء السماء, وأغلبها قد نالَ إعجاب الممدوح والمتلقّي, وما يتعلق ببني زيري فقد سلّطتْ أغلب القصائد على المعاني الإنسانية السامية التي يتمتع بها بني زيري, لكنها قليلة إذا ما قيست بعدد القصائد التي قيلت في بني حمّود, وقد انمازت بالمباشرَة في دخول الشاعر إلى غرضِهِ بشكل مباشر, على النقيض من القصائد الرسمية التي قيلت في بني حمّود, وقد تكون ضاعت مقدماتها, ووَصَلَ منها هذا, مثلما ضاع أغلبها.

ثانياً– مديح الوزراء والقضاة والعلماء:

احتلّت هذه الشخصيات نسبةً من مدائح الشعراء في ظل دولة بني حمّود وبني زيري, ولكن كانت النسبة الأكبر للوزراء[١], وبخاصة الوزير ابن النغريلة اليهودي, الذي كان وزيراً على عهد بني زيري, ويبدو أنَّ سلطة الوزير في ظل بني زيري قد بلغت مرتبةً عاليةً جعلت الشعراء يقصدونه ويخصّونه بالمدائح الغر[٢].

فقد مدحَ الوزير ابن النغريلة كثير من الشعراء, من اليهود, ومن العرب, من اليهود: ابن جبيرول, وموسى بن عزرا, ومن العرب: المنفتل, فقد اشتهرَ هذا الشاعر

---

[٢]) القرن الخامس كان يُلقّب بزمن الوزراء؛ لأنهم كثروا فيه كثرةً لم تكن من قبله ولا من بعده, وكانوا يختارون من الوزراء الذي يُحسنون صناعة الشعر والنثر. يُنظر: تاريخ آداب اللغة العربية, ج٣: ٢١٩.

[١]) ينظر: دول الطوائف: ١٣٣ وما بعدها.

بالتقرّب لهذا الوزير ومدحِهِ[1], وقد مَدَحَهُ في أكثر من قصيدة, ففي أحدها يُعطي الشاعر للممدوح منزلةً كبيرةً من الفضائل, وكأنه فاقَ الأولين والآخِرين من الملوك, من نحو ما قال: [الكامل]

قَـــرن الفضـــائل والفواضـــل فشـــأى الأواخـــرِ والأوائـــلِ
ســـــقطوا برفقـــــةِ فضـــــلِهِ كالشـمس فـي شُـرف المناقـل
هـــذا ابـــن يوسُـــف الـــذي وَرِثَ الفضـــائل عَـــن فواضـــلِ
شَـــرُفَ الزمـــان بمثلِـــهِ شَـــرَفَ الأســـنّةِ بالعوامـــلِ
مَـــنْ لـــم يلُـــذ بجانبِـــهِ لـــمْ يـــأمن الـــدَّهر المخاتـــلِ
مُتَقَلّـــدُ ســـيف العُـــلا والمُكرمـــاتُ لـــه حمائـــلُ
قصـــرتُ فـــي وصـــفي لـــه ولـــو أنّنـــي سُـحبانُ وائـــل[2]
مـــا قَـــلَّ مـــا يُرجـــى الكمـــا لُ لِمَـــنْ أبـــوه غيـــر كامـــلِ
ســـاكن النـــدى فـــي كَفِّـــهِ سُكنى الرَّواجب فـي الأنامـلِ[3]

أضفى الشاعر على الممدوح كثيرٌ من الصفات, فالممدوح في نظر الشاعر ملاذ للخائفين في ظل تقلبات الدهر الذي لا يُبقي على حال, فالتاريخ والواقع لا يؤيِّد ما ذكره الشاعر في حق هذا اليهودي[4], ويبدو أنَّ هذه القصيدة أقلّ غُلُوّاً من القصيدة الثانية التي قيلت في مدحِهِ: [الطويل]

---

(٢) مدائح الشعراء في ابن النغريلة اليهودي, ينظر: الصفحة ٥١ من البحث.

(٣) سحبان بن وائل: وُلد في الجاهلية, وأدركَ بداية الدولة الأموية, كان خطيباً بارعاً, انماز بالفصاحة والبلاغة, وضُرب به المَثَل في المقدرة على الخطابة, حتى سُمّي بخطيب العرب. ينظر: تاريخ الأدب العربي, ج١: ٣٩٠ وما بعدها.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥٨٠.

(١) ينظر: البيان المغرب, ج٣: ٢٦٤, و دول الطوائف: ١٣٣-١٣٧.

وما اكتَحَلَتْ عيني بمثْلِ ابن يوسُفِ ... ولَسْتُ أُحاشي الشمس مِن ذا ولا البدرا

....

ومَـنْ يَـكُ موسـى مـنهمُ ثـم صنوه ... فقُـلْ فـيهُمُ مـا شِـئْتَ لـن تبلـغ العشـرا

فكم لهُـم فـي الأرض مِنْ آيـةٍ تُـرى ... وكـم لهُـمْ فـي النـاسِ مـن نِعمـةٍ تتـرى

أجـامِعُ شـمل المجـدِ وهـو مشـتَّتُ ... ومُطلِقَ شخص الجودِ وهو من الأسرى

فضّـلتَ كـرام النـاس شـرقاً ومغربـاً ... كمـا فضَّـلَ العقيـانُ بـالخطر القطـرا

ولـو فَرَّقـوا بـين الضـلالةَ والهـدى ... لَمَـا قَبَّلـوا إلّا أنامِلُـكَ العَشـرا

ولاسـتلموا كَفَّيْـكَ كـالرُّكن زُلفـةً ... فيمنـاك لليمنـى ويُسـراك لليسـرا

وقـد فُـزْتُ بالـدُّنيا ونِلْتُ بـك المُنـى ... وأطمعُ أنْ ألقى بكَ الفوز في الأخرى

أُديـن بـدِين السَّـبْتِ جَهـراً لـديكم ... وإنْ كُنـتُ فـي قـومي أُديـن بـه سِرّا

وقـد كـانَ موسـى خائفـاً متَرَقِّبـاً ... فقيـراً وأمنـت المخافـة والفقـرا(١)

لا يكتفي الشاعر بالغلو بالممدوح, وإنما يَدين بدِينِهِ, وقد شَجَبَ ابن بسام غلو المنفتل في هذا اليهودي, وعلّقَ على هذه الأبيات, قائلاً: "فقبّحَ الله هذا مكسباً, وأبعد من مذهبِهِ مذهباً, تعلّق به سبباً, فما أدري من أيّ شؤون هذا المدلَّ بذنبِهِ, المجترئ على ربِّهِ, أعجب: ألِتَفضيل هذا اليهودي المأفون على الأنبياء والمرسلين, أم خلعه إليه الدُّنيا والدِّين؟ حشره الله تحت لوائه, ولا أدخله الجنة إلّا بفضل اعتنائه"(٢), وهذا ما يؤيد أنَّ الشاعر مهتم بالتكسّب في شعره والوصول إلى قلب الممدوح, والفوز بجوائزِهِ السنيّة التي تُحسِّن حاله.

ويبدو أنَّ مدائح الشعراء لابن لنغريلة اليهودي, كانت تضفي عليه صفات مثالية, فَلَمْ نَرَ للممدوح "تحرّكاً بجيشٍ أو قتالاً لأعداء, أو بناءً لمدينةٍ أو مسجدٍ أو

---

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥٨٢.

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥٨٢.

مَعلَماً حضارياً, ولا مشاركة للناس في احتفال نبوي أو مناسبة دينية, ولا رَأَيْنا توافد الوفود إليه مؤيِّدة أو مهنِّئة أو معزِّية... إلى غير ذلك من الأمور التي يقوم بها عِلية القوم, أو يشاركون بها العامة, فكان ابن النغريلة فيما قيل فيه من الأشعار التي وصلتْ إلينا, نموذجاً بعيداً عن أي تحرّك بشري له على أرض الواقع, صحيح أنَّ صورة العرب الممدوحين في الشعر العربي كانت مثالية كذلك, وامتلأت كثيراً بالمبالغات, لكنها بجانب هذا كانت تصف واقعاً وتحرّكاً اجتماعياً أو سياسياً واضحاً, وهذا ما لم يظهر في مدح ابن النغريلة"[١].

وقد مدَحَ شعراء دولة بني حمّود الوزراء, ولكن ليس بتلك الصورة المثالية التي مَدَحَ فيها المنفتل ابن النغريلة, فهذا ابن الحنّاط الكفيف يمدح عبد الله السطيفي السبتي الذي كان وزيراً لبني حمّود في مالقة, ويُشيد ببرِّهِ وإحسانه, وحُسن تدبيره وحنكته, فيقول: [الكامل]

فقـــــهٌ وحـــــجٌّ جُمِعـــــا لـــــوزيرِ
بِـــــرٌّ صـــــحيح الـــــرأي والتـــــدبير
مـــا قـــدر الأقـــوام هـــذا أن يـــرى
أبـــداً, ولكـــن ذاك فعـــل مـــدير
إنْ جئتـــه يومـــاً بـــدهرك شـــاكياً
أغنتـــك فطنتـــه عـــن التفســـير[٢]

---

(١) ما تبقى من أدب العميان في الأندلس: ١١٠.

(٢) اليهود وأثرهم في الشعر العربي: ١٢٢.

وهذا إدريس بن اليمان اليابس (٤٧٠هـ) عندما يمدح ابن بقنه, وزير يحيى المعتلي, يمزج في مدحهِ بين الغَزَل والطبيعة, إلى أنْ يصل إلى غَرَضِهِ الرئيس وهو المدح, فيقول: [الطويل]

دعــاهُ الهــوى مــن ذي الأراكِ فَلَبّــاه
وغَنّـــــاهُ أيكــــيُّ الحَمَــــام فأبكـــــاهُ
وصَـدّقَ دعـوى الشـوقِ برهـان جسـمِه
ومــا كُــلُّ ذي دعــوى تُصَــدَّقُ دعــواهُ
وظَـــلَّ جنـــاحُ القلـــب منـــه كأنّمـــا
قـــدامى جنـــاحِ البـــرق منـــه قـــداماهُ
وللسوســـــنِ الريّـــــان صـــــفحةُ خَـــــدّهِ
وللبـــــدرِ مَجــــلاهُ وللمِســـــكِ ريــــاهُ[1]

ويبتدئ الشاعر بعد هذه المقدمة بالثناء على الممدوح, والتركيز على أهم المعاني الإنسانية النبيلة التي يتمتع بها, كالكَرَم والسخاء والشجاعة, من نحو ما قال:

لقـــد كـــان معنـــى الجـــود عُمّـــي فـــانبرى
لـــــه ابـــــن أبـــــي موســـــى فَفَـــكَّ معمـــاهُ
هصـــرت بـــــه الــــدنيا فمالَـــتْ رطيبـــةً
علـــــيّ ميـــــوداً تحـــــت أوراقِ نعمـــــاهُ
فمـــن يَـــكُ عَنّـــي ســـائلاً فأنـــا الـــذي
تَمَنّـــــى فأَفْضـــــى للـــــذي قـــــد تَمَنّـــــاه
تأمّلْـــــهُ وانظُـــــر بـــــين بُردَيْـــــه واعتبـــــر

---

[2]) شعر إدريس بن اليمان اليابسي, القسم الثاني (بحث): ٣٦.

فمـــا ضَـــمَّتْ الأقطـــارُ مـــا ضَـــمَّ بُـــرداه

حـــوى القلـــم البـــاري الأســـنّة ســـنّاه

مضـــافاً إلـــى الســـيفِ الطويـــل نجـــاداه[١]

وكان للقضاة والعلماء نسبةً من مدائح الشعراء, وما يتعلّق بمدائح القضاة, فقد ركّز الشعراء على المعاني الإنسانية التي حَثَّ عليها الدين الحنيف, وهذا ما نجده في قصيدة لأبي إسحاق الإلبيري, يمدح فيها القاضي ابن توبة[٢], فيقول فيه:

[الخفيف]

بِعَلـــي بـــن توبـــةٍ فـــازَ قَـــدحي — وسَـــمَتْ هِمَّتـــي علـــى الجـــوزاءِ

فَهَنيئـــاً لنـــا وللـــدِّين قـــاضٍ — مِثْلِـــهِ عـــالِمٌ بفصـــلِ القضـــاءِ

يحســـمُ الأمـــرَ بالسياســـةِ ويَعْـــدِ — لُ كَحَسْـــمِ الحُســـامِ للأعـــداءِ

وقُضـــاةُ الزَّمـــانِ أرضٌ لديـــهِ — وهو مِنْ فوقِهِمْ كـأُفُقِ السَّماءِ[٣]

يمدح أبو إسحاق الإلبيري, القاضي ابن توبة, ويسلّط الضوء على الصفات التي يتمتّع بها هذا القاضي, فهو ينماز بالعدل وحُسن التدبير, وحُكمهُ في القضاء سيف ذو حدّيْن؛ ولهذا هو يعلو على قضاة عصرِه, كعلوّ السماء على الأرض, ولكن ما يُؤخَذ على أبي إسحاق الإلبيري في هذه القصيدة, إنه قد يغالي في مدح هذا القاضي, فهو يضع خَدّهُ حذاء للقاضي ليوافيه حَقّهُ, وهذا عند أبي إسحاق الإلبيري قليلٌ في حقِّهِ؛ لذلك يُريد أنْ يصبح عبداً لهُ, حتى يفتخر بهذا بين الناس, قائلاً:

---

(١) شعر إدريس بن اليمان اليابسي, القسم الثاني (بحث): ٢٥٨ وما بعدها.

(٢) القاضي ابن توبة: من أهل غرناطة, كان عالماً فقيهاً, تولّى قضاء غرناطة على عهد باديس بن زيري, انماز بالعدلِ وحُسن التدبير. ينظر: ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ١١٠.

(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٨٢.

ولَـــــوْ أنصـــــفتُهُ – وذاك قليـــــلُ –

كـــــانَ خَـــــدّي لِرِجلِــــهِ كالحِـــــذاءِ[1]

انمازت مدائح القضاة والعلماء, بالتركيز على المعاني الإنسانية التي يتمتع بها هؤلاء, ولشيء الآخَر أنَّ مدائح العلماء كانت قصائد مباشِرة, دَخَلَ فيها الشاعر إلى غرضِهِ بشكل مباشر, وسلّطَ الضوء على الممدوح بشكل مباشر, وقد وُفّقَ الشاعر في القصيدتيْن, ولكن قصيدة الإلبيري جاءت ضمن قصيدة ابتدأ فيها الشاعر بالوعظ الممزوج بالغَزَل, إلى أنْ يمهّد إلى غَرِضِهِ الرئيس, وهو المدح.

---

(1) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٨٤.

المبحث الثاني

أغراض شِعرية أخرى

أولاً- الهجاء:

احتلَّ غرض الهجاء منزلة متقدمة بين أغراض الشعر الأخرى في ظل دولتي بني حمود, وبني زيري الأندلسيتين؛ إذ نَشَبَتْ أكبر معركة هجاء على عهد ملوك الطوائف ضد اليهود, والبربر, وكانت غرناطة قاعدة لليهود على عهد بني زيري[١], بينما توزّع البربر على أغلب المدن الأندلسية التي تحت سيطرة الحموديين والزيريين, وكانت نسبة هجاء الشعراء للبربر أكبر من هجائهم لليهود, ويبدو أنَّ المجتمع الأندلسي لم يتأقلم مع البربر, مع العلم أنَّ البربر اندمجوا في البيئة الأندلسية؛ إذ لم تكن لهم لا عصبية كالعصبية التي كانت عند العرب في ذلك الزمان, ولا لغة مكتوبة قد تَحُول بينهم وبين الاندماج السريع في المجتمع الأندلسي[٢].

وقد توزّع الهجاء بين هجاء الجماعات (البربر واليهود) وبين الهجاء الشخصي, وأمّا ما يتعلق بهجاء البربر فمنذ اندلاع الفتنة في الأندلس وبداية عصر الطوائف, عبّر أكثر الشعراء عن رفضهم لهذه الفئة من المجتمع, وقاموا بهجائهم وهجاء من يقف معهم, فهذا الشاعر ابن خلدون الحضرمي[٣], يهجو سليمان

---

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات في الأندلس): ٢٢٥.

(٢) ينظر: فصول في الأدب الأندلسي, د. حكمة الأوسي: ٣٨.

(٣) ابن خلدون الحضرمي: هو أبو مسلم عمر بن أحمد بن خلدون الحضرمي, من أشراف أهل إشبيلية, أتقن علوم عدة: الهندسة والفلسفة, والفلك والطب, وكان فاضلاً, وانماز بالسيرة الحسنة, توفي في إشبيلية سنة ٤٤٩هـ. ينظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء, ج١: ٦٥.

المستعين؛ لأنه تحالَفَ مع البربر, ويوجّه عليه اللوم؛ لأنه كان سبب انتشارهم في المجتمع الأندلسي, ومن ثم أصبحوا السبب في دمار الأندلس[١], فقال: [السريع]

لا يـــرحم الله سُـــليمانكم فإنـــه ضـــد ســـليمان
ذاك بـــه غلـــت شـــياطينها وحـــل هـــذا كـــل شـــيطان
فباسمه ساحت على أرضنا لهلـــك ســـكان وأوطـــان[٢]

ويبدو أنَّ حتى (سليمان المستعين) كان يتعامل مع البربر على مضض؛ فقد أسرَّ إلى بعض خواصه أبياتاً قالها في البربر, تُبيّن موقفه منهم[٣], والذي كان أشد من هجاء ابن خلدون الحضرمي لهم, من نحو ما قال: [الطويل]

حلفــت بمــن صــلّى وصــام وكَبَّــرا
لأغمـــدها فـــيمن طغـــى وتَجَبَّـــرا
وأبصـــر ديـــن الله تحيـــا رســـومه
فبَـــدّلَ مـــا قـــد كـــان منـــه وغيّـــرا
فـــوا عجبـــاً مـــن عبشـــميٍّ مُملّـــكٍ
بـــرغم العـــوالي والمعـــالي تبربـــرا

---

(١) لم يكن ابن خلدون الحضرمي وحده ينظر هكذا نظرة للبربر, فالأمير عبد الرحمن بن محمد الملقب بـ(المرتضى المرواني), يعد التعاون مع البربر هو السبب في فساد الأحوال في الأندلس؛ لذا يحثّ مثلما حثّ غيره على الإسراع في الخلاص منهم, فيقول:

قـــد بلـــغ البربـــر فينـــا بنـــا مـــا أفســـد الأحـــوال والنظمـــا
كالســـهم للطـــائر لـــولا الـــذي فيـــه مـــن الـــريش لمـــا أصـــمى
قومـــوا بنـــا فـــي شـــأنهم قَوْمَـــةً تزيـــل عنّـــا العـــار والرغمـــا

ينظر: الشعر السياسي الأندلسي: ١٥٧, و نفح الطيب, ج١: ٤٣٠.

(٢) نفح الطيب, ج١: ٤٢٩.

(٣) م. ن, ج١: ٤٢٩.

فلـــو أنّ أمـــري بالخيـــار نبـــذتهم

وحـــاكمتهم للســـيف حكمـــاً محـــرّرا

فإمّـــــا حِمـــــام تســــــتلذّ بفقـــــدهم

وإمّـــا حِمـــامٌ لا نـــرى فيـــه مـــأزرا[١]

ومن الشعراء الذين انمازوا بهجائهم للبربر: السميسر الإلبيري[٢], فمن جملة أشعاره التي قالها فيهم, أبيات يتخيل فيها الشاعر وكأنه قد رأى نبيّ الله آدم (عليه السلام) في منامه, وسأله بأنَّ الناس يزعمون بأنَّ البربر من نسلك, ولكن النبي آدم (عليه السلام), قد تبرّأ منهم, فقال: [البسيط]

رأيـــت آدم فـــي نَـــوْمي فقلـــتُ لـــه:

أبـــا البريـــة إنَّ النـــاس قـــد حكمـــوا

إنَّ البرابـــرَ نســـلٌ منـــك, قـــال: إذن

حَـــوّاءُ طالقـــةٌ إنْ كـــان مـــا زعمـــوا[٣]

قال السميسر هذه الأبيات أيام حكم الملك عبد الله, فأثارت غضبه, وعلى إثرها غادَرَ السميسر إلى المرية, وعندما سمع المعتصم بن صمادح هذه الأبيات

---

(١) نفح الطيب, ج١: ٤٢٩ وما بعدها.

(٢) السميسر الإلبيري: هو أبو القاسم خلف ابن فرج الإلبيري, من أعلام شعراء الأندلس على عهد دولَتَيْ بني حمّود وبني زيري, أكثر شعره في الهجاء, وقد استفرغ مجهوده في الكتابة في هذا اللون الشعري, ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرية, ق١: ٦٦٨, و المُغرب في حلى المغرب, ج٢: ١٠٠.

(٣) السميسر حياته وشعره (بحث), مجلة مؤتة للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية, الأردن, إبراهيم حلمي الكيلاني, المجلد السابع, العدد (١), ١٩٩٢م: ١١٢.

التي قيلت في ذم البربر, أحسنَ ضيافة السميسر وأكرَمَهُ؛ لأنه على ما يبدو كان على عدم توافق مع حاكم غرناطة[١].

ويبدو أنَّ التقرب إلى بعض ملوك الطوائف بهجاء البربر صفة مائزة عند أغلب الشعراء[٢], وليس عند السميسر وحده, فقد كتبَ المعتمد بن عبّاد إلى والده يستعطفه في قصيدة, عندما خسر الأخير المعركة مع بني زيري, التي كانت بقيادة المعتمد, فقال: [البسيط]

قـومٌ نصـيحتهم غـشٌ وحُـبُّهم	**بُغضٌ ونفعُهُـمْ- إن صُـرّفوا ضـررُ**
تُميزُ الغيظ فـي الألفـاظ إنْ نطقوا	**وتعرف الحقد في الألحاظ إنْ نظروا**
إنْ يحـرق القلـبَ نَبْزٌ مـن مقـالهم	**فإنمـا ذاك مـن نـار القلـى شـررُ[٣]**

ويعلّق هنري بيريس على هذه الأبيات, فيقول: هذه "الأشعار توضح لنا الصفة الغالبة في المزاج البربري, وتقدّم لنا الأسباب النفسية للعداوة الخفية التي كانت تفصل الأندلسيين عن البربر"[٤].

---

[١] السميسر حياته وشعره (بحث): ١٠٦-١٠٨.

[٢] يمدح الشاعر ابن عمار المعتمد بقصيدة, يضمّن بعض أبياتها هجاء البربر, من نحو ما قال:

[الكامل]

حتـى حللـت مـن الرياسـة محجـرا	**رحبـاً وضـمت منـك طرفـاً أحـورا**
شـقّيت بسـيفك أمـة لـم تعتقـد	**إلّا اليهـود وإنْ تسـمّت بربـرا**
أثمـرت رمحـك مـن رؤوس كمـاتهم	**لمـا رأيـت النصـر يعشـق مثمـرا**
وصـبغت درعـك مـن دمـاء ملـوكهم	**لمـا علمـت الحُسـن يلـبس أحمـرا**

محمد بن عمار الأندلسي (دراسة تاريخية وأدبية), د. صلاح خالص: ١٩٣.

[٣] الشعر الأندلسي في عصر الطوائف, هنري بيرس: ٢٣٧.

[٤] م. ن: ٢٣٧.

ويتعجب الباحث من تعليق بيريس على هذه الأبيات بهذا الشكل, يريد المعتمد من هذه الأبيات بأن يستعطف قلب أبيه الغليظ[١], مثلما وصفه هنري بيريس, وهذا لا يعني أنَّ ما يقوله هو وغيره, يُؤخذ بنظر الاعتبار.

وما يتعلق بهجاء اليهود, فقد اعتلَت أصوات الشعراء معبّرة عن رفضها لنفوذ هذا العنصر في المجتمع الأندلسي, وبخاصة في غرناطة, فاستوزروهم بنو زيري في غرناطة, وسيطروا على مقاليد الأمور, فنشأ عن هذا تيار مناهض رافض لهذا النفوذ[٢].

فهذا الشاعر أبو الحسين بن الجِد[٣], يعبّر عن رفضه لتسلط اليهود على الأوضاع, ويوجّه اللوم عليهم؛ لأنهم السبب في تخلخل الأوضاع في البلاد, وفي رأيه أنَّ الزمن الذي يعيش فيه هو آخر الزمان, ولهذا هو يستنهض الهمم في أبياته, فيقول: [الوافر]

تحكمت اليهود على الفروج ... وتاهت بالبغال وبالسروجِ
وقامت دولة الأنذال فينا ... وصار الحكم فينا للعلوجِ
فقُل للأعور الدجال هذا ... زمانك إنْ عزمت على الخروجِ[٤]

ولم يكن الشاعر يوسف بن الجد, الوحيد في رفضه لتسلط اليهود في غرناطة, فهذا الشاعر أبو إسحاق الإلبيري يُعلي من صوت رفضه, وقصيدتُه في هجاء اليهود

---

(١) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف, هنري بيرس: ٢٣٧.
(٢) ينظر: الهجاء في الأدب الأندلسي, د. فوزي عيسى: ٧٢.
(٣) الحسين بن الجد: كان وزيراً على عهد ملوك الطوائف, ومن المشهورين في كتابة الرسائل, فضلاً عن كتابة الشعر. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٤١٤.
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٢: ٤١٨.

مشهورة, وكانت السبب في إشعال نار الثورة في غرناطة, ومن ثم القضاء على سلطة اليهود هناك[1], من نحو ما قال: [المتقارب]

أَلَا قُـــلْ لِصِـــنْهاجَةِ أَجْمَعـــينْ	بُـــدور النَّـــدِيَّ وأُسْـــدِ العَـــرينْ
لقــــــد زَلَّ سَــــــيِّدَكُم زَلَّــــــةً	تَقِـــرُّ بهـــا أعـــينُ الشـــامِتينْ
تَخَيَّـــــــرَ كاتِبُـــــــهُ كـــــــافِراً	ولـــو شـــاء كـــان مـــن المســـلمينْ
فَعَـــزَّ اليهـــود بـــه وانتَخَـــوْا	وتـــاهُوا وكـــانوا مـــن الأَرذلـــينْ
ونـــالوا مُنـــاهم وجـــازُوا المـــدى	وحـــانَ الهـــلاكُ ومـــا يشـــعُرون
فكــــم مُســــلِمٍ فاضــــلٍ قانِــــتٍ	لأرذلِ قِـــردٍ مـــن المشـــركينْ[2]

ويشهد أبو إسحاق الإلبيري على إنَّ السبب في إعاثة الفساد في غرناطة هو هذا العنصر, فقد توزَّعَ أكثرهم على الأماكن المهمة في الدولة, وصاروا يقسمون جباية الأموال التي يتم استحصالها من المسلمين, فيما بينهم, من نحو ما قال:

وإنّـــي احتللـــت بغرناطـــة	فكنـــتُ أراهُـــم بهـــا عـــابِثينْ
وقـــد قَسَّـــموها وأعمالهـــا	فَمِـــنْهُم بكُـــلِّ مكـــانٍ لعـــينْ
وهُـــمْ يَقبِضُـــون جباياتهـــا	وهُم يَخْصِمون وهُمْ يَقْضِمُونْ[3]

وبَرَزَ في غرناطة اتجاه آخر في الهجاء, وهو هجاء الملوك[4], وقد مثّله السميسر, فقد كَتَبَ في هجاء ملوك بني زيري في أكثر من قصيدة, ومن جملة ذلك,

---

(١) ينظر: دول الطوائف: ٣٥.

(٢) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٨٩.

(٣) م. ن: ٩١.

(٤) ينظر: الأدب العربي في الأندلس (عبد العزيز عتيق): ٢٤٩.

أبيات قالها في هجاء باديس, حينما استوزرَ نصرانياً بعد وزيره اليهودي, من نحو ما قال: [م. الخفيف]

كُـــــلَّ يـــــومٍ إلـــــى وَرَا بُـــــدِّلَ البَـــــوْلُ بـــــالخرا
فزمانـــــــــاً تهـــــــوَّدا وزمانـــــــــاً تنصَّـــــــرا
وسيصـــــبو إلـــــى المجـــــو س إن الشـــــيخ عُمـــــرا [١]

يبيّن السميسر في هذه الأبيات سوء الأوضاع في البلاد, فباديس قام بتعيين وزير نصراني بعد الوزير اليهودي, وكان من المفترض عليه تعيين وزير من المسلمين؛ ولذلك يتوقع الشاعر تدهور الأمور في غرناطة يوماً بعد يوم, ولكن الذي فاتَ السميسر أنْ يعلم بأنَّ مثل هذه الأمور, وهي تعيين أهل الديانات الأخرى في الدولة, هي دلالة على التسامح والانفتاح, عند أهل هذه المملكة.

وقامَ السميسر –أيضاً– بهجاء الملك عبد الله, آخِر ملوك بني زيري, ومن الواضح من الأبيات, بأنَّ الملك عبد الله كان يبني قصراً في غرناطة, ويذكّرُهُ الشاعر بأنَّ كل ما يبنيه سيصير إلى التراب بقدرة الله (جَلَّ وعَلا), فهذا العمل في نظر الشاعر هو نقص في فهم الحاكم, للدنيا وتقلّباتها, من نحو ما قال: [مخلع البسيط]

يبنـــــي علـــــى نفســـــه ســـــفاهاً
كأنـــــــــه دودة الحريـــــــــــر
دَعُـــــوهُ يبنـــــي فســـــوف يـــــدري
إذا أتـــــتْ قـــــدرة القـــــدير [٢]

---

[١] السميسر حياته وشعره (بحث): ١٤١.

[٢] م. ن: ١٤٠.

وإذا كان السميسر في هذين البيتين قد هجا ملوك بني زيري بشكل خاص, فهو في قصائد أخرى يقوم بهجاء ملوك الطوائف بشكل عام, من نحو ما قال:

[م. الكامل]

نـــــادِ الملــــوك وقُـــــلْ لَهُـــم
مـــــاذا الــــــذي أحــــــدَثْتُمُ
أسْـــــــلَمْتُم الإســـــلامَ فــــي
أَسْـــــرِ العِـــــدا وقَعَـــــدتُمُ
وَجَـــــبَ القيــــامُ علــــيْكُمْ
إذا بالنصـــــــارى قُمْـــــــتُمُ
لا تَنْكِـــروا شَـــقَّ العصــــا
فَعَصـــــى النَّبِـــيَ شَـــقَقْتُمُ[1]

ذَمَّ السميسر ملوك الطوائف, وقد رَكَّزَ موضوعه على استعانة ملوك الطوائف بألفونسو, وهم -بعملهم هذا- قد شَقّوا عصا الإسلام, وهو في أبيات أخرى يتهمهم بالخيانة؛ ولذلك أصبحوا بفعلتهم هذه في الحضيضِ الأوهدِ, فيقول:

[مخلع البسيط]

خُنْـــتُم فَهِنْـــتُم وكَـــم أهنـــتُم
زمـــان كُنْـــتُمْ بـــلا عُيـــونْ
فَـــأَنتُم تَحـــتَ كُـــلِّ تحـــتٍ
وأنـــــــتُم دونَ كُـــــــلِّ دونْ

---

(1) السميسر حياته وشعره (بحث): ١٤٨.

سَكَنْتُمْ بأرياحِ عادٍ

وكُلُّ ريحٍ إلى سُكونْ[١]

وهناك اتجاه آخَر في الهجاء, وهو هجاء الشعراء فيما بينهم, ويبدو أنَّ أبي جعفر الكاتب كانَ محوَراً لهذا الهجاء, فقد هَجاهُ أكثر من شاعر, كابن الحناط, وابن شهيد, وإدريس بن اليمان اليابسي[٢].

وركّزَ ابن الحناط في هجائه لأبي جعفر الكاتب على عيوب النطق التي كانت تظهر عند أبي جعفر أثناء الكلام, ويبدو أنَّ ابن الحناط قد بالَغَ في هجائه, فجَعَلَهُ لا ينطق الكلام بصورةٍ صحيحةٍ, ومن ثم يتعسّر على المتلقي فهم ما يريده, من نحو ما قال: [الكامل]

من لي بألثغ لا يزالُ حديثه

يُذكي على الأكباد جمرةَ مُحرقِ

تُنبي فينبو في الكلام لسانهُ

وكأنهُ من خمر عينيه سُقِي

لا يُنعش الألفاظ من عثراتِها

لو أنها كُتبت له في مهرقِ[٣]

إذا كان ابن الحناط قد ركّزَ على نطق أبي جعفر, فابن شُهيد يحذّر الآخرين من رائحة عَرَقِهِ النتنة, التي يشبّهها برائحة ماء الجنابة, إذ يقول: [المتقارب]

---

(١) السميسر حياته وشعره (بحث): ١٥٠.

(٢) ينظر: بدائع البدائة: ٨٣.

(٣) ديوان ابن شُهيد: ٩٥.

مهرق: ثوب حرير أبيض يُصقل ثم يُكتَب فيه.

أبـــو جعفـــرٍ كاتـــبٌ شـــاعرٌ   مَلـيحُ سنى الخَـطِّ حُلْـوُ الخِطابـهْ
تمـــلّأَ شَـــحماً ولَحمـــاً ومـــا   يليـــق تملـــوُهُ بالكتابـــهْ
لَـــهُ عَـرَقٌ لـيس مـاء الجِبـاه   ولكنـــه رشـــحُ مـــاء الجنابـــهْ
جـرى المـاء سُـفله جـرى لـينٍ   فأحدث فـي العُلـو منـه صلابهْ[1]

وقد وفدَ عليه إدريس بن اليمان في المرية, ومَدَحَهُ بقصيدة, لكنه لم يُقِمْ لها وزناً, أو يبدو أنه كان متحاملاً على شعراء عصره, ولمّا رأى إدريس بأنَّ مدحَهُ له قد ذَهَب سُدَىً, راح يهجوه في أبياتٍ, قالَ فيها: [المخلع البسيط]

أبـــا جعفـــر المرجَّـــى   مـا بـالُ طيـري خـلاف طيـرِكْ
أَهْـــدَيْتُ رقِراقـــة المعـــاني   لَـــمْ أُهْـــدِ أمثالهـــا لغيْـــرِكْ
فَلَـــمْ تَمرْهـــا ولـــم تمرنـــي   ولـــم تمرهـــا بفضـــلِ ميـــرِكْ
فصـــارَ شِـــعري لـــديكَ بِكْـــراً   قد يَئِسَتْ مِنْ فَلَاحِ [.....][2] [3]

ومن الأشعار التي قيلت في الهجاء بين الشعراء, هجاء السميسر للشاعر ابن الحداد, في أبيات يقول فيها: [السريع]

قـالوا ابـن حـدّاد فتـى شـاعرُ   قلـتُ مـا شـعر ابـن حـدّادِ؟
أشـــعارَهُ مِثْـــلَ فِـــراخِ الزِّنـــى   فَـــتّشْ تجـــد أخبـــث أولادِ[4]

---

[1] ينظر: بدائع البدائة: ٨٤.
[2] [كلمة بذيئة ترَفَّعنا من ذكرها].
[3] شعر إدريس بن اليمان اليابسي, القسم الثاني: ٢٤٤ وما بعدها.
[4] السميسر حياته وشعره (بحث): ١١٥.

يقدح السميسر في شعر ابن الحدّاد, ولكن ابن الحدّاد يردّ على السميسر ببيتٍ من الشعر, كان الأجدر به أن يترفّع عن ذِكرِ مثل هذه الألفاظ التي تخدش الحياء, من نحو ما قال: [البسيط]

يا أهلَ غرناطة [......][١] سُميسركُم
ففي رُميّلينا[٢] عنه لنا شُغْلُ[٣]

ومن الأشعار التي قيلت في الهجاء بين الشعراء, التي تكون مقاربة في الفحش من الأبيات المذكورة آنفاً, هجاء الأعمى المخزومي[٤] لنزهون الغرناطية, في أحد المجالس, وكان المخزومي قد سَمِعَ بصوتِ نزهون[٥], وأرادَ الانتقاص منها في بيتيْن, فقال فيها:

على وجهِ نزهونٍ من الحُسْنِ مسحةً
وإنْ كان قد أمسى من الضوءِ عارياً
قواصد نزهون توارِكُ غيرها

---

(١) [كلمة بذيئة ترَفَّعنا من ذكرها].

(٢) رُميلينا: المقصود بها المرية ذات الشاطئ الرملي.

(٣) ديوان ابن الحدّاد: ٢٤٣.

(٤) قال فيه ابن سعيد: "من المسهب: بَشّارُ الأندلس انطباعاً ولسناً وأداةً, وهو الذي أحيا سيرة الحُطيئة بالأندلس فمُقِت, وكان لا يسلم من هجوِهِ احد, ولا يزال يخبط النفاق بعصاه, ويقع فيمن أطاعه أو عصاه وأصلهُ من المدوَّر, وقرأ بقرطبة ثم جال على البلدان, وأكثر الإقامة في غرناطة, وتعرّض لشاعرتها نزهُون..."، المغرب في حلى المغرب, ج٢: ٢٢٨, و نزهة الجلساء في أشعار النساء: ١٥٥.

(٥) قيلت هذه الأبيات في أحد المجالس التي كانت تُعقد يومئذٍ, وكانت نزهون حاضرة, فلمّا سمع صوتها المخزومي, قال: من هذه الفاضلة, فقالت: عجوز مقام أُمّك, فقال: كذبتِ ما هذا صوت عجوز, وإنما هذه نغمة ...., ومن بعد هذا الحديث انتظر المخزومي قليلاً, وأنشدَ هذين البيتين, ثم ردّتْ عليه نزهون. ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, ج١: ١٩٢.

ومـن قصـدَ البحـر اسـتقلَّ السـواقيا[1]

ولكن نزهون تردّ على المخزومي بشِعر, قد يكون أكثر بذاءة من أبيات المخزومي, فتقول: [م. المجتث]

قُـــــلْ للوضــــــيع مقـــــالاً يُتلـــى إلـــى حـــينَ يُحشَـــرْ
مـــــن المـــــدوَّر أُنشئـــــــــ ت والخـــرا مِنْـــهُ أطهـــرْ
حيـــــث البـــــداوة أمســـــتْ فـــــي مشـــيِها تتبختـــــرْ
لـــــذلك أمســــيت صَـــــبّاً بكــــلِّ شــــيءٍ مُــــدوَّرْ
خُلقـــــتَ أعمـــــى ولكـــــن تهـــيم فـــي كـــلِّ أعْـــورْ
جازيـــــت شِـــــعراً بشـــــعرٍ فقــل لعمــري مَــنْ أشــعرْ[2]

ما هذه الأبيات التي ذُكِرَتْ آنفاً, إلّا صورة لِما كان يجري في المجتمعات الأدبية, وهو الهجاء الفاحش الذي يذكّرنا بهجاء بشار في ذكر العورات, وهجاء ابن سكرة وابن الحَجّاج في ذكر القاذورات[3].

وهناك هجاء يردع من يتعدّى على الآخرين, وبخاصة إذا كانوا من الفقهاء والفضلاء, فقد هجا أبو بكر عبد الرحمن ابن الحاج الإلبيري القاضي ابن توبة[4], فكانت عقوبته بأن يُطاف به في الأسواق, ويُضرب أمام الناس, فضلاً عن الهجاء الذي قيل فيه مِن أبي إسحاق الإلبيري: [البسيط]

السَّوْطُ أبلـغُ مِنْ قـالٍ ومِنْ قيـلِ ومِــنْ نُبــاحِ ســفيهٍ بالأباطيــلِ

---

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, ج١: ١٩٢.
(2) م. ن, ج١: ١٩٢.
(3) ينظر: الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه), د. مصطفى الشكعة: ١٦٣.
(4) لم أعثر على ترجمةٍ له.

مُـرُّ المــذاقِ كَحَـرِّ النّـــارِ أبـرَدهُ   يُعقِّــلُ المتعــاطي أيَّ تعقيــلِ[1]

ويصف أبو إسحاق الإلبيري شكل هذا الرجل بصورة مضحكة, يريد منها أنْ يقلّل من شأنه في المجتمع؛ لأنه حاوَلَ التعدّي على من هم من أهل العِلمِ والفضلِ, من نحو ما قال:

ضـئيلُ جسـمٍ تخـافُ الخيـلُ سـطوتَهُ
أعدى وأطغى مـن التمسـاح فـي النيـلِ
يُـــرقِّصُ المـــرءَ ترقيصـــاً بـــلا طَــرَبٍ
لـو كـانَ أثقـلَ أَوْ أجْسَـى مـن الفيـلِ[2]

فهو يلومه على فعلته هذه, ويذكّره بفضيحته التي كانت نتيجة هذا العمل الذي قام به, وهو هجاء القاضي, فقد كان من أهل الحل والعقد في المجتمع, ومِن لُبِّ اللباب, فقال:

فقــلْ لـــه إنْ جـــرى هَجـــوٌ بخـــاطِرِهِ
اذكُـــرْ قيامـــك محلـــولَ الســـراويلِ
واذكُـرْ طوافَـك فـي الأسـواقِ مفتضـحاً
مُجـــرّداً خاشـــعاً فـــي ذُلِّ معـــزولِ
واذكــر عُقوبـــة مـــا زَوَّرْتَـــهُ ســـفهاً
فـــي الســـادةِ القـــادةِ الشُـــمِّ البهاليـــلِ
عصـــابةٌ عَظَّـــمَ الـــرَّحمنُ حُرمَتهـــا

---

(1) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ١٠٠.

(2) م. ن: ١٠٠.

وخَصَّـــها مِنْـــهُ إكرامـــاً بتبجيـــلِ[١]

هذا الاتجاه الذي مَثّله الإلبيري, هو اتجاه محافظ يمثّل طائفة الإلبيري, بعيد عن الهجاء الذي مَثّلهُ السميسر وابن الحدّاد وابن الحنّاط ونزهون والمخزومي وغيرهم؛ ولهذا كانت ردود الفعل من قبل الآخرين على شِعر هذا الرجل الذي قام بهجاء القاضي ابن توبة بالضرب والسخرية التي بلغتْ حدّاً من الاشمئزاز والنفور[٢].

---

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ١٠٠.

(٢) ينظر: مع شعراء الأندلس والمتنبي: ١٠٦.

ثانياً- الرثاء:

إنَّ الرثاء من أكثر الأغراض الشعرية إثارة للعواطف, وتحريكاً للمشاعر والأحاسيس[1]؛ إذ "يُعبّر فيه الشاعر عمّا يجول في خلجات نفسه عندما يمرّ بتجربةٍ مؤلمة تنجم عن فقده أحد أحبائه بالموت, وقد عرف العرب الرثاء منذ عصر ما قبل الإسلام"[2].

والقارئ لأشعار الرثاء التي قيلت في ظل دولتي بني حمود وبني زيري يلحظ إنَّ أكثرها يدور حول رثاء الشخصيات المهمة في المجتمع, مع وجود أشعار قيلت في رثاء الأفراد, مثل: رثاء الإلبيري لزوجته, ورثاء يوسف بن إسماعيل اليهودي لوالده, مثلما سيأتينا في قابل البحث.

وقد نالت الشخصيات المهمة في الدولة جزءاً من مراثي الشعراء الذين عاشوا في كنف بني حمّود وبني زيري, فعند مقتل علي بن حمود رثاه الشاعر عبادة بن ماء السماء في قصيدة يبتدئ فيها الشاعر بالرثاء, قائلاً: [الكامل]

صـلّى علـى المَلِـكِ الشـهيدِ مَليكُـه
وسـقاهُ فـي ظـلِّ الجنـانِ الكَـوْثرُ
مـولى دهتـهُ عبيـدُهُ وغضـنفرُ
تَرَكَتْـهُ أيـدي العفـرُ وهـو معفَّـرُ
كانـت تهيبُـهُ الأسـودُ فغالَـهُ
فـي قصـرِهِ مستضـعفٌ مُسـتحقَرُ
لـم يَـثْنِ عِـزُّ المُلْـكِ عَنْـهُ مَنونـهُ

---

(1) ينظر: حركة الشعر في مصر الفاطمية: ٧٥.

(2) م. ن: ٧٥.

فَسَمَتْ لـهُ مـن حيثُ لـم يـكُ يحـذرُ

قَتَلَتْـــــهُ سِـــــرّاً والقبائـــــلُ درَّعُ

تحميـــه لكـــنَّ المنايـــا جُسَّـــرُ

ولـــو أنَّهـــا رامَتْـــهُ جهـــراً لانثنـــت

والبِـيضُ تُقْـرَعُ والقنـا يتكَسَّـرُ(١)

فقد بيّن لنا الشاعر في الأبيات السابقة شجاعة علي بن حمود, فقد كان مغواراً شجاعاً باسلاً تهابه الأسود, لكن أيادي الغدر طالته, فلو قاتلوه جهراً وعلى رؤوس الأشهاد, لشاهدوا العجب العجاب.

وفي دولة بني زيري, وعندما قُتلَ بلقين بن باديس, رثاه الشاعر غانم بن الوليد في قصيدةٍ, قال فيها: [الطويل]

هو العُمْرُ يطوى والأماني رواحلُ	**هـو العيشُ يُفنـى والليـالي مراحـلُ**
إذا كانـت الآمـال تُـدعى قـواتلاً	**علـى الحُكـمُ فالآجـال منـا مقاتـلُ**
نغالب أجناد الرَّدى الدهر بالمُنى	**كمـا غالـبَ الحَـقَّ المُصـرحَ باطـلُ**
وأحوالنـا بـين الحيـاة وصـدّها	**تُصـرف والأقـدارُ فيهـا العوامـلُ**
علـى ذا تُقضـى عـالمٌ بعـد عـالمٍ	**ولم تختلف فيه القرون الأوائلُ(٢)**

فقد انمازت هذه المرثية بالعمق الفلسفي, وهذه الطريقة كانت متّبعة عند بعض الشعراء الأندلسيين وهي التفلسف بالرثاء(٣), يُذكّر الشاعر المتلقي بحال الدنيا وانتقالها من حالٍ إلى حال, فالإنسان لا يزال في أثناء إقامته في هذه الدنيا الفانية

---

(١) شعر عبادة بن ماء السماء (بحث): ١٣.

(٢) من أعلام الأندلس (أبو محمد غانم بن الوليد القرشي), أخباره وجمع آثاره (بحث): ٢٠ وما بعدها.

(٣) الأدب العربي في الأندلس, عبد العزيز عتيق: ١٩٨ و ١٩٩, و أبو العلاء المعري مؤثراً: ١٤, وقد ذكر الدكتور علي المصلاوي طائفة من الشعراء ممن تأثروا بأبي العلاء, ومثّلوا طريقته في الأندلس وهي التفلسف في الرثاء, مثل: عبد المجيد بن عبدون (٥٢٩هـ), والأعمى التطيلي (٥٢٥هـ), ينظر: أبو العلاء المعري مؤثراً: ١٤١-١٥١.

يحارب أهل السوء الذين لا ينفع معهم أي نصيحة, فقد استحوذ عليهم الشيطان, وعلى هذا الحال قد جُبلت الخليقة, ويبدو أنَّ "المرثية عند أصحاب هذا الاتجاه تبدو من منظور عقلي وكأنها صيغت وسيقت لتخفيف المصاب على قلوب المصابين, بالعِظة والعِبرة, وذلك بضرب الأمثال بمن أبادهم الدهر وأفناهم في الغابر من الأمم والممالك, والحيوانات المعمرة"(١).

وأمّا العلماء, فقد كانت لهم منزلة كبيرة في ظل دولَتَيْ بني حمّود وبني زيري, فقد حَزِنَ الشعراء على فقْدهم, وعبّروا عن هذا الحزن في قصائدهم, فهذا الشاعر ابن الحناط الكفيف يُرثي القاضي ابن ذكوان(٢) بأبياتٍ, إذ يقول: [الطويل]

عفـاءٌ علـى الأيـامِ بعـد ابـن ذكـوان
وقبحـاً لـدنيا غيَّـرت كُـلَّ إحسـانِ
سـأبكي دَمَـاً بعـد الـدِّموعِ بِعَبْـرَةٍ
تغيّـر إحسـاني وتُعبّـر عـن شـأني
وإنَّ حيـاتي اليـومَ بعـد وفاتِـه
دليـلٌ بـأنَّ العـذرَ فـي كُـلِّ إنسـانِ
أَحَقّـاً سِـراج العِلْـم أَخْمَـدَهُ الـردى
وهَـدَّمَ رُكْـنَ الـدِّينِ مِـنْ بعـد شـاني
وغـودِرَ فـي دار الـبلاد عَلَـمُ الهُـدى
مُزَعـزَعَ أسـاسٌ مُضَعضَـعَ أركـانِ
فَشَـقَّتْ عليـه المُكرمـات جيوبهـا
وأَلْقَـتْ رؤوسُ المجـدِ عنهـا محـانِ(١)

---

(١) ينظر: الأدب العربي في الأندلس, عبد العزيز عتيق: ١٩٨-١٩٩.

(٢) القاضي بن ذكوان: لُقّبَ بقاضي القضاة, انماز بالعدل وحُسن التدبير, وصحة الرأي, فضلاً عن عِلمِهِ السابغ, وحُبّهِ لأهلِ العِلم, توفي سنة ٤١٣هـ, ينظر: تاريخ قضاة الأندلس: ٨٤ وما بعدها.

والقارئ لهذه الأبيات, يلحظ مدى الأثر الذي تَرَكَهُ هذا القاضي في نفوس مُحبّيه ومُريديه, وبخاصة الشاعر, فهو يسأل مِن الآخرين, قائلاً: (أَحَقّاً سراج العِلْمِ أخمَدَهُ الرَّدى), ولكنه يعلم الإجابة, ويستمر في ذكر مناقبه وفضائله, فقد كانَ ابن ذكوان في الأندلس, عَلَمُ الهُدى, وسِراج العِلْم, مثلما حدّثنا الشاعر في الأبيات السالفة؛ ولذلك المكرمات شَقَّتْ جيوبها لفَقْدِهِ, وانْحَنَتْ رؤوس المجد بعد رحيلِه.

وقد رثاه ابن شُهَيد –أيضاً– في أبيات, إذ قال: [الطويل]

وكـان عظيمـاً يُطـرِقُ الجَمْـعُ عِنْـدَهُ
ويعنــو لـــه رَبُّ الكتيبـــةُ هائبـــاً[٢]

يتألم الشاعر لفقدِهِ مثلما تألَّمَ ابنُ الحناط, لمنزلتِهِ العلمية, فهو شمس المكارم والعلوم, والجميع ينهل مِنْ مَعين عِلمِهِ الذي لا ينضب, ويستعين ابن شهيد بالصبر, لَعَلَّهُ يُهوِّن عليه فَقْد هذا العالِم الكبير, من نحو ما قال: [الطويل]

أبـا حــاتمٍ صَــبْرَ الأديــب فــإنّني
رأيــتُ جميــل الصَّــبْر أحلــى عواقبـا
ومـا زِلْـتَ فينـا تُرهِـبَ الـدَّهرَ سـطوةً
وصـعباً بـه نُعيـي الخُطُـوبَ المصـاعبا
سَأَسْــتَعتِبُ الأيّــام فيـــك لَعَلَّهـــا
لِصِــحَّةِ ذاك الجســمِ تطلــبُ طالبــا
لَـئِنْ أَفَلَـتْ شـمسُ المكـارمُ عنـدكم
لقــد أســأرتْ بــدراً لهــا وكواكبــا[١]

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس: ٨٧.

(٢) ديوان ابن شُهيد الأندلسي: ٩٠.

ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة كبيرة في الدولة بصورةٍ عامة, وعند الشعراء بصورةٍ خاصة, القاضي علي بن حسون, فهذا الشاعر غانم بن الوليد يرى إنَّ الفقيد قد تركَ مآثر في نفوس محبّيه, إذ انمازَ بصفاتٍ عدة, كالسماحة والفصاحة والعلم والعمل, فالشاعر يتعجَّبْ من فقد هكذا إنسان, فهو كالشمس, وكيف للأرض أنْ تواري ضياء هذا العالِم الذي كان وسيبقى ساطعاً مدى الزمان, ويتذكّر الشاعر مجلسه الذي كان يحضره العلماء والفقهاء, ويستوحش لفقده, ولهذا فالكل حزين لفَقْدِه, فلا يجد الشاعر أَحَداً إلّا وقد بانَ على وجهِهِ الحزن, من نحو ما قال: [الكامل]

مَـنْ ذا أُعَـزّي فيـك مِـنْ هـذا الـورى
لَـــــمْ يَلقَنــــــي إلّا بحزنِــــــكَ لاقِ
والنـــاسُ محزونـــونَ فيـــك كأنمـــا
كـــان اتفـــاقُهم علـــى إصـــفاقِ(٢)

وخلاصة القول: إنمازَ رثاء الشخصيات المهمة بالدولة بالتركيز على معاني الرثاء وذِكر مناقب الممدوح, وبالعمق الفلسفي, والتذكير بالآخرة, وبِحال الدنيا وانتقالاتها, وأمّا رثاء العلماء فقد عبّرَ فيه الشعراء عن حبّهم للعلماء, وقد توزَّعَ هذا الأمر على أغلب مساحات النصوص الشعرية التي تناولت هذا الموضوع, وهذا ما يدّ على مدى المنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها أهل العلم والفضل في ظل الدولتين.

ومما جاء في رثاء الآباء, أبيات ليوسف ابن الوزير ابن النغريلة الهودي, يُرثي فيها أباه لمّا قُتل بغرناطة وصُلب في نهر سنجل(١), وقد كان يومئذٍ صغيراً, فهرب إلى أفريقية, وكتبَ هذه الأبيات هناك وأرسلها إلى أهل غرناطة(٢), قائلاً: [الخفيف]

---

(١) ديوان ابن شُهيد الأندلسي: ٩٠.

(٢) من أعلام أهل الأندلس (أبو محمد غانم بن الوليد القرشي) أخباره وجمع آثاره (بحث): ٩.

أقتـــيلاً بســـنجلٍ لـــيس يخشـــى
حَشْــرَ جســمٍ وقــد سَــمعنَ النَّصــيحا

غُــدِرَ الجِسْــمُ فــي التــرابِ طريحــاً
وغَــدا الــرُّوحَ فــي البســيطةِ ريحــا

أيهـــا الغـــادرونَ هَـــلّا وَفَيْـــتمْ
وفَـــدَيْتُمْ شِـــبهَ الـــذَّبيحِ الـــذبيحا

إنْ يكُـــنْ قَـــتْلُكُم لـــه دونَ ذَنْـــبِ
قـــد قتلنـــا مـــن قبـــلِ ذاك المســـيحا

ونبيّـــاً مـــن هاشـــمٍ قـــد ســـممنا
خَـــرَّ مـــن أَكْلَـــةِ الـــذراع طريحـــا[٣]

اقتبس يوسف بن إسماعيل في أبياته السالفة أكثر من قصة, ففي قوله: (وفَدَيْتُم شبه الذَّبيح الذبيحا), أشارَ إلى قصة نبي الله إسماعيل (عليه السلام), وأنَّ الله قد فداه بذبحٍ عظيم, في قوله تعالى: ((وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ))[٤], وقد ضمّن الأبيات أيضاً قصة النبي عيسى (عليه السلام), في قوله: ما قُتِل ولا صُلب, فقد ورد في قوله تعالى: ((وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ))[٥], وهو ما يبيّن ضعف معرفته بالقرآن الكريم, وأخيراً خَتَمَ الأبيات بقولِه: (ونبيّاً من هاشم قد سَمَمْنا), وفي

---

[١] سنجل: نهر بغرناطة, وكأنّه اقترن اسمه معها, ينظر: معجم البلدان, مج٣: ٢٦٤.

[٢] ينظر: المُغرب في حلى المغرب, ج٢: ١١٥, و أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي (منذ الفتح وحتى سقوط الخلافة (٩٢-٤٢٢هـ): ١٥٢.

[٣] المُغرب في حُلى المغرب, ج٢: ١١٥.

[٤] سورة الصافات, الآية ١٠٧.

[١] سورة النساء, الآية ١٥٧.

هذا البيت إشارة إلى الحادثة التي تُنقل عن أكل النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من طعام مسموم قدّمه له بعض اليهود[١].

وما يتعلق برثاء الأفراد, هناك مرثاة غزلية[٢] عند أبي إسحاق الإلبيري, وقالها بمناسبة وفاة زوجته, وقد جمع الشاعر بين الغزل والرثاء, وهو ما يعد من باب التجديد في الشعر الأندلسي في هذه المدة من عُمر الدولة الزيرية, من نحو ما قال:

[الكامل]

عُـج بـالمَطِيِّ علـى اليَبَـابِ الغـامرِ
واربَـع علـى قَبْـرٍ تَضَـمَّنَ نـاظِري
فَسَتَسْـتَبينُ مكانَـهُ بضـجيعِهِ
ويَـنِمُّ منـهُ إليـكَ عَـرْفُ العـاطرِ
فَلَكَـمْ تَضَـمَّنَ مِـن تُقـىً وتَعَفُّـفٍ
وكـريمِ أعـراقٍ وعِـرضٍ طـاهرِ
وَاِقـرَ السَّـلامَ عليـهِ مِـن ذي لَوْعَـةٍ
صَـدَعَتْهُ صَـدعاً مالَـهُ مـن جـابرِ
فعسـاهُ يسـمحُ لـي بوصـلٍ فـي الكَرى
مُتعاهِـداً لِـيَ بالخَيـالِ الزّائِـرِ
فأُعَلِّـلَ القلـبَ العَليـلَ بطيْفِـهِ
عَلِّـي أُوافيـهِ ولَسْـتُ بِغـادرِ[٣]

---

[٢] ينظر: السيرة النبوية, ابن هشام, ج٣: ٣٥٢.

[٣] أطلقت الدكتورة هدى شوكت بهنام على هذه القصيدة بالمرثاة الغزلية. ينظر: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي (دراسة موضوعية فنية): ٣٣.

[١] ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٧٤.

القارئ للأبيات السالفة يلحظ فيها الإحساس الصادق والمشاعر النبيلة "وقد ذَكَرَ شمائلها من تُقى وتعفف وكرم عِرق وعِرض طاهر, ودعا إلى أنْ يُقرأ السلام على قبرها, وتمنّى أن يصل إليه خيالها في المنام, وجمع بين ذكرها في القبر وهو متشوّق إليها"[١], وبعد ذكره لشمائلها وصفاتها الحميدة يتمنّى الشاعر أن يرى خيال زوجته في المنام ليشفي غليل القلب من فراقِهِ ولوْعتِه, لعلّهُ يوافيها ولو جزءاً قليلاً من حقّها, والقصيدة تنمّ عن وفاء الزوج لزوجته حتى بعد الممات, فهي قد ذهبت جسداً, ولكن خيالها ما زال لا يبارح خيال زوجها أبداً.

وهكذا فقد عبّرَ رثاء الأفراد عن لوعة الفراق والألم الذي نَجَمَ عن فقد الأب أو الزوجة, فقد ضمَّنَ يوسف بن النغريلة أبياته التي قالها في رثاء والده بعض الحوادث التاريخية التي أوضحت للمتلقي مدى الحقد والضغينة التي امتلأ بها قلبه من المسلمين, وراح يصرح بما كان مخبوءاً تحت لسانه, بينما كانت مرثاة الإلبيري على النقيض من مرثية اليهودي؛ فقد انمازت بالتجديد والجمع بين الغزل والرثاء, وهو ما يكتب في باب التجديد في الشعر الأندلسي في هذه المدة من عُمر الدولة الزيرية, فضلاً عن العاطفة الجياشة التي توزعت على النص كله.

ثالثاً– الغَزَل:

---

(٢) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي (دراسة موضوعية فنية): ٣٣.

يُعد الغزل "من الفنون الشعرية الجميلة, والمحبّبة إلى النفوس, وأَلصَقها بحياة الرجل والمرأة"[١], ولاشك أنَّ للمرأة أهمية كبيرة في حياة الرجل, ولما كان الغزل مرتبطاً بالمرأة, فقد أولاه الشعراء أهمية كبيرة, ومنذ العصور القديمة, فهو "قريب من النفوس, لائط بالقلوب, لِما قد جعلَ الله في تركيب العباد من محبة الغزل, وألف النساء, فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب, وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام"[٢].

ولم يكن موقف الشعراء من الغزل واحداً, وإنما تنوع[٣], و"بحسب إعجابهم بها ونظرتهم إليها, فنجد من الشعراء من نظرَ إليها بوصفها جسداً تشتهيه أنفسهم, وتتوق إليه رغباتهم, ومنهم من رأى فيها معاني سامية يجب احترامها, وإشعارها بكيانها الذاتي المهيب"[٤].

والغزل في الأندلس لم يختلف كثيراً عن نظيره في المشرق, فهو من أكثر الموضوعات الشعرية تداولاً بين الشعراء, ويدور في مجملِهِ في اتجاهات ثلاثة: عُذري, وحِسّي, وتقليدي[٥], ولكن الدارس للأشعار التي قيلت في الغزل في ظل دولَتَيْ بني حمّود وبني زيري, يلحظ أنَّ أغلب الغزل ينضوي تحت الاتجاه الأول, وكأنَّ انتماء الدولتين العقائدي قد منع الشعراء الذين عاشوا في ظل دولتي بني حمود وبني زيري, من الخوض في الموضوعات التي من شأنها تخرج عن الاتجاه المحافظ.

---

(١) حركة الشعر في مصر الفاطمية: ١٠٥.

(٢) الشعر والشعراء. ج١: ٣١.

(٣) حركة الشعر في مصر الفاطمية: ١٠٥.

(٤) م. ن: ١٠٥.

(٥) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة, د. منجد مصطفى بهجت: ١٠٥.

وأمّا ما يتعلق بشعراء بني حمود, فقد سار أغلب الشعراء على هذا النمط, فهذا الشاعر ابن السرّاج المالقي, يتذكّر حبيبته عندما رأى الوادي الذي تعرّفَ عليها هناك لأول مرة, فهو يشتكي هناك ألم الفراق واللوعة, وقد استعان بالصبر, ولكن إلى متى يبقى حاله بهذا الشكل, من نحو ما قال: [الطويل]

ذَكَرْتُــكِ بــالوادي الــذي كنــتِ مَــرّةً
بــه والهــوى مــا بيننــا أبــداً غــرُّ
فَحَــرَّكَ مِنّــي باعِــثُ الشــوق ســاكناً
وكَلَّفَنــي صــبراً ومِــنْ أيــن لــي صَــبرُ
فيــا نازحــاً والــدّار مِنّــي قريبــة
إلى كم يطول الصَدُّ لي منك والهَجْرُ(١)

ويبدو أنَّ الشاعر يكرر معاناتهُ في أكثر من قصيدة, فهو يظل يتذكَرها, وهو مستعد إلى أن يُسقى كأس الأذى, بشرط أنْ يكون من يدَيْها, من نحو ما قال:

[الطويل]

تــذكّرتُ بــالوادي زمانــاً لقيتُهــا
بِــهِ فيــه والمشــتاقُ حلــف تــذكرِ
فلــو صُــبَّ فــي كأســي أذىً لشــربتهُ
على شرطِ أنْ أسقاه من كَفّ (أزهرِ)(٢)

ويبدو أنَّ ابن الحنّاط الكفيف أكثر لوْعةً وألماً من ابن السراج, فإذا كان الوادي قد هيَّجَ اللوعة والألم عند ابن السراج, فَدَارُ (علوة) قد أشعلت النار في قلب ابن الحناط, فهو يمر عليها وتستعر في قلبه نار الألم والفراق, مثلما قال: [البسيط]

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٥.

(٢) م. ن, ق١: ٦٦٠.

لَـوْ كنـت تعلـمُ مـا بالقلـب مـن نـارِ

لَــمْ توقــد النـــار بالهنـــدي والغـــارِ

يــا دار عَلْـوة قـد هيَّجـتِ لــي شـجناً

وزدتنـــي حُرقـــاً, حُييـــتِ مـــن دارِ(١)

ابن السراج وابن الحناط يتألّمان لفراق الحبيبة, وهذا الأمر طبيعي عند أغلب المُجتَمَعات, فـ "لكلِّ مجتمعٍ من افتراق, ولكلِّ دانٍ من تَناءٍ, وتلك عادة الله في العبادِ والبلاد, حتى يرث الله الأرض ومن عليها, وهو خير الوارثين, وما شيء من دواهي الدنيا يعدل الافتراق, ولو سالت الأرواح به, فضلاً عن الدموع, كانَ قليلاً, وبعض الحكماء سَمِعَ قائلاً يقول: الفراق أخو الموت, فقال: بل الموت أخو الفراق"(٢).

وما يميّز الغزَل عند ابن السراج, وابن الحناط, بروز أسماء نساء يدور حولهنّ الغزل (حُسن الورد, وعلوة), ويبدو أنَّ هذه الظاهرة قد شاعت في هذا العصر(٣).

ومن الشعر الذي قيل في الغزل, أبيات قالها الشاعر إدريس بن اليمان في امرأة ترتدي الحجاب, ولا يرى الشاعر إلّا وجهها, فَطارَ لبّهُ, عندما رأى تلك الجفون, فقد أفسَدَته, ولكن هذا الفساد في نظر الشاعر هو الإصلاح بعَيْنِه؛ لأنه قد يكون قد اهتدى مِنْ أجلِها, وأَكمَلَ نصف دِينِه, من نحو ما قال: [الطويل]

تَوَشَّـــحَ بالظَّلْمـــاءِ وهـــو صَــباحُ

فأَمْرَضَــتِ الألبـــاب وهـــي صـــحاحُ

وظَــلَّ فــؤادي طــائراً عــن جــوانحي

---

(١) نفح الطيب, ج١: ٢٩٨.

(٢) طوق الحمامة: ٨١.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ١٦٠.

ولـــيس لـــه إلّا الغـــرامَ جَنـــاحُ

قضــيبُ صــباحٍ فــي وشــاحِ دُجُنَّــةٍ

أَلَا لَيْتَنَـــي تَحـــتَ الوشـــاحِ وشـــاحُ

ولا عَجَـــبٌ إنْ أَفْسَـــدَتْني جُفُونـــهُ

فَكُـــلُّ فســـادٍ فـــي هَـــواهُ صَـــلاحُ[١]

لم يتلَفَّظ الشاعر في الأبيات السابقة بألفاظٍ قد تخدش الحياء, فهو يُعبّر عَمّا اختلجَ في صَدرِهِ عندما رأى هذه الفتاة التي ترتدي الحجاب, وقد تنعكس في هذه الأبيات صورة المرأة في المدّة التي عاشها الشاعر, فهي مُحافِظة على الزيّ العربي.

وهناك أبيات لغانم بن الوليد تؤكد هذا الأمر أيضاً, فهو يتغزّل بامرأة, ويُكنّي عن حجابها باللثام الذي بانَ منه وجهها, فهي كالبدر في نورِهِ, وكالشمس في ضيائها, من نحو ما قال: [البسيط]

لـــولا التَحَـــرُّجُ لَـــمْ يُحجـــب مُحَيّـــاكِ

حييـــتِ عَنّـــا وحُيينـــا بمحيـــاكِ

هـــذا اللثـــامُ غمـــامٌ مـــا يُبـــين هُـــدى

حطّـــي اللثـــام فلـــيس البـــدرُ إلّاكِ

أيَـــا غزالتنـــا شـــمسُ الضُّـــحى طَلَعَـــتْ

علـــى اتفـــاقٍ فســـيماها كســـيماكِ

إنّـــيَ أراكِ بقتـــلِ الـــنَّفس جـــائرةً

مـــا كـــانَ ضـــرَّكِ لـــو أحظـــى بسُـــقياكِ[٢]

---

[١] شعر إدريس بن اليمان (بحث): ٩ وما بعدها.

[١] من أعلام الأندلس (أبو محمد غانم بن الوليد القرشي), أخباره وجمع آثاره (بحث): ١٠.

إدريس بن اليمان وغانم بن الوليد شكواهما واحدة, فوَجْهُ المرأةِ الذي بانَ من الحجاب قد فَعَلَ ما فَعَلَ بالاثنين, وكِلاهُما يُريد منها الوصل, فهما لا يتحمَّلان الصبر, مثلما تَحَمَّلَهُ ابن السرّاج وابن الحنّاط.

وقد سارَ الشعراء عند بني زيري على النمط نفسه, فهذا الشاعر الأخفش بن ميمون القبذاق, فهو متيَّم في حُبّ من يهواه, ولكن المحبوب لا يعلم بذلك, فالشاعر يتألم ويتلوَّع على لقياه, ويشكو للمتلقّي من خيال المحبوب الذي لا يفارقه أينما حَلَّ ورَحَل, من نحو ما قال: [الرجز]

أهـــوَى الـــذي تيَّمَنـــي حُبُّـــهُ ... ومـــا دَرَى أَنِّـــي أهـــواهُ
أكـــادُ أفنَـــى مِـــنْ غـــرامٍ بِـــهِ ... لا سِـــيَّمَا ســـاعةَ ألقـــاهُ
والله مـــا يَـــذْكُرُني ســـاعَةٌ ... ولا حَـــقِّ اللهِ أَنْســـاهُ[١]

ويصف المنفتل وشاح المحبوبة, فيُشبّههُ بالثريّا, وسوارها كالهِلال, فهو قد سُحِرَ بجفونها التي فيها مِنَ السِّحر ما يفوق السحر الموجود في أرضِ بابل, من نحو ما قال: [الطويل]

كـأنَّ الثريّـا مـا بَـدَا مِـن وِشـاحها
وقـد هَمَّـتِ الأردافُ أنْ تُسـلِمَ الخَصـرا
يُـذكّرني شـكل الهـلالِ سـوارها
وقـد أرسـلت مـن دون هودجهـا سِـترا
يقولـون إنَّ السِّـحرَ فـي أرضِ بابـلٍ
ولـو عـايَنوا أجفانهـا نَظَـروا السِّـحرا

---

(٢) المُغرب في حُلى المغرب, ج٢: ١٨٢.

يُريــكَ طلــوعَ البــدرِ طُــرُقَ شــعاعها

وتفجـأ مِـنْ إيضـاحِ غُرّتهـا الشـعرى[١]

لا تختلف الأشعار السابقة التي قيلت في الغزل عند شعراء بني حمّود, عن هذه الأشعار, ونستطيع أنْ نُطلق عليها بـ(الأشعار العفيفة المهذّبة), والشعراء فيها قد عكسوا أفكار مجتمعهم وموقفهم من المرأة[٢].

ومما جاء في هذا الباب على لسان عبد الرحيم بن عبد الرزاق, أحد وزراء الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في الأندلس[٣], قوله:

صَــــبَّ علـــــى قلبـــــي هـــــوى لاعِـــــجُ

ودَبَّ فـــــي جســـــمي ضـــــنى دارجُ

فـــــي شـــــادنٍ أحـــــورَ مســـــتأنس

لســـــانُ تَـــــذْكاري بـــــه لاهِـــــجُ

مـــــا قـــــدرُ نَعْمـــــان إذا مـــــا مشـــــى

ومـــــا عســـــى تَبْلُغُـــــهُ عـــــالِجُ[٤]

فقد صرّح الوزير بحبّه لهذه الفتاة التي شاهَدها في أحد الأماكن, وقد حرّكتْ في قلبه لوعة الشوق, وكأنه قد وجد ضالّته التي كان يبحث عنها منذ زمن, فقد طار

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥٨١.

(٢) ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف (ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية), هنري بيرس: ٣٧١.

(٣) ينظر: المغرب في حلى المغرب, ج٢: ١١٥.

(١) المُغرب في حُلى المغرب, ج٢: ١١٥.

لبّهُ, وفقدَ عقله, فما تراه إلّا يلهج بذكرها, ويتمنى وصالها, وقد أعجب بن بسام بهذه الأبيات أيما إعجاب(١).

ومن الجدير بالذكر أنَّ هناكَ أشعاراً قيلت في الغَزَل, فيها ما يَخرج عَمّا ذكرناه آنفاً, ولكنها لا تشكّل ظاهرة, ومن الأمثلة على ذلك قصيدة للشاعرة (حمدة الوادي آشية), فالسامع لأبياتها يلحظ وكأنَّ الشاعرة تتغزّل فيها بامرأة, وهذا الأمر قد يكون شيئاً جديداً في الأندلس, وفي هذه المدّة بشكل خاص, على الرغم من أنَّ السيوطي عندما يذكر حمدة ينقل عن تحفة القادم قوله فيها: "إحدى المتأدبات المتصرِّفات المتغزّلات المتعففات"(٢), ولكن القارئ للأبيات يلحظ أنَّ فيها شيئاً من الشذوذ بينهن, إذ قالت فيها:

أبـــاحَ الــــدهرُ أســـــراري بِـــوادٍ
بِـــهِ للحُسْــــنِ آثـــارٌ بَـــوَادي(٣)

فمـــــن وادٍ يطـــــوفُ بكُـــــلِّ رَوْضٍ
ومــــن رَوْضٍ يطـــوفُ بكُـــلِّ وادِ

ومِـــنْ بـــين الظِبــاءِ مَهــاةُ أُنْــسٍ
لَهـــا لُبِّـــي وقَـــدْ سَـــلَبَتْ فـــؤادي

لهــــا لَحْــــظٌ تُرَقِّــــدَهُ لأمْـــــرٍ
وذاكَ الأمــــرُ يمنعنـــــي رُقـــادي

إذا ســـــدَلَتْ ذوائبتهـــــا عَلَيْهَــــا
رأيـــتُ البَــدرِ فـــي أُفُـــثِ السَّـــوادِ

---

(٢) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ٢٠١.

(٣) نزهة الجلساء في أخبار النساء: ٩٣.

(٤) نسبةً إلى وادي آش, وهي مدينة الآشات بالأندلس, تُعرف بوادي آش, تتماز بطبيعتها الأخّاذة, ومناخها المعتدل. ينظر: معجم البلدان, ج١: ١٩٨.

كــأنَّ الصــبحَ مــاتَ لـــه شـــقيقٌ
فمـــن حـــزن تســـربلَ بالحِـــداد[1]

وثمّة أبيات لنزهون الغرناطية, تصف فيها ليلة قَضَتْها مع حبيبها, فهي في نَظَرِها من أحسن الليالي؛ فقد غابَتْ أعيُن الرقباء عنها؛ ولهذا فهي فَعَلَتْ فيها على ما يبدو ما يُخدش الحياء, إذ تقول: [البسيط]

لله درّ الليــــالي مــــا أُحَيْســــنِها
ومــا أُحَيْسِـــن عنهـــا ليلـــة الأحـــدِ
لَــوْ كُنْــتَ حاضــرَنا فيهــا وقــد غَفَلَــتْ
عَــيْنُ الرَّقيــبِ فَلَــمْ تَنْظُــرْ إلــى أَحَــدِ
أبْصَرَتْ شمسَ الضُّحَى في ساعِدي قمرٍ
بـل ريـمٍ خازمـةٍ فـي سـاعِدي أسـدِ[2]

أشعارُ حمدونة ونزهون فيهما من الغرابة ما يُثير الانتباه, ولكن هذا الأمر مثلما قلنا آنفاً, لا يشكّل ظاهرة كبيرة في الأندلس, وبخاصة على عهد بني حمّود وبني زيري, فقد يكون الاتجاه المحافِظ والمهذَّب الذي مثّلهُ الشعراء الذي تَمَثَّلْنا بأشعارهم قبل الحديث عن حمدة الوادي آشية ونزهون, قد أدّى إلى نشوء مثل هذا الاتجاه.

---

[1] نزهة الجلساء في أخبار النساء: ٩٤-٩٥.
[2] نفح الطيب, ج٤: ٢٩٨.

الفصل الثالث

الموضوعات الشِعرية المطوَّرة

مدخل:

ازدهر الشعر في ظل دولتي بني حمود وبني زيري في الأندلس, وكان شعرهم صورة صادقة للواقع الذي عاش الشعراء في ظلّه, فتأثروا بالسياسة, فضلاً عن العلاقات الاجتماعية التي كانت تسود المجتمع يومذاك, وتبعاً لذلك فقد تعددت موضوعات الشعر التي نظم فيها الشعراء, فازدهر موضوع الزهد, والإخوانيات, والاستعطاف, ورثاء المدن, فضلاً عن وصف الطبيعة التي استولت على أذهان وأحاسيس الشعراء, وعبّروا عنها في أشعارهم.

وسنسلّط الضوء في هذا الفصل على الموضوعات الشعرية المطوّرة في مباحث خمسة:

المبحث الأول: الزهد.

المبحث الثاني: وصف الطبيعة.

المبحث الثالث: الإخوانيات.

المبحث الرابع: الاستعطاف.

المبحث الخامس: رثاء المدن.

المبحث الأول

الزهـد

عَرَفَ الشاعر الأندلسي موضوع الزهد في جملة الموضوعات الشعرية, وكان شعر الزهد يتردد على ألسنة بعض الشعراء بشكل تلقائي, ولا يَخرج عن إطار التقدم في السن, ووجوه واقع الحياة المختلفة[١].

وقد دَعَتْ فوضى الحياة السياسية التي عاشتها الأندلس في ظل عصر الطوائف إلى ازدهار هذا اللون الشعري[٢].

والقارئ لأشعار الزهد التي قيلت في هذه الحقبة, يلحظ أنها تنقسم على قسمين: الأول: زهد ظاهري لا ينبع عن عقيدة؛ جاء نتيجة الظروف والأوضاع التي عاشها الشاعر في ظل الأوضاع السياسية, وقد مثّل هذا اللون السميسر[٣], وأغلب أشعاره التي قالها في هذا الباب لا تخرج عن هذا الإطار, فمن جملة ما قاله: [السريع]

لله فـــي الـــدنيا وفـــي أهلِهـــا
مُعمّيـــــاتٌ قـــــد فككناهـــــا
مـــن بشـــرٍ نحـــنُ فمـــن طَبعنـــا
نُحـــبُّ فيهـــا المـــالَ والجاهـــا

---

(١) كان الشعر قبل عصر الطوائف أشبه بالشعر التعليمي, فهو يصدر عن دواعي تقدّم الإنسان في السن, وكان ابن أبي زمنين وهو من رجال القرن الرابع الهجري أحد الذين طرقوا هذا اللون. ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ١٣٠, وفي الأدب الأندلسي: ٨١.

(٢) ينظر: في الأدب الأندلسي: ٨١, وقد قسّم الدكتور محمد رضوان الداية في كتابه في الأدب الأندلسي: ٨٠-٨٣ الزهد على ثلاثة أقسام: زهد باللسان دون الاعتقاد به, وزهد فيه طغيان الفلسفة على التقوى, وأخيراً زهد صادر عن قناعة وإيمان.

(٣) ينظر: (م. ن): ٨١.

دعنـــي مـــن النـــاس ومـــن قـــولِهِمْ
فإنمــــــا النّاســــــكُ خلّاهـــــــا
لـــم تُقبـــل الـــدنيا علـــى ناســـكٍ
إلّا وبالرَّحــــــــب تلقّاهــــــــــا
وإنمـــا يُعـــرض عـــن وصـــلِها
مـــن صَـــرَفَتْ عنـــه مُحيّاهـــا[١]

المعادلة مقلوبة عند السميسر؛ فمن المعروف أنّ المؤمن يُعرض عن الدنيا, ويصرف عنها الأنظار, ولكن الشاعر يفهم عكس هذا, وهو رأي نابع من نظرته المغلوطة للواقع الذي يعيشه, وراحت تنعكس هذه الأفكار على أغلب أشعاره التي قالها في هذا الباب, وهذا ما يؤكده الدكتور إحسان عباس, فقد جاء ذلك في سياق حديثه عن هذا النوع من الزهد الذي يمثّله السميسر, قائلاً: "وانتحاه بعضهم لشعوره بالنقمة على حظّه من الدنيا وثورته على الناس من حوله, ويُعد السميسر ....., من هذا الصنف الأخير, فقد كان منحرفاً في ميوله في هجاء الناس"[٢].

ولعلَّ السميسر كان يحسّ بالغبن في الدنيا, ولم ينل المنزلة الرفيعة التي كان يحلم بها؛ ولهذا اتخذ شعره الزهدي وسيلة للثورة على المجتمع[٣], فالدنيا في نظرِهِ لا قيمة لها, والدهر لم يَجُدْ عليه بما يستحق؛ ولهذا فصورة الحياة في نظرِهِ مشوّهة, مثلما قال: [م. الرمل]

جُملـــــةُ الـــــدنيا ذهـــــابُ   مِثْـــلَ مـــا قـــالُوا ســـرابُ
والـــــذي مِنهـــا مُشَـــيَّدْ   فَخَـــــــرابٌ ويَبَـــــــابُ

---

(١) السميسر, حياته وشعره (بحث): ١١٧.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ١٣٠.
(٣) ينظر: في الأدب الأندلسي: ٧٤.

وأرى الـــــــدَّهرَ بَخـــــــيلاً أَبَـــــداً فيــــه اضـــــطرابُ
ســـــالِبٌ مـــا هـــو مُعـــطٍ فالـــذي يُعطـــي عـــذابُ[١]

ولكنه يستسلم للواقع, ويجنح للقناعة, وكأنه "أرادَ أن يبعث في نفسه الثائرة القلقة, شيئاً من الاطمئنان والهدوء, وأنْ يستمد منها القناعة والرضا, قناعة المضطر لا قناعة الزاهد"[٢], فمن جملة ما قال: [المجتث]

دعْ عنـــكَ جاهـــاً ومـــالاً لا عـــــيش إلّا الكفـــافُ
قـــوتٌ حـــلالٌ وأمـــنُ مـــن الـــردى وعِفـــافُ
وكـــل مـــا هـــو فضـــلٌ فإنــــــه إســــــرافُ[٣]

وشخصية الشاعر تتأثر بصورة مباشرة بالواقع الذي تعيشه "فهو شخصية حية في فترة زمنية معينة, ومكان معين, وبيئة اجتماعية معينة, فهو فرد ولكنه في الوقت نفسه عضو في المجتمع, ولا بد للشاعر من أن يلعب دوره في مجتمعه, وقد يكون الشاعر متعاطفاً مع بيئته الاجتماعية أو ثائراً ضدها, وقد يذهب إلى حد إنكارها, ولكن تأثيرها سيظل منطبعاً على شِعرِه"[٤], والسميسر من الشعراء الذين ثاروا على الواقع وأنكروه, ومن ذلك قوله: [م. الخفيف]

لا تغُرنَّـــــــك الحيــــــاة فَمَوْجُودُهــــــا عَـــــــدَمْ
لـــيس فـــي البـــرق متعـــةٌ لأمـــرئٍ يخـــبط الظلـــمْ[٥]

---

(١) السميسر, حياته وشعره (بحث): ١١٨.
(٢) م. ن: ١١٨.
(٣) م. ن: ١١٩.
(٤) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه, إليزابيث درو: ١٨٩.
(١) السميسر, حياته وشعره (بحث): ١١٩.

وهو لا يكتفي بهذا القدر من الإنكار والحزن, وإنما يذهب إلى الشك الممزوج بمسحة فلسفية[١], وتصل به الدرجة إلى الشك في عدالة الله (جَلَّ وعَلا) الذي لا يظلم مثقال ذره, فيقول: [السريع]

هــذا علــى مــذهبنا ثُــمَّ قــد ... قيلـــت مقـــالات ولا أدري
لقـد نشـبنا فـي الحيـاة التـي ... تُوردنـــا فـــي ظُلمـــةِ القبـــرِ
يـــا ليتنـــا لـــم نـــكُ مـــن آدمٍ ... أورَدَنـــا فـــي شـــبهِ الأســـرِ
إن كـــان قـــد أخرجـــه ذنبـــه ... فمـا لنـا نُشـرَكُ فـي الأمـرِ[٢]

وقد علّق ابن بسام على هذه الأبيات, قائلاً: "والسميسر في هذا الكلام ممن أخذ الغلوَّ بالتقليد, ونادى الحكمة من مكانٍ بعيد, صرَّح عن عمى بصيرته, ونشْرُ مطويَّ سريرته ..."[٣].

يستنكر ابن بسام قول السميسر, ويصفه بأنه أعمى البصر والبصيرة, وهو في أبياته المذكورة آنفاً, قد صرّح عن عقيدته, وأباح عّما في صدره من أسرار تتعلق بمدى صبره على الشدائد, فلو كان من المؤمنين الأتقياء لترَفَّع عن ذكر مثل هكذا أشعار, وهذا الأمر يؤيد ما يذهب إليه الباحث بأنَّ أشعاره التي قالها في هذا الباب لا تخرج عن كونها زهداً ظاهرياً, لا ينبع عن عقيدة.

والقسم الثاني: زهد حقيقي, نابع من إيمان صادق بواقع الحياة الدُنيا, وقد مثّل أبو إسحاق الإلبيري هذا النوع, فقد "أتيحت له ملكة شعرية خصبة, فاستغلّها في نظم أشعار زهدية كثيرة"[٤], وزهد الإلبيري كان "في المتع والمناصب, وأغراض الدنيا

---

[٢] ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ١٢٤.

[٣] السميسر, حياته وشعره (بحث): ١٢٠.

[٤] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٧٤.

[١] تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات في الأندلس): ٤٥٤.

جميعاً"[١], فهو يحذّر الناس من الدنيا, ويذكرهم بحقيقتها, ويوقظ اذهانهم قبل فوات الأوان, فيقول: [الوافر]

تفــــتُّ فــــؤادك الأيــــام فَتَّــــا
وتَنْحِــتُ جســمك السّــاعاتُ نحتــا
وتَــدْعوك المَنــونُ دُعــاء صِــدْقٍ
أَلَا يــا صــاح: أنــتَ أُريــدُ, أنتــا
أراك تُحِـــبُّ عِرْســـاً ذات غـــدرٍ
أبـــت طُلّاقهـــا الأكيـــاس بَتَّـــا
تنـــام الـــدَّهر ويحـــك فـــي غطـــيطٍ
بهـــا حتـــى إذا مِـــتَّ انتبهتـــا
فكـــم ذا أنـــت مَخـــدوعٌ وحتّـــى
متـــى لا ترعـــوي عنهـــا وحَتّـــى[٢]

حَذّرَ الشاعر مجتمعه من الدنيا وغرورها "فالدنيا عروس غادرة, والعاقل يفصل نفسه عنها دون رجعة, وويح الإنسان ينام ويستغرق في نومه, حتى إذا وافاه الموت انتبهَ بعد انخداعه"[٣], ولكي لا تفوت الفرصة على الناس, وجدَ الشاعر من واجبه تجاه مجتمعه الوعظ والإرشاد, على النقيض مما سمعناه من السميسر, فقد كانت أكثر أشعاره التي قالها في هذا اللون لا تخرج عن إطار الحقد واللوعة على المجتمع الذي كان يعيش فيه.

---

(٢) في الأدب الأندلسي: ٨٥.
(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٢٥.
(٤) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات في الأندلس): ٤٥٤.

إذا كان الشاعر في الأبيات المذكورة آنفاً, قد حذّر الناس من الدنيا وغرورها, فهو في قصيدة أخرى يعقد خطاباً بينه وبين الدنيا, وكأنها تناديه وتتحبب إليه, ولكنه صُلْب الإيمان, يرفض دعوتها, فيقول: [الكامل]

نـادتْ بـي الـدُّنيا فقلْتُ لهـا: اقصِري
مــا عُــدَّ فــي الأكيــاسِ مَــنْ لَبّــاكِ
وَلَمـــا صَـــفا عِنْـــدَ الإلـــه ولا دَنَـــا
منـــــهُ اِمـــــرُؤٌ صـــــافاكِ أو دانـــــاكِ
مــا زِلْــتِ خــادِعتي ببــرقٍ خُلــبٍ
ولــو اهتــديتُ لمــا انْخــدعتُ لِــذاكِ
قالــتْ أغَــرَّكَ مِــن جناحِــك طولُــهُ
وكــأَنْ بــه قــد قُــصَّ فــي أشــراكي
تــالله مــا فــي الأرض موضِــعُ راحــةٍ
إلّا وقـــد نُصـــبت عليـــه شـــباكي
طِـرْ كيـف شِـئتَ فأنـتَ فيهـا واقـعٌ
عـــانٍ بهـــا لا يُرتجـــى لِفِكـــاكِ(١)

وكأنَّ الدنيا تتحدى الشاعر, وتريد خداعه حتى يقع في شباكها, لكنه يرفض رفضاً قاطعاً, ويقول:

أنـــتِ السَّـــرابُ وأنـــتِ داءٌ كـــامِنٌ
بـــين الضـــلوع فمـــا أعـــزَّ دواكِ
يُعصـــى الإلـــه إذا أُطِعـــتِ وطـــاعتي
لله رَبّـــــي إنْ أشُـــــقَّ عصـــــاكِ(١)

---

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٣٦.

يُعرّف الشاعر حقيقة الدنيا, فهو "باعتباره يمثّل واحداً من البشر, ولكنه المنتبه اليقظ بينهم, أو هو الطير النابه بين الطيور الأخرى التائهة أو الضالة, حيث تمثّل البشر بالطيور, والدنيا تمثّل شركاً كبيراً, وقد نُصب ليصطاد الطير الهائم, أو لنقل الإنسان التائه, أو الضال عنهم, وهذا الشرك بحيرة من السراب تجتذب إليها الطيور من البشر, وتتحايل عليهم ليقعوا فيها, وقد عزّهم طول أجنحتهم أو قوّتهم على الطيران..."[٢].

بَرَعَ أبو إسحاق الإلبيري في موضوع الزهد, واستطاع بمقدرته الأدبية وإيمانه الصادق للوصول إلى القمة بهذا اللون الشعري[٣], وقد لاقت قصائده إعجاباً من الناس, "فعندما نقرؤها أو نسمعها, نُحسّ بأنه كان في حالة انجذاب صوفي نحو الله عز وجل, ويذكر اسمه تعالى في نهاية كل بيت"[٤], ومن الأمثلة على ذلك قصيدته التي بناها على لفظة الجلالة (الله), وقد جاءت على نحوٍ من التسبيحة[٥], وقد بلغ عدد أبياتها ثلاثة وخمسين, قال فيها: [السريع]

يا أَيُّها المُغْتَرُّ بالله — فِرَّ مِنَ اللهِ إلى اللهِ
ولُذْ به واسألْهُ مِنْ فَضْله — فقد نجا مَنْ لاذَ باللهِ
وقُمْ لَهُ واللَّيلُ في جُنْحِهِ — فَحَبَّذا من قام للهِ
واتلُ من الوَحيِ ولو آيةً — تُكسى بها نوراً من اللهِ

---

[١] ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٣٧.

[٢] القصص القرآني في الشعر الأندلسي: ٤٠.

[٣] ينظر: الأدب الأندلسي (من الفتح حتى سقوط غرناطة): ١٢٠.

[٤] البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (عصر ملوك الطوائف): ٥٠٨ وما بعدها.

[٥] ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ١٣٧.

وَعَفِّـرِ الوَجـهَ لَـهُ سـاجداً   فَعَـزَّ وَجـهٌ ذَلَّ للهِ[1]

يدعو أبو إسحاق إلى التوجّه إلى الباري -جَلَّ وعَلا- وترك المعاصي, ويدعوهم أيضاً إلى قراءة كتاب الله, والأخذ بحلاله, وترك ما حُرّم به, فعندما يطبّق الفرد هذه الأمور التي قال بها الشاعر, يُصبح في أمان وسكينة وعِز, فعلاقة العبد الصادق مع رَبّه تجعله يستقل عن الآخرين في كل شيء, ومن ثم ينال الفوز في الدنيا والآخرة.

وفي قصيدةٍ أخرى وقد بناها الشاعر على لفظة (النار), "يقرع في نفوس الغارقين في ذنوبهم, السارين وراء شهواتهم, ناقوس (النار), التي تغلي بأصحابها, فيصوّرهم مستغيثين, معترفين نادمين"[2], فيقول: [السريع]

وَيْـلٌ لأهـلِ النّـار فـي النّـارِ   مـاذا يُقاسـونَ مِـنَ النّـارِ
تتّقِـدُ مـن غـيظٍ فتَغْلـي بهـم   كَمَرجـلٍ يَغْلـي علـى النّـارِ
فيسـتغيثون لكـي يُعتَبـوا   أَلَا لَعـاً مِـنْ عَثْـرَةِ النّـارِ
وكُلُّهُـم مُعتـرِفٌ نـادِمٌ   لـو تُقْبَـلُ التوبـةُ فـي النـارِ[3]

فقد صَوَّرَ الشاعر مصير الكفار, وحالهم في النار خالدين فيها, فهم يستغيثون, ويصرخون من العذاب, وقد اعترفوا بذنوبهم, ولكن لا ينفعهم هذا, فقد حذروهم مرات ومرات, وما نفعت بهم تلك المواعظ والدروس.

---

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٦٣.
(٢) الأدب الأندلسي (من الفتح حتى سقوط غرناطة): ١٢٠.
(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٨٥.

كان أبو إسحاق الإلبيري في القصيدتين السابقتين "فنّاناً في مجاله, فكان يخرج على العرف الشعري المألوف في القافية, ويصنع قصائده على نحو التسبيحة, فيبني القصيدة جميعها على قافية واحدة لا يغيّرها"[١].

والقارئ للقصيدتين السابقتين يلحظ أنّهما تسيران "بمستوى فني واحد يخرج فيها على نظام القافية بالتزام لفظَتيْ (النار) و (الله) في كل منهما, وتكرارهما في ضرب كل بيت, ويختار لها بحر السريع بتفعيلاته المتقاربة وأجزائه المتلاحقة, حيث تلهث أنفاسه فيهما, ويلحف في طلبِهِ, فيُلقي الردع في قلوب الغافلين, تارةً بلفظ الجلالة (الله), وأخرى بلفظة النار, فتنهال اللفظتان كالمطارق المتوالية على أذن السامع, ويبقى صداهما لأمدٍ بعيد"[٢].

لم يَدَع الشاعر أسلوباً من أساليب التعبير التي من شأنها تُلقي بظلالها على الغافلين إلّا وذَكَرَها في أشعاره الخاصة بالزهد, فقد أدّى واجبه الديني تجاه مجتمعه, وبعد كل ما ذكرناه من أمثلة عن هذا الشاعر, لا يستطيع أحد إنكار حقيقة إيمانه الصادق بالباري -جَلَّ وعَلا-, فقد كانت أشعاره صورة صادقة عن حقيقة عقيدته بالله, واهتمامه بالفرد المسلم وتوعيته.

وقد كَتَبَ بقية الشعراء الذين عاشوا في كنف الدولتين في موضوع الزهد, ولكن بنسبة ضئيلة جداً إذا ما قيس بشعر الإلبيري, فهذا الشاعر غانم بن الوليد يدعو نفسه والآخرين إلى الانصراف إلى طاعة الله في ما تبقّى من العُمر؛ لكي يرحل الإنسان عن الدنيا وهو متزوّد من العمل الصالح, فيقول: [السريع]

صَرِّفْ بقايا العمر في طاعةٍ ولا يغرّنك كيدُ الغَرور

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ١٣٧.

(٢) الأدب الأندلسي (من الفتح حتى سقوط غرناطة): ١٢٠.

وارحـــل إلـــى الأخـــرى بـــزادٍ   فإنمـــا الـــدنيا مَتـــاعُ الغُـــرور[1]

حَذّرَ الشاعر في الأبيات المذكورة آنفاً, من كيد الدنيا وغرورها, وقد اقتبسَ الشاعر قوله تعالى: ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ))[2], وقد جاء اقتباسه للنص القرآني حُجّةً يُعضّد بها كلامه, ومن ثم ليكون كلامه أكثر تأثيراً على الناس.

إذا كان غانم بن الوليد قد حذّرَ الناس من لدنيا, ودعاهم إلى التزوّد بالعمل الصالح, فعبادة بن ماء السماء يحذّر مجتمعه من الفقهاء الذين يتظاهرون أمام الناس بالتقوى والورع, ولكنهم في الليل يمارسون العبث والمجون, وهي صورة معكوسة[3], لا يمكن أن تكون ضمن التقسيمات التي تحدّثنا عنها في السابق؛ فالفقيه والزاهد ينبغي أن يوافق خُبْرَهُ خَبَرَهُ ولكن الفقيه الذي يحدّثنا عنه عبادة مؤمن في النهار, وماجن في الليل, من نحو ما قال: [الخفيف]

وكـــأن الخيـــري فـــي كتمـــه الطيـــب
فقيـــــه مغـــــرّىً بطـــــول ريــــاءِ
يُظهِـــرُ الزُّهـــدَ بالنهـــار ويُمســـي
فاتكـــاً ليْلَـــهُ مـــع الظرفـــاءِ[4]

استعارَ الشاعرُ ألفاظ الزهد في رسم صورة نبات (الخيري) الذي يرائي فيُظهِر الزهد بالنهار, وفي الليل حيث أجواء اللهو التي تجعل الشاعر ينقاد لها, فيمحو الليل ما فعلَهُ بالنهار.

---

(١) من أعلام الأندلس (أبو محمد غانم بن الوليد القرشي) (بحث): ٧.

(٢) سورة الحديد, الآية: ٢٠.

(٣) ينظر: القصص القرآني في الشعر الأندلسي: ٢٠.

(١) شعر عبادة بن ماء السماء: ٦.

ولم يشكّل شعر الحكمة ظاهرة في ظل دولتي بني حمّود وبني زيري, ولم يعثر الباحث في أثناء دراسته للأشعار التي قيلت في هذا الموضوع إلّا النزر اليسير, وهي لا تخرج عن أن تكون حكمة جافة بعيدة عن العمق الفلسفي[١], فمن أبيات لغانم بن الوليد يحثّ فيها على التحلّي بالصبر, فمن يلزمه ينال ما تَمَنّى, ولو بعد حين, ومن ثم يعيش أيامه على أفضل ما يكون, مثلما قال: [السريع]

الصّـــبرُ أوْلـــى بوقـــار الفتـــى
مـــن قلـــقٍ يهتـــك ســـتر الوقـــار
مـــن لـــزم الصـــبر علـــى حالـــةٍ
كـــان علـــى أيامـــه بالخيـــار[٢]

وقد علّل الدكتور جودت الركابي السبب في ضعف موضوع الحكمة في هذه الحقبة من الدولة, قائلاً: "إنَّ الشعراء الأندلسيين لم ينصرفوا إلى حياة التأمل, لذلك بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق وكذلك الفلسفة, لم تنتشر في تلك الربوع منذ دخول العرب إليها, بل تأخّرَ ظهور الفلاسفة إلى أواخر القرن الخامس"[٣].

ومن الجدير بالذكر إنَّ أبا إسحاق الإلبيري رأس المدرسة الزهدية الأولى في الأندلس, إبان تلك الحقبة, واستطاع التجديد في هذا الموضوع, ومن الأمثلة على ذلك, قوله: [الكامل]

لوكنـــتُ فـــي دينـــي مـــن الأَبْطـــالِ
مـــا كُنْـــتُ بـــالواني ولا البَطّـــالِ

---

[٢] ينظر: في الأدب الأندلسي, د. جودت الركابي: ١١٦.

[٣] من أعلام الأندلس (ابو محمد غانم بن الوليد القرشي) (بحث): ٧.

[١] في الأدب الأندلسي, د. جودت الركابي: ١١٦.

ولبســـتُ منـــه لامـــةً فضفاضـــة

مســـرودةً مـــن صـــالحِ الأَعمـــالِ

لكنّنـــي عَطَّلـــتُ أَقـــواس التُّقَـــى

مـــن نَبْلِهـــا فَرَمَـــتْ بِغَيْـــرِ نِبَـــالِ

ورمـــى العـــدوُّ بســـهمِهِ فأَصـــابَني

إذْ لـــم أُحَصِّـــنْ جُنـــةً لِنِضـــالِ[١]

فقد وظَّفَ من الصور الحربية الجديدة في الأبيات السابقة, وهو أمرٌ يُحسب لأبي إسحاق, وينضوي ضمن التجديد في المعاني الزهدية في الشعر الأندلسي[٢].

وفي أبياتٍ أخرى يستغلّ الصور الجنسية, ويصوّر للمتلقي مدى الصراع القائم ما بين الواجب الديني في قراءة كتاب الله –جَلَّ وعَلا–, وبين المرأة[٣], فيقول:

حســـبي كتـــابُ الله فهـــو تنعُّمـــي

وتأنســـي فـــي وحشـــتي بـــدفاتري

أفـــتَضُّ أبكـــاراً بهـــا يغْسِـــلْنَ مَـــنْ

يَفتضُّـــهُنَّ بكـــلِّ معنـــىً طـــاهرِ[٤]

وخلاصة القول: سارَ شعر الزهد في اتجاهين, الأول: كان زهداً ظاهرياً زرعَتْهُ فوضى المجتمع واضطراباته, فقد كانت هذه الأسباب من أشد الأمور في انتشار مثل هذا اللون عند بعض الشعراء, لِمن يصابون بضربات عنيفة[٥], وقد مثّل

---

[٢] ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٣٩.

[٣] ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ١٣٨.

[٤] م. ن: ١٣٨.

[١] ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٧٥.

[٢] ينظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ٥٠٢

هذا الاتجاه السميسر, والثاني: كان زهداً حقيقياً نابعاً من عقيدة صادقة, مع الاهتمام بمشاكل المجتمع وتقديم الحلول المناسبة عبر الأشعار الدينية والاجتماعية, وقد مثّلَ هذا الاتجاه أبو إسحاق الإلبيري.

المبحث الثاني

وصف الطبيعة

سيطرَ جمال الطبيعة الأندلسية على أخيلة الشعراء, وتملّك عقولهم[١], فجمال الطبيعة الأخاذ "مصدر إلهام للشعراء يستمدون منه صورهم, ويثرون مخيلاتهم بتلك المناظر التي تراها أعينهم"[٢], وقد وصل شعر الطبيعة في الأندلس في عصر الطوائف إلى الذروة, فقد انمازت هذه المدة الزمنية من عُمر الدولة الأندلسية بالترف الفكري والأدبي, وأخذت شخصية الشاعر الثقافية والأدبية تفرض وجودها على الساحة الشعرية[٣].

ومن القضايا التجديدية في شعر الطبيعة, هي الجمع بين الوصف المادي والوجداني؛ فعلى الرغم من جمال الطبيعة الأخاذ الذي أخذ بلبّ الشعراء, لكن الشاعر ما استطاع التخلص من أسر المحبوبة[٤], فهذا الشاعر ابن السرّاج المالقي يصف لنا موضعاً جميلاً مَرَّ به هو وصاحبه, ويشبّه صوت الماء هناك بصوت دموعه عندما يلاقي محبوبته المُسمّاة (أزهر)[٥], من نحو ما قال: [الطويل]

شـــربنا علـــى مـــاءٍ كـــأنَّ خريـــره

خريـــرُ دمـــوعي عنـــد رؤيـــة أزهـــر

---

(١) ينظر: التجديد في الأدب الأندلسي, د. جودت الركابي: ٣٦.

(٢) حركة الشعر في مصر الفاطمية: ٤٢.

(٣) ينظر: الأدب الأندلسي (موضوعاتُه وفنونه), مصطفى الشكعة: ٢٥٥.

(٤) ينظر: التجديد في الأدب الأندلسي: ٣٦.

(٥) الموضع قال فيه ابن بسام: (يُحار فيه الطرف, ويقصر عنه الوصف), وشبَّهَ لنا الشاعر في أبيات أخرى طعم الماء الذي شرِبَ منه, بطعم الخمرة التي تُذهب بلُبّ من يتعاطاها, من نحو ما قال:

عليـــــك ســـــلام الله يـــــا مـــــاءَ موضـــــعٍ

شـــــربنا عليـــــه مثلـــــه قهـــــوةً خمـــــرا

وروّى التـــــي مـــــن حُســـــنها وجفونهـــــا

ســـــقتني ســـــحراً خمـــــرةً تُســـــكِرُ الســـــحرا

ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٠ وما بعدها.

حلفــت بعينيهــا لقــد ســفكتي دمــي

بـــأطرافٍ فتـــانٍ وألحـــاظٍ جـــؤذرِ[١]

فقد تبيّن لنا من البيتين السابقين من أنَّ "الطبيعة والشاعر إلفان لا يفترقان, والحب يدعم هذه المشاركة"[٢], فقد تذكّر الشاعر في هذا المكان حبيبته, فالطبيعة والمكان أعانا الشاعر على التعبير عما يختلج في نفسه من مشاعر[٣].

وإذا كان ابن السرّاج المالقي قد فُتِنَ بهذا الموضع, فإنَّ شاعرة مثل حمدة الوادي آشية قد سَحَرَها (وادي آش), واستولى على قلبها, فقالت في وصفه شعراً جميلاً ينم عن موهبة أدبية فطرية, وخيال أخّاذ: [الوافر]

أبـــاح الـــدمعُ أســـراري بِـــوادي

بـــه للحُسْـــن آثـــارٌ بَـــوادي

فَمِـــن نَهْـــرٍ يطـــوف بكـــلِّ روضٍ

ومِـــن رَوْض يطـــوفُ بكـــل وادي

ومـــن بـــين الظّبـــاء مهـــاةُ إنـــس

سَـبَتْ عَقلِـي وقَـدْ مَلَكَـتْ فـؤادي

لهـــا لَحْـــظٌ تُرَقِّـــدُهُ لأمْـــرٍ

وَذَاكَ الأَمْـــرُ يَمْنَعنـــي رقـــادي

إذا سَـــدَلَتْ ذوائبهـــا عليهـــا

كَمِثْـلِ البَـدْرِ فـي الظّلَـمِ الـدّآدِي

تَخـــالُ الصُـــبْحَ مـــاتَ لَـــهُ خليـــلٌ

---

[١] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٠.

[٢] الطبيعة في الشعر الأندلسي, د. جودت الركابي: ٣٦.

[٣] يُنظر: م. ن: ٣٦.

فَمِـــنْ حُـــزْنٍ تَسَــرْبَلَ بِالحِــدادِ[١]

وتصف لنا حمدة في أبيات أخرى جمال هذا الوادي, فقد وقاهم هي ومن معها من النساء شدّة الحر, وهو فضلاً عن صدّه لحرارة الشمس, قد أطفأ حرارة الظمأ بماءٍ زلال, يُشبه الماء الذي سُقِيَ منه ابن السراج المالقي في أبياته السالفة, من نحو ما قالت: [الوافر]

وَقَانَـــــا لفحـــــة الرَّمضــــاء وادٍ
وقـــاهُ مُضـــاعَفُ الغيـــث العمـــيمِ
نَزَلْنـــا دوحَـــــهُ فَحَنـــا علينـــا
حُنُـــوَّ المُرضـــعاتِ علـــى الفطـــيمِ
وأمْتَعَنَــــــا علـــــى ظمـــــأٍ زُلالاً
ألَـــــذُّ مـــــنَ المُدامَـــــةِ للنَّـــــديمِ
يَصُـــدُّ الشـــمسَ انّـــى واجَهَتْنـــا
فَيَحجُبُهـــــا وَيَـــــأذَنُ للنَّســـــيمِ
يَـــرُوعُ حَصـــاهُ حَالِيَـــة العَـــذَارى
فَـــتَلْمُسُ جَانِـــبَ العِقْـــدِ النَّظِـــيمِ[٢]

رسمتْ حمدة في الأبيات السابقة لوحةً جميلةً, فقد وصفَتْ الوادي وصفاً دقيقاً, فكل الأشياء في هذا الوادي لافتةً للانتباه, وتُثير في النفس المشاعر الرقيقة[٣] "فقد شخّصت الوادي وجعلته أمّاً حنوناً, وتخيلت حصاهُ حبّاتٍ من اللؤلؤ, تروعُ

(١) نزهة الجلساء في أخبار النساء: ٩٨-٩٩ وما بعدها.
(٢) م. ن: ٩٧.
(١) يُنظر: في الشعر الأندلسي, د. عدنان صالح مصطفى: ٨٨.

العذارى الحاليات, فتلمس مكان العقود من لباتهن, خشيةً أن تكون عقودهن قد انفرطَ نظمها, واختلطت بحصى الوادي"[1].

وقد أكثرَ الشاعر الأندلسي في ظل دولَتيْ بني حمّود وبني زيري من وصف الحيوان, فهذا ابن شُهَيد الأندلسي يصف لنا الذئبَ, في قصيدةٍ, قال فيها: [الطويل]

إذا اجتــاز عُلــوِيُّ الرّيــاحِ بأفْقِــهِ
أَجَـــدَّ لِعرفـــانِ الظُّبـــا يتـــنفسُ
تَـــذَكَّرَ رَوْضـــاً مـــن شَـــوِيٍّ وبـــاقِرٍ
تَوَلَّتْــهُ أحــراسٌ مــن الــذعرِ تُحــرَسُ
إذا انتابهــا مِــنْ أَذْؤبِ القَفْــرِ طــارقٌ
حَثيــثٌ إذا مــا استشــعرَ اللحــظَ يهمــسُ
أزلُّ كســـا جُثمانـــهُ مُتَسَـــتّراً
طيــالسَ سُــوداً للــدُّجى وهــو أطلــسُ
فَــدَلَّ عليـــهِ لَحـــظُ خِـــبٍّ مخـــادعٍ
تــرى نــارَهُ مــن مــاءِ عينيــهِ تُقْــبَسُ[2]

وكأنَّ الشاعرَ قد أُعجِبَ بمظهر هذا الذئب وشكله, وراحَ يعبّر عن هذه المظاهر بما يعكس مشاعره وأحاسيسه, وهي تبيّن لنا براعة الشاعر ودقة ملاحظته, حيث أنَّ كثيراً من أوصاف هذا الذئب قريبة من الواقع الذي يراه الناس فيه[3].

---

(2) الأدب الأندلسي, سامي يوسف أبو زيد: ٢٤٢.

(3) ديوان ابن شهَيد الأندلسي: ١١٩.

(1) ينظر: حركة الشعر في مصر الفاطمية: ١٣٤.

وقد وصفَ إدريس بن اليمان الخيل, فمن بيتين له, وصفَ سرعة الخيل, وشبّهَ سرعتها بسرعة الرياح التي تزعزِع الأشجار وتحرّكها, حتى تكاد تقلعها, من نحو ما قال: [الكامل]

خيــلٌ يميــد الــدهر عنــد هبوبهــا
مَيْــدَ القضــيب بعاصــفٍ زعــزاعِ
فكــأنَّ خطفــاً مــن نتــائح أعــوج
تَــنْفَضُّ مــن فرســانها بســباعِ[1]

ووصفَ أبو إسحاق الإلبيري الحمَام, إذ شَكّلَ الحمام "عنصراً من عناصر الطبيعة, حيث يجعل من الأغصان مواطن شَدوه يغنّي عليها أعذب الألحان بصوتٍ حزين"[2], وأبو إسحاق يقارن بين بكاء الحمامة وبين بكائِه, تبكي الحمامة على مؤنسٍ, وقد أطالت عليه البكاء, لكن أبي إسحاق يبكي على ذنوبه, ويسأل الباري جُلّ وعَلا, الرحمة والمغفرة, فيقول: [الكامل]

أحمامـــةُ البَيْـــدا أطلـــتِ بُكـــاكِ
فبحُســـنِ صَــوتِكِ مــا الَّــذي أبكــاكِ
إنْ كــان حقــاً مــا ظننــتُ فــإنَّ بــي
فــوق الــذي بِــكِ مِــنْ شــديدِ جــواكِ
إنّـــي أظنّـــكِ قـــد دُهيـــتِ بفُرقـــةٍ
مِــنْ مــؤنسٍ لــكِ فارتمضــتِ لِــذاكِ
لكــنَّ مــا أشــكوهُ مــن فَــرطِ الجَــوى
بخـــلاف مـــا تَجِـــدين مـــن شَـــكواكِ

---

[2] شعر إدريس بن اليمان اليابسي الأندلسي (القسم الثاني), (بحث): ٢٦.

[3] الأدب العربي في الأندلس: ٩٩.

أنـــا إنَّمـــا أبكـــي الـــذنوبَ وأَســـرِها

ومُنـــايَ فـــي الشَّـــكوى مَنـــالُ فَكـــاكي

وإذا بكيـــتُ ســـألتُ ربّـــي رحمـــةً

وتجـــاوزاً, فبُكـــايَ غيـــرُ بُكـــاكِ[1]

يسأل الشاعر الحمامة عن سرّ ما يُبكيها, فهي ربما تبكي على مؤنسٍ, ولكن بكاء الشاعر قد فاق على بكاء الحمامة, فقد عبّرَ الشاعر عن أحاسيسه وعمّا يختلج في صدره من القلق الذي ينتابه من هوْل يوم القيامة, فكُثْرة ذنوبه جعَلَتهُ يعيش هذا القلق والاضطراب, ولكنه مؤمن برحمة الباري –جَلَّ وعَلا– التي وسعت كل شيءٍ, ولهذا عندما يقارن بين بكائه وبكاء الحمامة يصرّح لنا بهذا الاختلاف.

وليس وصف المناخ ببعيد عن أخيلة الشعراء, فهذا ابن الحناط الكفيف يصف لنا صوت الرعد, وهطول الأمطار, وشدة الرياح, من رحلة للصيد مع علي بن حمّود, فقال: [الكامل]

فكـــأنَّ صـــوت الرعـــد خلـــفَ ســـحابةٍ

حـــادٍ إذا وَنَـــتِ الســـحائبُ صـــاحَا

مُرتجّـــةُ الأرجـــاءِ يَحـــبسُ ســـيرها

ثقـــلٌ فتعطيـــه الريـــاح ســـراحَا

أضـــفى مســـالكها الظـــلام فأوقـــدت

مِـــنْ برقِهـــا كـــي تهتـــدي مصـــباحَا

جـــادَتْ علـــى التلعـــات فاكتسَـــت الربـــا

(1) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٣٥. وقد وصفَ إدريس بن اليمان الحمام أيضاً, ينظر: شعر إدريس (القسم الثاني): ٢٨.

حُلَــلاً أقــامَ لهــا الربيــع وشــاحَا[١]

وصفَ الشاعرُ نزول المطر, فصوت الرعد الذي اختبأ خلف السحاب المثقلة التي ساعدتها الرياح على هطول الأمطار, وقد تعطّشتْ لها الأرض لتستمرّ الحياة فيها, ويدوم جمال الطبيعة الفاتنة التي أخذت بلُبّ الشعراء, فقد رسمَ الشاعر صورة لنزول المطر, وهي تحكي للمتلقي المراحل التي تمرّ فيها هذه العملية, فجاءت ألفاظه سهلة تعبّر عمّا يختلج في صدره من أحاسيس فيها تشوّق إلى فصل الربيع الذي يُفضَّل على سائر الفصول.

وإذا كان ابن الحناط في الأبيات السابقة قد وصفَ لنا نزول المطر, فهذا الشاعر عبادة بن ماء السماء, يصف لنا شدة البرد في مالقة, فقال: [المنسرح]

يـــا عَبْـــرَةً أُهـــدِيَتْ لمُعتبـــرِ
عشِـــيَّة الأربعـــاء مـــن صَـــفَرِ
أرســـل مـــلء الأكـــف مـــن بـــردٍ
جلامـــداً تنهمـــي علـــى البَشَـــرِ
فيـــا لهـــا آيـــةٌ وموعظـــةٌ
فيهـــا نـــذيرٌ لكـــلِّ مُزدَجَـــرِ[٢]

ويبدو أنَّ شتاء هذه السنة مثلما تحدّث الشاعر هو مختلف تماماً عن السنين الماضية التي عاشها الشاعر؛ فالبرد قارس, والثلوج ملء الأف, ويُخيّل لي إنَّ الشاعر استعانَ بهذه الأبيات والهدف منها هو إيقاظ الأذهان عمّا يفعله الناس في

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٢٢٣-٢٤١.

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٣٦٣, و الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ٢١١.

زمانه من أمور تُغضب الباري – جَلَّ وعَلا–؛ ولهذا فقد عاقَبَ العباد بهذا المناخ الذي فيه آية وموعظة لهم لعلّها تكون عبرة للناس.

وإذا كان عبادة بن ما السماء, قد وصفَ لنا برد مالقة وعَدّهُ آية وموعظة من الخالق –جَلَّ وعَلا– للبشر, فهذا ابن صارة الشنتريني, يصف لنا شدة البرد في غرناطة, فهو يحلّل للآخرين من تلقاء نفسه, ترك الصلاة كي يدخلوا نار جهنم؛ فِراراً من برد غرناطة, إذ يقول: [الطويل]

أُحِـــلَّ لنـــا تـــركُ الصـــلاةِ بأرضــكمُ
وشُــربُ الحُميــا وهــو شــيءٌ مُحــرَّمُ
فِـــراراً إلـــى نـــار الجحـــيم لأنهـــا
أرَقُّ لنـــــا مـــــن شـــــلير وأرحـــــمُ
لَـئِنْ كــان ربّــي مُـدخلي فــي جهـنم
ففــي مثـلِ هـذا اليـوم طابـتْ جهـنمُ[1]

يحلّل الشاعر ويحرّم من نفسه, وهو يعترف للمتلقي بحرمة ما قال (وهو شيءٌ محرّمُ), فنارُ جهنم في نظرِهِ أرحمُ وأرقُّ على الشاعر من برد غرناطة, لكن الذي غابَ عن ذهن الشاعر أنَّ نار جهنم, وجبل (شُلَيْر) كلاهما من صناعة الباري –جَلَّ وعَلا– الذي أتقنَ كل شيء, فالأبيات تُشكّك في عدالة الخالق (والعياذ بالله), لكن قد يريد الشاعر من خلالها تقريب الصورة للمتلقي, ولهذا استعانَ بهذه الألفاظ.

وقد استولت الأزهار على ألباب الشعراء, ووصفوها في أشعارهم[2], فهذا الشاعر إدريس بن اليمان يصف البنفسج, قائلاً: [الكامل]

---

(٢) ابن صارة الأندلسي (حياته وشعره): ٨٦.

(١) ينظر: الأدب العربي في الأندلس (تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه): ٩٢.

فُتِــقَ الثَّــرَى مِــن نــورِهِ بكواكــبِ
دَعِــجُ النــواظرِ والخــدودِ عجائــبِ
طَبَــعَ الربيــعُ علــى بشاشــتهِ بــه
طَبْـعَ الشـبيبة فـوق ثَـدي الكاعـبِ[1]

فشَبَّهَ لونه بلون أطراف الثَّدي, وهو من الاختراعات الجديدة[2], التي تُحسَب للشاعر, فضلاً عن المنظر الجميل لهذا الورد, الذي يبعث السرور في أعين الناظرين.

وإذا كان إدريس بن اليمان قد وصف في البيتين السابقين, منظر البنفسج الجميل, الذي يبعث السرور في أعين الناظرين, فالشاعر ابن صارة الشنتريني يصف لنا حديقة بها نرجس وبهار, وقد انمازت هذه الحديقة عن غيرها من الحدائق بأنها حاملة لواء الحُسن والجمال, من نحو ما قال: [الكامل]

وحديقــة مــن نــرجسٍ وبُهــارِ	رَفَعَـتْ لــواء الحُســن للنظّــارِ
فكأنمــا هــذا ضــحى متهلــل	وكأنمــا هــذا أصــيل نهــارِ
أخوان أُمُّهما معاً شمس الضحى	وأبوهمــا قمــر السمــاء الســاري
شـربا سـلاف القطرِ حتـى عربـدا	وتراجمــا بكواكــبِ الأزهـــارِ
واستودعا خبريهمـا نفس الصبا	فــأذاعَ مــا كَتَمــا مــن الأســرارِ
فبكـى النـدى لهمـا ضَحيّاً والنـدى	مـذ كـان للأزهـارِ أكـرمُ جـارِ[3]

وقد أُعجِبَ الدكتور علي محمد سلامة بهذا الوصف, وعَلّقَ عليه قائلاً: "ما أبدعهُ من وصف, وما أدقّهُ من تصوير, حين جمعَ بين الضحى والأصيل, وهما لا

---

(٢) شعر إدريس بن اليمان اليابسي الأندلسي (القسم الثاني, بحث): ٢٢٨.
(٣) ينظر: البديع في وصف الربيع: ١١٢.
(١) ابن صارة الأندلسي (حياته وشعره): ٣٣.

يجتمعان في الحياة, وما جَمَعَهُما إلّا النرجس الذي صوّرهُ بالضحى, والبهار الذي صوّره بالأصيل, معهما أخويْن أمهما شمس الضحى, وأبوهما قمر السماء, فمنهما استمدّا الحياة والنور, وصارا ينتميانِ لأصلٍ واحدٍ في هذا الوجود, والشمس والقمر قد شربا القطر حتى سَكَرا, فرَجَمَ كل منهما الآخَر بالأزهار, ثم استودعا سرّهما ريح الصبا (السكْر والرجم), وأوصياه بصيانتِهِ وكتمانِهِ, غير أنَّ ريح الصبا خانَ العهد وأذاع السر (الرائحة), فبكى الندى لتلك؛ لأنه أكرم جار يتألم لِما ينزل بجارِهِ من كوارث"[١]. وهذه اللوحة الفنية الرائعة, والصورة الجميلة, فيها من الحياة والحركة ما جعلها تكون صورة جميلة ومبتكرة[٢], مثل صورة إدريس بن اليمان في وصف البنفسج, وهو ما يُحسَب للشاعريْن في ميدان التجديد والابتكار في وصف الطبيعة, في ظل الدولتين.

ومن القضايا الجديدة في هذا الباب –أيضاً– المزج بين وصف الطبيعة مع الأغراض الأخرى كالمديح والغَزَل, فهذا الأديب أبو جعفر اللمائي يمدح أحد خلفاء بني حمّود, ويمزج بين وصف الورد والمديح, قائلاً: [الكامل]

طَلَعَتْ طَوالعُ للرَّبيع فأطلعَتْ ... في الروض ورداً قبل حين أوانه
حَيّا أمير المؤمنين مبشّراً ... ومؤملاً للنَيْلِ مِنْ إحسانه
ضنّت سحائبه عليه بمائها ... فأتاه يستسقيه ماء بنانه
دامت لنا أيّامهُ موصولةً ... بالعِزِّ والتمكين في سلطانه[٣]

---

[٢] الأدب العربي في الأندلس (تطوره – موضوعاته وأشهر أعلامه), د. علي محمد سلامة: ٩٤ وما بعدها.

[٣] ينظر: م. ن: ٩٥.

[١] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٧٦.

مَزَجَ الشاعر في الأبيات السابقة بين وصف الطبيعة وغرض المديح, فقد تفتحت أزهار الربيع, وكان الفضل في ذلك بما أجادَ عليها عطاء الممدوح, لا بفضل السحائب التي بخلت عليها بالماء, وهذا المزج قد يكون بعيد(١), فعطاء الممدوح عادةً يُشبّه بالبحر, وغيرها من الأوصاف المتفق عليها, ولكن هنا قد ابتعد الشاعر بهذا المزج عن الثوابت المتفق عليها عند النقاد في تشبيه الكرم والعطاء عند الممدوح.

وإذا كان أبو جعفر اللمائي قد ابتعد في الأبيات المذكورة آنفاً, عندما مزجَ بين المدح ووصف الطبيعة, فهذا ابن الحناط الكفيف قد أحسنَ وأجادَ(٢) عندما مزج في مدحِهِ لعليّ بن حمّود, بين المديح ووصف الطبيعة, فقال: [الكامل]

راحــت تُــذكّر بالنســيم الرّاحــا	**وَطفــاءُ تكســرُ للجُنــوح جناحــا**
أخفــى مســالِكَها الظــلامُ فأوقــدَتْ	**مــن برقهــا كــي تهتــدي مصــباحا**
وكـأنَّ صـوت الرَّعـدِ خلـف سـحابها	**حــادٍ إذا وَنَــتِ الســحائبُ صــاحا**
جادَتْ على التلعات فاكتستِ الرُّبى	**حُلــلاً أقــامَ لهــا الربيــعُ وشــاحا**
روضٌ يُحــاكي الفــاطميَّ شــمائلاً	**طيبــاً ومــزنٌ قــد حكــاه ســماحا(٣)**

وقد سَلَكَ الشاعر في هذه الأبيات السالفة مسلكاً جديداً, وهو المزج بين المدح ووصف الطبيعة, وربما يكون التنافس بين الشعراء يومذاك قد جعل الشاعر يخترع هذا اللون الجديد لكي يكسب رضا الممدوح, ومن ثم يتحقق هدفه, ويعد هذا اللون من الوصف لوناً من ألوان التجديد في الشعر الأندلسي في هذه المدة من عمر الدولة الحمودية.

---

(٢) ينظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ٨٩.

(٣) ينظر: البديع في وصف الربيع: ٢٢.

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٣٤٤ وما بعدها.

وقد مزَجَ الشاعر في ظل دولة بني حمود بين وصف الطبيعة والغزل, فهذا عبادة بن ماء السماء يصف امرأة جميلة قد عشقت هذه الأماكن الأخاذة, إذ قال:

[الرمل]

ولَعــــوبٍ عَشِـــقَتْ روض الثَّـــرى
فهـــي تأتيــهِ علـــى طــول البُعــدْ
فَيُـــرى الـــروضُ إذا مـــا وَصَـــلَتْ
أرجُ العـــرفِ مـــن الطيـــب الجســـدْ
عَطِـــــراً ملتبســـــاً ملتحفـــــاً
فـــي ســـرابيلٍ مـــن الحُســـنِ جُـــدَدْ
كمُحِـــــبٍّ زار محبوبـــــاً لـــــه
فتحلّـــــــى للقـــــاه واســـــتعدْ
وإذا مـــــا ودَّعـــــتْ أبصـــــرتُها
فـــي نحـــولِ العاشـــقِ الصـــبِّ الكمـــدْ
تلحـــــظ النَّـــــورِ بلحـــــظٍ فـــــاترٍ
مثـــلَ جفـــنٍ حـــائرٍ فيـــه رمـــدْ
وجفـــونُ النَّـــوْرِ تهمـــي بالبكـــا
كجفـــونِ الصـــبِّ مـــن فقـــدِ الجلـــدْ
فهمـــا فـــي حيـــرةٍ عنـــد النـــوى
كمحبّبَـــــيْنِ أَحَسّـــــا بالبُعـــــدِ[١]

قد أخذت الطبيعة مأخذاً كبيراً من هذه الفتاة, مثلما أخذت مأخذها من الشعراء من قبل, وقد شبّه الشاعر زيارتها لهذه الأماكن الجميلة بزيارة المُحب إلى المحبوب,

---

(١) شعر عبادة بن ماء السماء: ٩.

فهي عندما تفارق هذا المكان يصيبها الأذى والنحول, مثلما يصيب العاشق عندما يفارق المحبوب, فالشاعر قد مزجَ في الأبيات السابقة بين الطبيعة والغزل, وقد برع في ذلك الوصف, فجمال الطبيعة الأخاذ ينسجم مع غرض الغزل.

وهكذا امتزجَ شعر الطبيعة بالأغراض الأخرى كالمديح والغَزَل, وهو ما يبيّن لنا ولع الشاعر الأندلسي بالطبيعة الجميلة التي انمازت بها الدولة الأندلسية, وبخاصة في ظل دولتَيْ بني حمّود وبني زيري, وقد سيطرت على أخيلة الشعراء ووظّفوها في بعض الأغراض الأخرى[١].

وخلاصة القول: إنَّ الوصف عند الشعراء الأندلسيين في ظل دولَتَيْ بني حمّود وبني زيري, تغلغلَ في كل جوانب الحياة, والشاعر الأندلسي قد وصفَ بيئته التي عاش وترعرعَ فيها, فقد استولتْ هذه الصور على ذهنِه وأحاسيسه, وعبَّرَ عنها في أشعار[٢].

---

[٢] ينظر: الأدب الأندلسي (سامي يوسف أبو زيد): ٩٢.

[١] ينظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (عصر الطوائف): ١٩٣ وما بعدها.

المبحث الثالث

الإخوانيات

وهو "باب من أبواب الشعر يُقصد به ما كان يدور بين الأصدقاء من الشعراء, تدفعهم إليه الأخوّة الصادقة"[١], وفيها "تظهر عاطفتهم صادقة في عبارات سهلة بعيدة عن المبالغة, والتزلف, والجري وراء الماديات, ورفع الكلفة مع البعد عن الغلو في المجاملات"[٢], وتختلف باختلاف المرتبة المرسل إليها, إذا قيلت في الملوك والوزراء فأسلوبها ينماز بكلمات المحبة والاحترام, وإذا كانت مرسلة إلى الشعراء فيما بينهم, فإنَّ أسلوبها ينماز بالتحرر من القيود الرسمية, والبعد عن التكلف[٣].

ومن جملة علاقات الصداقة التي كانت قائمة بين الشعراء, والملوك, علاقة الشاعر غانم بن الوليد مع باديس بن حبوس (ملك غرناطة), ومما يؤيد ما ذكرناه, بيتان لغانم بن الوليد قالهما عندما دخل في مجلس باديس, وقد وسع الأخير له المكان, فقال غانم بن الوليد على البديهية: [البسيط]

صَـيِّر فـؤادك للمحبـوب منزلـةً   سَـمُّ الخيـاط مجـالٌ للمُحبَّـين

ولا تسـامح بغيضـاً فـي معاشـرةٍ   فقلَّمـا تسـع الـدنيا بَغيضَـين[٤]

تبيَّن لنا من البيتين السابقين مدى العلاقة الحميمة التي كانت تربط الشاعر بباديس حاكم غرناطة, فمنزلة الشاعر كبيرة عند الحاكم, فقد قام بنفسه ووسّع له

---

(١) الشعر في ظل سيف الدولة, د. درويش الجندي: ٢٥٠.

(٢) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ٤٨٤.

(٣) ينظر: القصص القرآني في الشعر الأندلسي, د. أحمد حاجم الربيعي: ٢١٢.

(٤) بدائع البدائة: ٣٦٦.

المجلس الذي كان مكتظاً بالعلماء والأدباء, وعبّر الشاعر عن هذا المشهد في هذين البيتين, وقد تعرّفنا فيهما حجم الصداقة, وكانت عبارتهما تنمّ عن إخلاصٍ ووفاءٍ من الشاعر "وعاطفة الأندلسي قوية نحو الأخوة, يبحث عنها متشوقاً إليها, فإذا وجدها الشاعر في أميره, أخلصَ له ووهبهُ حبّهُ وفنّهُ"(١), وقد احتوت كلماتهما على عبارات الود والاحترام(٢)؛ لأنها مثلما ذكرنا آنفاً تختلف باختلاف المرسل إليه(٣).

وقد انعقدت صداقات مع الشعراء في ظل دولَتَيْ بني حمّود وبني زيري, وهو ما يعكس لنا مدى الحرية التي كان يعيشها الشاعر في ذلك الزمان, ومن جملة الصداقات, علاقة الشاعر ابن السراج المالقي مع أبي الحسن بن الغليظ الشاعر(٤), فقد كتبَ الأخير إلى ابن السرّاج يدعوه إلى مجلس شراب, قائلاً: [الخفيف]

يــــا خلـــيلاً صَـــفَا وكَـــدَّرَ يَـــوْمي

هـل إلـى الطِيـبِ فـي غـدٍ مـن سـبيلِ؟

لـــو تراني أُســـارِقُ اللحـــظَ خِلّـــي

وأُسَـــقَّى مـــن ريقِـــه المعســـولِ

لتمنيـــتَ أن تـــرى حُسُـــنَ الـــور

---

(١) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ٤٨٤.

(٢) ويبدو أنَّ هذه الحادثة كانت شبيهة لِما حصل مع الخليل بن أحمد الفراهيدي, فقد دخل الأخير على بعض أصدقائه "وهو على نمرقة صغيرة, فرحب به وأجلسه في مكانه, فقال له الرجل: إنها لا تسعنا, فقال له الخليل: ما تضايق سم الخياط بمتحابّيْن, ولا اتسعت الدنيا لمتباغضيْن". بدائع البدائة: ٣٦٦.

(٣) ينظر: القصص القرآني في الشعر الأندلسي: ٢١٢.

(٤) أبو الحسن بن الغليظ: لم أعثر على ترجمة وافية له, غير أنه كان صاحباً لابن السراج ومُنادِمهُ, ينظر: الذخيرة, ق١: ٦٥٩, و المغرب في حلى المغرب, ج١: ٤٣٥.

د تُغَنِّيـــــكَ بالغنـــــاءِ الثقيـــــلِ

يـــا خلـــيلاً مِثالُـــه نُصْـــبَ عينـــي

لـــو خَلَوْنـــا إذن شَـــفَيْتُ غليلـــي[1]

فأجابه ابن السراج قائلاً:

يـا صـديقي شُـغِلْتُ عنـك بخطـبٍ لـم يكـن لـي بتركِـهِ مـن سـبيلِ

وغـــداً نلتقـــي عليهـــا سُـــلافاً مُـــرَّةً فـــي حـــرارة الزنجبيـــلِ

أثقلتنـــي هَـــوَىً بقـــدٍّ خفيـــف حُسـنُ الـوَرْدِ فـوق رَدفٍ ثقيـلِ

سَـلَبَتْ صـبريَ الجميـل وقلبـي بجفـونٍ نُجـلٍ ووجـــهٍ جميـــلِ

كَحَّلَـتْ بالسُّـهادِ والـدَّمعِ طرفـي يـــوم أبصـــرتُها بطـرفٍ كحيـلِ

هُـيَ سـؤلي مـن المِـلاح كمـا أنـ ـــكَ مـن سـادةِ الأخـلّاءِ سُـؤلي

لا عَــدَتني زيــارةٌ منــكَ تُــذكي نورَ عَيني سناً وتشفي غليلي[2]

يشكو أبو الحسن بن الغليظ بُعد صاحبه عنه, وقد توزعت الكلمات الرقيقة على كل الأبيات, فيوم أبي الحسن بن الغليظ مكدر؛ لبُعده عن صاحبه, فهو يترقب قدومه في كل لحظة, ولكن الشاعر قد انشغل برؤية محبوبته (حُسن الورد), وقد ذكر لصديقه هذا الأمر, بعدما اتفقا على اللقاء في اليوم الثاني, ليذكر كل واحد للآخر لوعة الفراق, وهذه المراسلات الشعرية بين الشاعرين هي من صميم الشعر الإخواني, فقد رأينا فيها "ما يحصل بين الشعراء من مراسلات شعرية, يتبادل فيها الطرفان عواطفهما ومشاعرهما بأسلوب أدبي جميل, وتُعبّر في جانب منها عن عمق العلاقة بينهما, ويغلب عليها في كثير من الأحيان –صدق العاطفة– ورقّة الأحاسيس, ودفق

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٩ وما بعدها.

(٢) م. ن, ق١: ٦٥٩.

المشاعر"[١], وهذا النوع من الإخوانيات يسمّى بالمطارحات "وهي نوع من المراسلات الشعرية, فبدلاً أن يكتب الشاعر إلى صديقه رسالة, فإنه يبعث إليه مقطوعة من الشعر, ولا تسمى مطارحة إلّا عندما يرد على شعره بشعر مثله, يتفق مع وزناً وقافية"[٢].

ويبدو أنَّ انتشار الشعر على الألسن, وتوظيفه مكان النثر في المراسلات الودية بين الشعراء من أكثر الأسباب التي قادت إلى انتشار هذا النوع من الشعر الإخواني[٣].

ومن الأمثلة أيضاً على هذه الرسائل الشعرية المتبادلة بين الشعراء, ما كتَبَه أبو عامر بن مسلمة[٤] إلى الأديبين إدريس بن اليمان اليابسي, وأبي جعفر بن الأبّار[٥], يدعوهما إلى مجلسه الأدبي[٦]؛ ليتبادلوا الحديث في الشعر والنثر, فضلاً عن مجلس الشراب والغناء, الذي كان ينوي عقده, مثلما اتضح لنا من خلال قراءة البيت الأخير من هذه الدعوة, من نحو ما قال: [م. المجتث]

أَيَـــــا شَـــــقيقَيْ إخـــــاء ويـــــا قَسِـــــيمَيْ صَـــــفاءِ

---

(١) حركة الشعر في مصر الفاطمية: ١٥٤.

(٢) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ٤٨٥ وما بعدها.

(٣) ينظر: الشعر في ظل سيف الدولة: ٢٥٠.

(٤) أبو عامر بن مسلمة: أحد أعلام الأدباء في عصره, عاش في عهد الدولة الأموية في الأندلس, وأدرك عصر الطوائف, وتقرّب إلى المعتضد بن عباد, وانماز بمهارته في الصناعتين. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٨٤.

(٥) أبو جعفر بن الأبّار: أحد الشعراء المبرزين الذين عاشوا في كنف المعتضد, انماز بتفننه في صناعة الشعر, فضلاً عن عنايته بالكتابة والتأليف. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ١٠٧. وقد جمع شعره ودَرَسَهُ الدكتور محمد المهداوي والدكتور عدنان محمد آل طعمة في كتاب ديوان ابن الأبار الخولاني, الصادر عن دار الفرات, العراق, ٢٠١٧م.

(٦) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٨٥؛ و الإخوانيات في الشعر الأندلسي: ٧٦.

ومَـــن همـــا فـــي ذوي الفهـــ ـــم جـــوهرُ الأدبـــاءِ
تَفَضَّـــــــلا وأجيبـــــــا إلـــــى نـــــديّ نـــداءِ
لتأنســــــا بحــــــديثٍ وقهـــــوةٍ وغنـــــاءِ[1]

ويأتي الرد من الشاعر إدريس بن اليمان على هذه الدعوة, على نفس الوزن والقافية, فيقول: [م. المجتث]

يـــا صـــنْو مـــاءِ الســماءِ فـــي رِقـــةٍ وصـــفاءِ
ويــــا ســــراجَ ضـــياءٍ يجلـــو دجـــى الظلمـــاءِ
بهـــرت ســـيما ذكـــاء فـــي بهجـــةٍ وذكـــاءِ
وحـــزتَ فـــي العليـــاء قـــوادم الجـــوزاءِ
يـــا حـــاتم الكرمـــاء وأحمــــد الشـــعراءِ
....
وقـــد أجبنـــا إلـــى مـــا دعـــوت مـــن آلاءِ
لا زال نجمـــك أســـمى مـــن نجـــم كـــل ســـماءِ[2]

يشكر الشاعر دعوة الوزير أبي عامر بن مسلمة, وقد أثنى عليه, إذ فضّلهُ على سائر الأدباء في عصرِه, حيث وصفَهُ بأنه بمنزلة المتنبي في الشعر, وبحاتم الطائي في الكرم, وتُعد هذه الرسائل الشعرية بين هؤلاء الأدباء "لون من ألوان المباريات الشعرية الممتعة, التي تعتمد على فن المعارضة"[3].

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٢: ٨٥.
(٢) شعر إدريس بن اليمان اليابسي الأندلسي (القسم الثاني), (بحث): ٢٣٣.
(١) الإخوانيات في الشعر الأندلسي, د. علي الغريب: ٧٦.

ومن الصداقات التي انعقدت بين الشعراء, صداقة السميسر مع الشاعر ابن شرف القيرواني, فقد نزلَ الأخير في غرناطة, فعلاقته مع الزيريين قديمة وممتدة[١], ويبدو أنَّ السميسر قد تخلّف عن رؤيته؛ ويعترف لابن شرف بالذنب, ويطلب من الأخير العذر, قائلاً: [المتقارب]

كتبـــتُ إلـــى ســـيّدي قبـــل أنْ
أراهُ ورِجلَــــــيَّ قــــــد زلّـــــتِ
أيقصـــــد يـــــذبلُ غرناطـــــةَ
وأتـــرُكُ قصـــديه فـــي زمرتـــي
فمعــــذرةٌ لَــــكَ حتـــى أراكَ
فأنــتَ المُمثَّــل فــي مُهجَتــي[٢]

سارَعَ الشاعر بالاعتذار إلى صديقه ابن شرف القيرواني, وهو ما يوضح لنا عن ثقافة الاعتذار وصفاء المودّة التي كانت قائمة بين الشعراء أنفسهم, ويقبل ابن شرف القيرواني عذر السميسر, فهو في نظرِهِ صاحب الفضل في مدّ جسور العلاقة بين الاثنين, حتى لا يصيبها الفتور؛ لأنه بدأ بالاعتذار, وللمبتدئ الفضل, من نحو ما قال: [المتقارب]

بـــدأتَ وللمبتـــدي الفَضْـــلُ فـــي
فُـــــروضِ المـــــودّةِ والسُـــــنّةِ
ومـــا الـــوِدُّ إلّا امتنـــانٌ وقـــد
سَـــبَقْتَ سِـــواكَ إلـــى المِنّـــةِ

---

(٢) ينظر: رسائل البلغاء: ٢٣٣-٢٣٥.

(٣) لم أعثر على هذه الأبيات في شعر السميسر المجموع في مجلة مؤتة للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية, الأردن, إبراهيم حلمي الكيلاني, المجلد السابع, العدد (١), ١٩٩٢م, وعثرت عليها في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٧٩.

وحُـــدِّثْتُ أَنَّـــكَ سَـــمْحُ الطِبـــاعِ

إذا مـــــا طِبـــــاعُهُم ضَـــــنَّتْ

ونفسُـــــكَ فاضـــــلةٌ حُـــرّةٌ

إذا عايَنَـــــتْ فاضِـــــلاً حَنَّـــتْ[١]

يمدح ابن شرف فعل السميسر, فاعتذار الأخير ينمّ عن صفاءِ نفسِه, وطباعهُ الحَسِنة, وكرم أخلاقه, فلولا هذه الصفات المذكورة آنفاً, لم يلجأ السميسر إلى الاعتذار من صديقه الشاعر, فالمحبة والمودة قائمة بين الاثنين ما بقيت هذه الصفات النبيلة, ومما يلاحَظ أيضاً أنَّ ردّ ابن شرف على السميسر, كِلاهما من وزن المتقارب, وكلاهما على قافية التاء, مثلما كان مع أبي الحسن ابن الغليظ, وابن السَرّاج, وأبي عامر بن مسلمة, مع الأديبيْن إدريس اليابسي, وابن الأبّار الخولاني.

ومن الشعر الإخواني الذي لا ينضوي تحت اسم المطارحات الشعرية, ما كان بين ابن السراج المالقي وأبي الحسن بن الغليظ, فكانا قد اتفقا على الذهاب إلى النزهة في البادية, ولكن أحد العاملين عند ابن السراج قد أعرس, وطلبَ من الشاعر الحضور في زفافِه[٢], وقد لبّى ابن السرّاج دعوة الخادم, وكتبَ إلى أبي الحسن بن الغليظ يعتذر من الذهاب, فيقول: [الخفيف]

يـــا صـــديقاً ودادُه مـــا يَـــريمُ وخَلـــيلاً إخـــاؤهُ لـــي يَـــدومُ

جـــاءني راغبـــاً لأحضُـــرَ عُرْســـاً مَـــن لـــهُ عنـــدنا ذِمـــامٌ قـــديمُ

وهـو عُـرْسٌ لا تأتِـهِ خـاوِيَ البطـ ـــنِ فـإنَّ الغَـداءَ فيـهِ نسـيمُ[٣]

---

[١] ديوان ابن شرف: ٤٣.

[٢] يُنظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٢.

[١] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٢.

فأبو الحسن بن الغليظ لا يشجع ابن السراج على البقاء, وحضور حفل الزفاف, فهو في نَظَرِه من المجانين, فالذهاب إلى البادية والصيد هناك في نظر صاحب ابن السراج, ألذّ وأمتع, فعلى الرغم من الألفاظ الرقيقة العذبة التي وجّهها ابن السراج إلى صديقه, لكنها ما نفعت مع ابن الغليظ, وهو مُصِرٌّ على الذهاب, من نحو ما قال: [البسيط]

إنْ كنتَ تبقي على عرس البواقين(١)
فأنتَ عنديَ مجنون المجانينِ
دَعْ ذا وسر بي إلى أمّ الحسان(٢) ففي
صدري لها وضلوعي قلبُ مفتونِ
وصاحب العرس بوقون وأنت فتى
ما زلتَ تكره أحوال البواقينِ(٣)

سار شعر الإخوانيات في ظل الدولتيْن, بين المطارحات وبين الاختلاف في الوزن والقافية في الإجابة, وقد كان نوعاً من المباريات الشعرية الممتعة بين الشعراء, التي يتطارح فيها الشعراء مع أصدقائهم وأحبائهم, وهو مما يصور الاستقرار الاجتماعي(٤) الذي كان يتمتع به الشعراء في ظل الدولتين "مما هيّأ الأحوال لهذا النمط من العلاقات أن تنمو وتزدهر, ويزدهر معها الشعر الذي يصورها ويحكي واقعها"(٥).

---

(٢) البواقين: جمع بواق: نافخ البوق. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٢.
(٣) أم الحسان: الطائر الذي يسمّى الهزار. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٢.
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٦٢.
(١) ينظر: حركة الشعر في مصر الفاطمية: ١٥٨.
(٢) م. ن: ١٥٨.

المبحث الرابع

الاستعطـاف

من الفنون الشعرية القديمة, ولم يخلُ عصر من العصور الأدبية من شاعر نظم أشعاراً يستعطف فيها الحاكم عمّا تورط فيه من إساءة, وقد تكون نُسبت إليه أشياءً لم يرتكبها, أو كان الدافع منها الوشاية أو الحسد[١].

والاستعطاف أمر طبيعي تتجه إليه النفس البشرية في أغلب المجتمعات البشرية, ولكنه ينشط في عصور الاضطراب السياسي, وقد نشط هذا الفن الشعري في عصر الطوائف, وَدَعَتْ الحالة الاجتماعية إلى بروز مثل هذا اللون الشعري؛ فكثير من الشعراء يقفون على أبواب الملوك للتكسُّب, ومن الطبيعي أن تجري بينهم المنافسات والسعايات والعداوات[٢], فضلاً عن الأحداث السياسية التي رافقت هذا العصر, والمنافسة بين الملوك أنفسهم؛ لجذب هذا الشاعر أو ذاك؛ ليكون اللسان المعبّر عن فضائل المملكة التي يعيش في ظلّها.

وقد عُرف من الشعراء في الاستعطاف في عهد بني حمّود وبني زيري في الأندلس أربعة: ابن شُهيد, وابن الحنّاط, وابن زيدون, والمعتمد بن عَبّاد.

فقد لحقت ابن شهيد في بداية قيام الدولة الحمودية السعايات, فألقت به في السجن في عهد الخليفة علي بن حمّود[٣], وقد تحدّث الفتح بن خاقان عنها, بقوله:

"ودَبَّت إليه أيام العلويين عقارب, برئت بها من أباعد وأقارب, واجههُ بها صرف قطوب, وانبرت إليه منها خُطوب, نبالها جَنْبُه عن المضجع, وبقي بها يأرق, ولا

---

(١) ينظر: الأدب العربي في الأندلس: ٢٣٠.

(٢) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ٢٩١ وما بعدها.

(٣) ينظر: رسالة التوابع والزوابع: ٢٢.

يهجع, إلى أن علِقَهُ من الإثقال حبالَهُ وعقلته في عقالٍ أذهَبَ مالهُ, فأقام مرتهناً, ولَقِيَ وهناً"[١].

حَدَّثَنا أبو نصر الفتح بن خاقان في هذه القطعة عن الوشاية التي كانت السبب في سوء العلاقة بين علي بن حمّود وابن شهيد, وعن الحالة التي كان يعيشها الشاعر من جراء هذه السعاية, فقد تخلّى عنه القريب والبعيد, وقد عانى ما عانى منها, فقد سَجَنَهُ الخليفة, وقد استطاع استعطاف قلب الحاكم, فقد كتبَ إليه قصيدة يشكو إليه سوء حالِه, ويعتذر عمّا تورّط من إساءة, قائلاً: [الطويل]

قريـــبٌ بمحتـــل الهـــوانِ مُجيـــدُ
يجـــودُ ويَشْـــكُو حُزْنَـــهُ فَيُجيـــدُ

نَعَـى ضـرَّهُ عنـد الإمـام فيـا لـه
عـــدُوٌّ لأبنـــاءِ الكـــرامِ حســـودُ

ومـــا ضَـــرّه إلّا مُـــزاحٌ ورِقّـــةٌ
ثَنَتْـــهُ ســـفيه الـــذِّكرِ وهـــو رشـــيدُ

جَنَـى مـا جَنَـى فـي قُبّـةِ المُلـكِ غيـرُه
وطُـــوِّقَ منـــهُ بالعظيمـــةِ جِيـــدُ

ومـا فِـيَّ إلّا الشّـعْر أثبَتَـهُ الهَـوى
فســـارَ بـــه فـــي العـــالمينَ فريـــدُ

أَفُـــوهُ بمـــا لـــم آتِـــهِ مُتعرِّضـــاً
لحُســـن المعـــاني تـــارةً فأزيـــدُ

فـإنْ طـالَ ذِكْـري بـالمُجون فإنهـا

---

[١] مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مُلح أهل الأندلس, أبو الفتح بن خاقان: ١٩٨.

عظـــائمُ لـــم يَصـــبِر لَهُـــنَّ جليـــدُ

وهـل كنـتُ فــي العُشّــاقِ أَوَّلُ عاقـلٍ

هَـــوَتْ بِحِجـــاهُ أَعـــيُنٌ وخـــدودُ

فِـــراقٌ وسِـــجنٌ واشـــتياقٌ وذِلّـــةٌ

وجبَّـــارُ حُفَّـــاظٍ عَلَـــيَّ عَتيـــدُ[1]

ويبدو أنَّ الشاعر قد أسرفَ في المجون؛ لأنه قال: وإنْ طالَ ذِكْري بالمجون..., وهذا ما لا يرضاه الخليفة الحمودي الذي ينتمي إلى السلالة الطاهرة؛ فبعدما استيقنَ الخليفة من الحياة العابثة التي كان يعيشها الشاعر, ألقاهُ في السجن, ولكن الخليفة بعد ذلك رَقَّ قلبهُ للشاعر, فأخلى سبيله, وبخاصة عندما خاطبهُ في نهاية القصيدة, قائلاً: [الطويل]

وراضـــت صـــعابي سَـــطوةٌ عَلَويّـــةٌ

لهـــا بـــارقٌ نحـــو النَّـــدى ورعـــودُ

تقـول التــي مــن بيتهـا كـفَّ مركبــي

أَقُرْبُـــــكَ دانٍ أمْ نـــــواكَ بعيـــــدُ

فقلـتُ لهـا: أمْـري إلـى مَـنْ سَـمَتْ بـه

إلـــى المجـــد آبـــاءٌ وجـــدودُ[2]

وقد يكون السبب في فتور العلاقة بين الحاكم والسلطة, التنافس الحاصل بين ملوك الطوائف أنفسهم, وهذا ما حدث بين ابن زيدون والوليد بن جهور حاكم قرطبة, فقد أرسلَهُ الأخير إلى مالقة لأمور تتعلق بالسياسة, لكن ابن زيدون أطالَ المكوث عند الخليفة إدريس الحمودي؛ إذ وجدَ في مالقة ما لم يجده في قرطبة, من حُسن

---

(1) ديوان ابن شُهيد الأندلسي: ٩٩ وما بعدها.

(2) م. ن: ١٠١ وما بعدها.

استقبال ورعاية, فضلاً عن المجالس الأدبية التي كانت تُعقد في حضرته, لذلك آثر البقاء هناك, ويبدو أنَّ الوليد بن جهور قد أرسلَ إلى ابن زيدون يطلب مجيئه, ولكن الأخير كان يماطل في الرد[١]؛ مما أدى إلى برود العلاقة بينهما, وعَزْل ابن زيدون عن منصبه بوصفِهِ سفيراً لابن جهور, وقد كتبَ ابن زيدون قصيدة إلى ابن جهور يستعطفهُ ويطلب رضاه, ولكن الحاكم لم يرقَّ قلبه, من نحو ما قال: [الطويل]

بَنَيْـتَ فـلا تَهـدِم, وَرِشـتَ فـلا تَبِـر
وأَمرضْـتَ حُسّـادي, وحاشـاك أن تُبـري
أرى نبــوةً لــم أَدْرِ سِــرَّ اعتراضِــها
وقد كـان يجلو عـارضَ الهَمِّ أَنْ يـدري
جفــاءٌ هــو الليــلُ ادلَهَــمَّ ظلامُــهُ
فـلا كوكـبٌ للعُـذْرِ فـي أُفْقِـهِ يَسـري
هَـبِ العـزلَ أضـحى للوِلايــةِ غايــةً
فَمـا غايـةُ المُوفي مِنَ الظِـلِّ أنْ يُكـري
فَفِــيمَ أَرى ردَّ الســـلامِ إشـــارةً
تُسـوِّغُ بـي إزراءَ مَـنْ شـاء أنْ يُـزري
أنـــاسٌ هُـمُ أخشـى لِلَذْعـةِ مِقـوَلي
إذا لـم يكـنْ ممـا فَعَلـت لهـم مُضـرِ
فـإنْ عاقَـتِ الأقـدارُ فـالنفسُ حُـرَّةٌ
وإن تَكُـنِ العُتبـى فَـأَحرِ بهـا أَحـرِ[٢]

---

(١) ينظر: ديوان ابن زيدون ورسائله: ٢٩٤.

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله: ٢٩٤– ٢٩٥.

تحدّثَ الشاعر في البداية عن صورة العلاقة بين الحاكم والشاعر, فقد كانت على أحسن ما يكون؛ فعلى الرغم من الوشايات التي كانت قائمة في ذلك الزمان, لكن هذه العلاقة قد أمرَضَتْ هؤلاء الحساد وأتعَبَتهم, ولكن الشاعر يستغرب من الجفاء الذي أصاب هذه العلاقة, حتى أصبح الحاكم يستثقل حتى من ردّ السلام على الشاعر, وهذا الأمر يَفرح به الحساد, ويبدو أنَّ هذه القصيدة لم تؤثر في قلب الحاكم؛ لأنَّ الشاعر صرح في البيت الأخير بذلك, قائلاً:

فــإنْ عاقَــتِ الأقــدارُ فــالنفسُ حُــرَّةٌ
وإن تَكُــنِ العُتبــى فَــأَحرِ بهــا أَحــرِ(١)

إذا تعذَّرَ الصلح فنفس الشاعر عزيزة تأبى الضيم, فإذا جَنَحَ الحاكم للصلح, فالشاعر يجنح أيضاً, ويبدو أنَّ التنافس بين الملوك وتفضيل ابن زيدون إدريس الحمودي على ابن جهور, قد أخذ مأخذه من الأخير, ولذلك قد يئِسَ الشاعر من الحاكم, وأطالَ مقامهُ عند الخليفة الحمّودي.

وليس ابن زيدون وحدهُ قد ساءت علاقته مع الوليد بن جهور, فابن الحناط أيضاً, كانت العلاقة بينهما ليست على ما يرام, واستمرت إلى ما بعد وفاة الوليد بن جهور, وقد أقام ابن الحناط طوال هذه المدة في كنف الدولة الحمودية في الجزيرة الخضراء, ولكن بعد وفاة حاكم قرطبة, كتبَ ابن الحناط إلى ولدِه أبي الوليد ابن أبي الحزم بن جهور, يُعزّيه بوفاة والده, ويستعطفه, لعله يسمح له بالدخول إلى قرطبة(٢), من نحو ما قال: [البسيط]

إنّــا إلــى الله فــي الــرُّزءِ الــذي فجعــا

---

(٢) م. ن: ٢٩٦.

(١) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٣٤٨؛ والفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي: ١٣٧.

والحمـدُ لله فـي الحُكـمِ الـذي وَقَعَـا

وَلَـى أبـو الحـزم عـن مُلْـكِ تقلّـده

أبـو الوليـد فَعَـزَّ المُلـكُ وامتَنَعَـا

أبٌ كـريمٌ غـدا الفـردوسُ مَسـكنَهُ

وابـنٌ نجيـبٌ تـولّى الأمـرَ واضـطلَعا(١)

إلى أن يستعطف الحاكم ويطلب منه السماح, قائلاً:

يـا واحـد الـدِّين والـدُّنيا أَقِـلْ زَلَـلاً

يَـدعوكَ جانيـهِ أن تقـتصَّ أو تَـدَعَا

لـو أنـه أُعطِـي الـدنيا بمـا رحُبـت

ولـم ينـل عفـوكَ المـأمولَ مـا قنعـا

ومـا عسـاك سـوى الإحسـان تصـنعه

إلـى مسـيءٍ رَجـا عُتبـاك فارتجعـا

ليَمْحُـوَنَّ مـديحي فيـك مـن كثَـب

محـواً حـديثَ ملامـي حيثمـا سُـمعا(٢)

يأمل الشاعر من الحاكم العفو والسماح, فقد ضاقت الأرض بما رحبت في عين الشاعر, ولا يرى فيها إلّا رضا الحاكم, وهو متيقّن من أنَّ الحاكم قد يعفو عنه ويسمح له بالدخول إلى قرطبة, فقد تمحو أبيات المدح التي قالها في حقِّهَ, ما ارتكبَهُ مِن إساءة بحقِّ أبيه, ولكن على ما يبدو أنَّ هذه الأبيات لم تشفع له؛ لأنَّ "أبا الحزم بن جهور وولدِهِ أبا الوليد لم يسلَما من جرأة ابن الحناط, وأنه ربما وقع في عِرضهما, وأساءَ إليهما, ولذا منعاه من دخول قرطبة, ولم يسمحا له بالعودة؛ ولذلك انتهزَ فرصة

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٣٤٨.

(٣) م. ن: ٣٤٨.

وفاة أبي الحزم, وتنصيب ولده أبي الوليد حاكماً لقرطبة خَلَفاً لأبيه, وبادَرَ بتقديم واجب العزاء إليه, ومدحه, ثم مزجَ هذا المدح بالاستعطاف"(١).

وقد تبَيَّنَ لنا من الأبيات السابقة أنَّ السلطة الحمودية لم تمنع الشاعر من مدح واستعطاف الحكام في الدويلات الأخرى, على النقيض من غيرهم, وهو ما يبيّن لنا مدى الحرية في التعبير التي كان ينعم بها الشاعر في ظل هذه الدولة.

وقد يتخذ الشاعر الهجاء غرضاً لنيل رضا الممدوح, وهذا ما حدث مع المعتمد بن عباد, فعندما أراد العفو من والده بعدما هَزَمَهُ بني زيري في إحدى المعارك, وقد كان إهماله, وعدم قدرته على مواجهتهم, سبباً في خسارة المعركة؛ ولهذا فقد اغتاظ والده منه, فكتبَ إليه يستعطفه, ويهجو بني زيري, ويُعرض بهم(٢), قائلاً: [البسيط]

سَـكِّنْ فـؤادَكَ لا تـذهب بـك الفِكَـرُ
مـاذا يُعيـدُ عليـكَ البَـثُّ والحـذرُ
وازجـر جفونـك لا تـرضَ البكـاء لهـا!
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبرُ
وإنْ يكـن قـدرٌ قـد عـاقَ عـن وَطَـرٍ
فـلا مَـرَدَّ لِمـا يـأتي بـه القَـدَرُ
وإنْ تكـن خيبـةٌ فـي الـدَّهر واحـدةٌ

(١) الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي: ١٣٧ و ١٣٨.

(٢) أراد المعتمد بن عباد في أثناء المعركة, الخلود إلى الراحة, وممارسة الحياة اللاهية والعَبَثْ, فتفرَّقَ أصحابُهُ يطلبون اللذات أيضاً, وكأنَّ هذه الأمور جعلت جيش بني زيري بقيادة باديس, يتمكن منهم, ولهذا فقد حقدَ عليه المعتضد. ينظر: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان, ج١: ٨٢.

فكـم غَـدَوْتَ ومِـنْ أشـياعك الظفَـرُ[١]

إلى أنْ يهجو الزيريين ويُعرض بهم, فيقول:

قـــوْمٌ نصـــيحتهم غِـــشٌ وحُـــبُّهُم
بُغْـضٌ ونفعُهُــم إنْ صَــرَّفوا ضَــرَرُ
يُمَيَّـزُ الـبُغْضُ فـي الألفـاظِ إنْ نَطَقـوا
ويُعرَفُ الحِقد في الألحاظِ إنْ نَظَروا[٢]

يهجو الشاعر بني زيري, ويصفهم بالغشّ والخداع والبغض, فهُم في نظَرِهِ مُبغضون لدولة بني عباد, فقد عرفهم الشاعر مثلما ذَكَرَ من لحنِ القول, مَيَّزَ ذلك أيضاً من نظراتهم التي مثلما عَبَّرَ عنها مليئة بالحقد والضغينة, ولكن هذه التُّهَم والصفات الرذيلة التي نَعَتَهُمْ بها الشاعر قد تكون هي أدواتِهِ التي وظَّفَها لكي يستعطف بها قلب أبيه, وقد نالَ رضاه بالفعل, ولعلَّ هذه الألفاظ هي البديلة عن الألفاظ الرقيقة التي يستعملها الشاعر لنيل رضا الممدوح, ولكن كُرْه ملوك الطوائف ومنهم بني عباد, لهاتيْن الدولتين, جعلَ الشعراء يتقرّبون إلى الملوك بهجائهِم.

وخلاصة القول: سارت القصائد التي قيلت في الاستعطاف في ظل دولَتَيْ بني حمّود وبني زيري في اتجاهين: الأول كانت مباشرة, وقد مثَّل هذا الاتجاه ابن شهيد في قصيدته التي قالها في علي بن حمود.

وغير مباشرة, وهي قصائد قيلت في دولة بني حمود, ولكنها كانت موجَّهة إلى بني جهور في قرطبة؛ فالتنافس بين الدولتين قد ألقة بظِلالِهِ على مملكة بني جهور,

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ٩٩ و ١٠٠.

(٢) م. ن: ١٠٢.

مما جعلهم يغتاظون من صلة الشعراء بهذه الدولة, وقد رأينا ما حدث مع ابن زيدون وابن الحناط.

واتجاه آخَر مثَّلَهُ المعتمد في هجائِهِ لبني زيري, فقد وظَّفَ الهجاء في قصيدته ليكون بديلاً لنجاتِهِ من بطش أبيه.

المبحث الخامس

رثـــــاء المدن

من موضوعات الشعر الأندلسي المطوَّرة, وهو نابع من صميم الواقع الذي عاشتهُ الأندلس إبّان هذه الحقبة, فقد وقعت أحداث كبيرة, وتساقطت الدول واحدة تلو الأخرى[١].

فكل هذه الأحداث والفتن ألقت بظلالها على الشعر, وأصبحت مادة للشعراء يُعبّرون عنها, وبهذا شكَّلَتْ أشعار رثاء المدن ظاهرة كبيرة في الأندلس. واحتلّتْ قرطبة المرتبة الأولى في الرثاء, فقد كتبَ عنها أغلب الشعراء, وبخاصة بعد زوال مُلك بني أمية في الأندلس, فهذا ابن حزم الأندلسي بين الماضي والحاضر, فالحاضر في نظرِه لا شيء, فهو يتوجّع ألَمَاً على قرطبة, بما حلَّ بها من ثورات وفتن, ويتذكّر الأيام التي عاشها في ظل الدولة السابقة, ويدعو نفسه إلى الصبر على ما أصابه, وإنْ كان الصبرُ ثقيلاً لا يقوى على حمله, من نحو ما قال:

[الطويل]

ســـلامٌ علـــى دارٍ رَحَلْنـــا وغـــودرت
خـــلاءً مـــن الأهلـــين موحشـــةً قفـــرا
تراهـا كـأن لـم تَغْـنَ بـالأمس بلقعـاً
ولا عَمَّـــرَتْ مـــن أهلهـــا قبلنـــا دهـــرا
فيـــا دارُ لـــم يقفـــرك مِنّـــا اختيارنـــا
ولـــو أنّنـــا نَسْـــطِيعُ كُنْـــتِ لنـــا قبـــرا
فلـــو أنّ أمـــري بالخيـــار نبـــذتهم

---

(١) ينظر: التجديد في الأدب الأندلسي, د. باقر سماكة: ٥٨.

وحـــاكمتهم للسـيف حكمـــاً محـــررا

ولكـــنَّ أقــــداراً مِــــن الله أنفـــذت

تُــدمرُنا طوعــاً لِمــا حَــلَّ ومــا أســرى

فصــبراً لسـطو الـدهر فـيهم وحُكمـه

وإنْ كـان طعـم الصبر مستثقلاً مُـرّا[1]

ابن حزم مؤمن بقضاء الله وقدرِه, فهو لم يختر هذا الأمر, ولكن أمر الله نَفَذ, والمتأمّل في هذه الأبيات يلحظ الشاعر يبكي الحكومات السابقة أكثر مما يبكي على قرطبة, فالرعاية التي كان ينالها في السابق أكثر بكثير مما هي عليه الآن, ولهذا فهو يُصغّر قرطبة في أعين الآخرين في وقتِهِ وزمانِهِ.

ويبدو أنَّ ما جرى مع ابن حزم, قد جرى مع ابن شهيد, ولكن المتأمل في أبيات ابن شهيد يلحظ وكأنَّ الشاعر يرثي الملوك الماضين الذين كان تحت رعايتهم في السابق, ولكنه جعلَ قرطبة قناعاً يتستّر عِبرَهُ؛ لأنَّ الوضع الراهن لا يسمح له بالتصريح بذلك, فيقول: [الكامل]

مـا فـي الطلـول مـن الأحبّـةِ مُخبِـرٌ ... فمـن الـذي عـن حالهـا نسـتخبِرُ؟

لا تســألنَّ ســوى الفــراق فإنـــه ... يُنبيــكَ عــنهم أَنْجـدُوا أَمْ أَغْــوَرُوا

جــارَ الزمــانُ علــيهِمُ فتفرَّقــوا ... فــي كُــلِّ ناحيــةٍ وبــادَ الأكثــرُ

جَـرَتِ الخُطُـوبُ علـى محـلِّ دِيـارِهِم ... وعَلَــــيْهِمُ فَتَغَيَّــــرَتْ وتَغَيَّــــرُوا

فلِمِثْــلِ قُرطُبَــةٍ يَقِــلُّ بُكــاءُ مَــنْ ... يَبكــي بِعَــيْنٍ دَمْعُهــا يَتَحَــدَّرُ [2]

---

[1]) ديوان ابن حزم الأندلسي: ٩٨.

[1]) ديوان ابن شُهيد الأندلسي: ١٠٩.

يوجّه ابن شُهَيد اللوم إلى الدهر الذي جارَ, وكانَ السبب في فراقهم, ونزول المصائب عليهم الواحدة تلو الأخرى, وقرطبة ما عادت مثلما كانت عليه في السابق؛ لذلك هو لا يكتفي بالبكاء عليها بالدمع الجاري, فهذا في نظرِهِ قليل, مقابل الحظوة والمكانة التي كان ينعم في السابق في ظل الحكومات السابقة.

وهذا الشاعر أبو جعفر بن جرج(١), يندب أطلال قرطبة, ويدعو لها بالسقيا, فهي في نظرِهِ كانت في الماضي القريب أحسن حالاً من اليوم, وتسرّ الناظرين على ما فيها من الحُسن والجمال من حيث طبيعتها, وأبنيتها, وهي فضلاً عن هذا وذاك كانت تتمتع بمُلك عزيز وملوك أعزّة؛ من نحو ما قال: [الطويل]

سقى اللهُ زهراء القصور وإنْ بدَتْ
لعينيك غبراءَ الدثور حيا المزنِ
فلا جَوَّ كالجَوِّ الصقيلِ بأفقنا
وذاك الهواءُ الغَضُّ كالملمس اللينِ
على قدر ما أعطى العيون من الحُسن
سناها غدت تُعطي النفوس من الحُزنِ
وكم قد جِئَتَ تلك المنى أهلها المنى
فأضحتْ وما غير الأسى رائد اللحنِ
عفا حُسنها إلّا أزاهرَ دمنة وعَرْفاً
كأنَّ المسك فيها من الدمنِ
تذكّرنا تلك المباني بِعَرْفها

(٢) هو الوزير الكاتب أبي جعفر بن جرج, أحد الأعلام من الذين انمازوا في تمكنهم بالصناعتيْن (الشعر والنثر), حَلَّ في قرطبة آخِر أيام ملوك الطوائف, ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٣: ٣٣٧.

وبـالزَّهر تلـك الأوجـه الزهـر فـي الحُسـنِ

إذا المُلْـــكُ فيهـــا والملـــوكُ أعـــزّةٌ

وفيهـا الغنـى لـو كـان ذاك الغِنـى يُغنـي(١)

وقد وقَفَ السميسر على مدينة قرطبة, وبَكاها على ما أصابها من دمار وخراب؛ من جرّاء المحن والفتن التي طالتها إبّان مطلع القرن الخامس الهجري, من نحو ما قال: [السريع]

وقفـــــتُ بـــــالزهراءِ مســـــتعبراً

مُعتبـــــراً أنـــــدبُ أشـــــتاتا

فقلـــتُ: يـــا زهـــرا أَلَا فـــارجعي

فقالـــت: وهـــل يرجـــعُ مَـــنْ ماتـــا؟

فلـــمْ أزل أبْكـــي وأبْكـــي بهـــا

هيهـــات يُغنـــي الـــدمع هيهاتـــا

كأنمـــا آثـــارٌ مِـــنْ قـــد مضـــى

نـــــوادبٌ يَنـــــدبْنَ أمواتـــــا(٢)

والشاعر على الرغم من تيقّنه بانتهاء حكم قرطبة السابق, لكنه يَعقِد حواراً مع قرطبة, وكأنه يرفض نهاية العهد السابق, ويأمل بأنْ تعود هذه المدينة على ما كانت عليه, لكن قرطبة ترد عليه قائلة: "وهل يرجع من ماتا"(٣).

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٣: ٣٤١.

(٢) السميسر, حياته وشعره (بحث): ١٣٢.

(١) ينظر: المكان في الشعر الأندلسي (عصر ملوك الطوائف), أمل محسن العميري: ٧٤.

ويبدو أنَّ السميسر قد استيقن مِن أنَّ قرطبة لن ترجع على ما كانت عليه في السابق, فدوام الحال من المحال, فهو في قصيدة أخرى يعترف للمتلقي بأنه قد وجّهَ لها السؤال أكثر من مرّة, ولكنه قد يئس من الإجابة, فكيف تُجيبهُ مدينة قد مضى على تغييرها زمن طويل, ولهذا فهو يقف على أطلالها, مثلما وقف الشاعر القديم, ولكنه لا يسمع جواباً, من نحو ما قال: [السريع]

سألتَ بها فما رَدَّتْ جواباً — عليك, وكيف تُخبرُك الطلولُ؟
ومن سَفَهِ سؤالُك رَسْمَ دارٍ — مضى لِعَفَائِهِ زَمَنٌ طويلُ
فإنْ تَكُ أَصبَحَتْ قَفْراً خلاءُ — لعينيكَ في مَغانيها هُمُولُ[1]

وَقَفَ أغلب الشعراء على أطلال مدينة قرطبة, وهم بهذه الطريقة يقلّدون الشعراء القدامى في الجاهلية, ولكنهم يُغالون بعض الشيء هنا, ففي نظرهم أنَّ الفناء الذي حَلَّ بقرطبة أعمُّ وأشملُ وأوجعُ مما حَلَّ بالشاعر القديم, فلقد تفرّقَ أهل هذه المدينة, ومات كثير منهم, وتغيّرتْ الدول, وهنا في نظرهم أشدّ وأوجع[2].

وهناك شاعر آخَر[3] قد عَزَا تغيّر الحال في قرطبة, وانتقالها من حالٍ إلى حال, وكأنه أصابتها العيْن, وتسببت في خرابها, فهي كانت على أحسنِ حال, ولكن اليوم أصبحت على النقيض تماماً, فما ترى فيها سروراً أبداً, بحسب ما يقول:

[السريع]

---

(٢) لم أعثر على هذه الأبيات في شعر السميسر المطبوع بإسم (السميسر حياته وشعره), مجلة مؤتة, وإنما عثر الباحث عليها في: نفح الطيب, ج١: ٣٠٥.

(٣) ينظر: هوية الشعر الأندلسي, د. صالح محمود محمد الطائي: ٢٣٩.

(١) لم يرد اسم الشاعر, فالشاعر مجهول, فقد نقلَ ابن عذارى المراكشي هذه الأبيات من دون ذِكر اسم قائلها, ينظر: البيان المُغرب, ج٣: ١١٠.

إبْــكِ علـــى قَرطُبَـــةَ الـــزَّيْنِ   فقـــد دَهَتْهـــا نَظَـــرَةَ العَـــيْنِ

أنظرهــــا الـــــدهرُ بأســـــلافه   ثُـــمّ تقاضـــى جملـــةَ الـــدَّيْنِ

كانــت علــى الغايــةِ مــن حُسـنِها   وعَيْشِـــها المُســـتَعذَبِ اللَّـــيْنِ

فــانعكَسَ الأمــرُ فمــا إنْ تَــرَى   بهـــا سُـــروراً بـــين اثنـــينِ

فاغْـــدُ وَدَعْهـــا وسِـــر ســـالماً   إنْ كُنــتَ أزمَعــتَ علــى البَــيْنِ[١]

ولم تكن البيرة ببعيدة عن أخيلة الشعراء, فهذا أبو إسحاق الإلبيري يندب أطلال هذه المدينة التي انتقلَ أهلها إلى غرناطةَ, إذ قال:

أتنـــدُبُ أطـــلالُ الـــبلادِ ولا يُـــرى

لإلبيـــرةٍ مـــنهمْ علـــى الأرضِ نـــادبُ

علــى أنّهــا شــمسُ الــبلادِ وأُنْسُــها

وكــــلُّ ســــواها وحشـــــةٌ وغياهــــبُ

وكـم مِـنْ مُجيـبٍ كـانَ فيهـا لِصـارخٍ

تُجـابُ إلـى جَـدْوى يَدَيْـهِ السَّباسِـبُ[٢]

وَكَــمْ مِــنْ نَجِيــبٍ أَنْجَبَتْــهُ وعــالِمٍ

بـــأبوابِهِمْ كانَـــتْ تُنَـــاخُ الرَّكَائِـــبُ

وَكَـمْ بَلَغَـتْ فيهـا الأمـاني وقُضِّـيَتْ

لِصَـــبٍّ لُبانـــاتٌ بِهـــا ومَـــآرِبُ

وَكَمْ طَلَعَتْ منها الشُّمُوسُ وَكَمْ مَشَتْ

علـــى الأرضِ أقمـــارٌ بهـــا وكواكِـــبُ

وَكَـمْ فَرَسَـتْ فيهـا الظِّبـاءُ ضَـراغِمَاً

---

(٢) البيان المُغرب, ج٣: ١١٠.

(٣) السباسب: الأرض المستوية البعيدة, ينظر: القاموس المحيط: ١٠٢.

وكَـمْ صَـرَعَتْ فيهـا الكُمـاةَ كواعِـبُ[1]

يكرّر الشاعر في أبياته المذكورة آنفاً, اسم الاستفهام (كم) خمس مرات, والهدف منه هو خلق حوار بين الشاعر والمتلقي, فقد أخذ الشاعر يعدد فضائل وشمائل هذه المدينة التي رحلَ أهلها واستوطنوا غرناطة, وقد عبّر الشاعر عمّا يختلج في صدره من آلام أصابته من جرّاء رحيله عن مدينته الأم, وهي البيرة, وليس أبو إسحاق وحده قد هام بهذه المدينة الجميلة, فهذا الشاعر غانم بن الوليد كأنه يشعر بالراحة عندما يمرّ به نسيم هذه المدينة, وتعود له الحياة مرّة ثانية عندما يكون مثقلاً بالهموم والآلام, من نحو ما قال:

أرتـاحُ نحـو نسـيم سـاق عـرفهمُ   كأنمـا يعتلـي بالجسـم روحـاني
أمِـن لبيـرةَ تسـري الـريحُ حاملـةً   رَوْحَ النسـيم فأحيـاني وحَيّـاني[2]

ويبدو أنَّ بعض الشعراء اتخذ مسلكاً آخَر في ظل هذه الأحداث, وأخذ يلوم المجتمع ويوجّه إليه أصابع الاتهام في وصول الأمور إلى ما صارت عليه الآن, ويصف أفراد مجتمعه بأنهم عميان البصر والبصيرة, ولهذا فقد لبسوا ثياب الذل والعار, من نحو ما قال: [البسيط]

أَضَـعتُمُ الحَـزْمَ فـي تـدبير أمـركم
سـتعلمون معـاً عُقبـى البـوار غـدا
فلـو رأيـتم بعـيْن الفكـر حـالَكُمُ
بكيْـتُم بـدمٍ إنْ دُمـتمُ بـددا
لكـن سُـبْلُ العمـى أعمـت بصـائركم
فألبَسَـتْكُمْ ثيابـاً للبَلَـى جُـددا

---

(1) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٧٠.

(2) من أعلام مالقة (بحث): ١٤.

يــا أُمّــةً هَتَكَــتْ مســتورُ ســوءتها

مـا كُـلُّ مـن ذَلّ أعطـى بالصـغار يـدا[1]

وهكذا فقد مثّلَ شعر رثاء المدن والممالك موضوعاً شعرياً اهتمَ به الشعراء الأندلسيون في حقبة حكم دولتي بني حمود وبني زيري, وهو نابع من صميم الحياة التي عاشتها الأندلس في هذه المدة من عمر الدولتين, ويبدو أنَّ الشعراءَ الذين كتبوا في هذا الموضوع كان أكثرهم يميلون إلى دولة بني أمية؛ فهم لم ينالوا المنزلة التي كانوا عليها في السابق؛ ولهذا راحوا يتخذون من قرطبة قناعاً يعبّرون فيه عمّا يختلج في صدورهم.

---

(1) نقلَ ابن عذارى المراكشي هذه الأبيات من دون ذكر اسم قائلها, ينظر: البيان المُغرب, ج٣: ١١٠.

الفصل الرابع

النثــر

مدخل:

نشطت حركة النثر في دولتي بني حمود وبني زيري في الأندلس, ومما ساعد على ازدهار حركة النثر, ظهور طائفة من الأدباء ممن جمعوا بين الصناعتين, فقد كتبَ هؤلاء الأدباء في أغلب الفنون النثرية, وكانت كتاباتهم صورة للواقع الذي عاشه الأدباء يومذاك, فتأثروا بالسياسة, فضلاً عن تصويرهم لواقع الحياة الاجتماعية, والعلاقات التي كانت تربط الأدباء فيما بينهم.

وسنسلّط الضوء في هذا الفصل على حركة النثر في ظل هاتين الدولتين, وفي مبحثين:

المبحث الأول: النثر الفني, ويشتمل على:

أولاً– الرسائل الديوانية.

ثانياً– الرسائل الإخوانية.

ثالثاً– الأمثال.

رابعاً– المقامات.

المبحث الثاني: النثر التأليفي, ويشتمل على التعريف بأهم الكتب الأدبية التي أُلّفتْ في ظل دولتي بني حمود وبني زيري.

المبحث الأول

النثـــر الفنّـــي

مَرّ النثر الأندلسي قبل عصر الطوائف بمرحلة انمازت بالتقليد لأهل المشرق, فكتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي نقل فيه المؤلف تراث المشارقة إلى الأندلسيين[٦٠٩].

ويبدو أنَّ الأندلسيين قد أخذوا ردحاً من الزمن حتى استطاعوا أنْ يشقّوا لأنفسهم طريقاً في الكتابة, فـ"إذا تركنا عصر الأمراء الأمويين وانتقلنا إلى عصر ملوك الطوائف وجدنا الأندلس تنهض نهضة واسعة في أدبها من شعر ونثر, وكأنما انقسامها إلى وحدات صغيرة أهّلها لنشاط أدبي واسع, إذ أصبح لكل وحدة صغيرة... حاكم مستقل, وسعى كل حاكم, بسبب ما بينه وبين الحكام الآخرين من تنافس إلى تشجيع الحرية العلمية والأدبية في وطنه ومقر حكمه ومملكته, وبذلك أضفى انقسام الأندلس إلى دويلات على العلم والأدب تقدّماً ورُقياً عظيماً"[٦١٠].

ولكن على ما يبدو أنَّ الأدب الأندلسي في هذه الحقبة من الدراسة صار يجمع بين التقليد والتجديد, فقد تعددت النماذج التي صار الأديب الأندلسي بمقدرته

---

(١) عاصرَ ابن عبد ربه القالي في أواخر أيامه, فكان الأخير من أدباء الدولة الأموية على عهد عبد الرحمن الناصر, وقد أَلَّفَ ابن عبد ربه الأندلسي كتابه العِقد الفريد على غرار كتاب الأمالي لأبي علي القالي, وقد عَلَّقَ الصاحب بن عباد عندما قرأ هذا الكتاب, فقال: "هذه بضاعتنا رُدّت إلينا", ففي هذا القول دلالة واضحة على تقليد أهل الأندلس للمشارقة. ينظر: كتاب الأمالي (المقدمة), و دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام: ٥٤٥ وما بعدها.

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي, د. شوقي ضيف: ٣٢٤ وما بعدها.

محاكاتها, فمثلاً تأثّرْ الأدباء ببديع الزمان واضح[611]؛ فقد تأثّرَ ابن شرف القيرواني في مقامته التي تسمّى (أعلام الكلام) بالهمداني, وكذلك ابن شهيد الأندلسي في مقامته التي نقَلَها لنا صاحب الذخيرة, وهذا ما سيأتينا في قابل البحث.

وبعد استقرائنا للنثر في ظل دولتي بني حمود وبني زيري في الأندلس, لم يعثر الباحث على خطبة سياسية أو دينية أو اجتماعية, ويبدو أنّ السبب في ذلك هو انصراف الشعراء إلى الشعر والكتابة؛ ولهذا ضاقت السبل أمام الخطابة الأندلسية, وأصبحت محصورة على الخطابة الدينية فقط[612], التي ضاعت ولم يصل إلينا منها حتى النزر اليسير.

ويمكن تقسيم اتجاهات النثر الفني في ظل الدولتين, على النحو الآتي:

الرسائل:

الرسالة: هي "قطعة من النثر تطول أو تقصر تبعاً لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه, وقد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سبباً"[613], وإنَّ أي رسالة من حيث مقصدها, على قسمين: فكري[614], والهدف من ورائها حل بعض المشكلات دون النظر إلى الجانب الفني, ومثل هذا النوع من الرسائل: ابن حزم الأندلسي في رسالته التي يردّ فيها على ابن النغريلة اليهودي, والقسم الآخر يهتم فيه الكاتب بالجانب

---

(1) كان ابن شهيد مولعاً بمعارضة بديع الزمان الهمداني, فضلاً عن أنَّ في أسلوب الرسالة (رسالة التوابع والزوابع) أثراً واضحاً لطريقة الهمداني والتي تتماز بالوصف والنغم الصوتي, وقد تأثّرَ ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع بعدّة مقامات للهمداني كالمقامة الإبليسية والمقامة الحمدانية والبغدادية. ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ٢٨٤, و الأدب الأندلسي (من الفتح إلى سقوط الخلافة): ٣٨٧, و الأدب العربي في الأندلس (تطوره, موضوعاته, وأشهر أعلامه): ٥٠٨.

(2) ينظر: الأدب العربي في الأندلس (عبد العزيز عتيق): ٤٤١.

(3) م. ن: ٤٤٨.

(4) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ٣٨٧ وما بعدها.

الفني والأسلوبي[٦١٥], وقد مثّل هذا النوع من الرسائل البزلياني وابن الحناط وغيرهم من الأدباء في ظل الدولتين, ويمكن تقسيم الرسائل في ظل دولتي بني حمود وبني زيري في الأندلس على النحو الآتي:

أولاً– الرسائل الديوانية:

وهي الرسائل الموجهة من الحاكم إلى الولاة أو القادة, وقد توجَّه إلى بعض ملوك الطوائف الأخرى, يبيّن فيها الحاكم حال المسلمين في الأندلس, وما يحيط بهم من أخطار, ومن المؤكد أنَّ الذي كان يتولى الكتابة يكون من كبار الأدباء, ممن يمتلك ثروة لغوية وأدبية ودينية[٦١٦], وقد ضمَّتْ دولتا بني حمود وبني زيري طائفة من الكُتاب المُجيدين, ومِن أبرزهم: أبو جعفر اللمائي, والبزلياني, وابن برد الأكبر, وابن الحناط... وغيرهم.

ومن نماذج الرسائل الديوانية: رسالة لابن برد الأكبر كتَبَها على لسان علي ابن حمود, وكأنَّ الرسالة هي رد على أحد ملوك الطوائف يوصي فيها الخليفة الحمودي بأهل قرطبة, فيقول: "وصيتك بأهل قرطبة وغيرهم مقبولة, ونصيحتك فيهم متبوعة, ولن يروْا مِنّا, ولن تسمع فيهم عَنّا إلّا كما يعجبك, ويسرّك, ويجذبك, ويبهجك, وإنما هدى أدلهم بأولنا, وأسبغ النعم على سلفهم بسلفنا, وهم يؤملون أحنى وأرأف بهم مِنّا, أم هم لمن أتاه الله رُشده, وشرحَ بالإيمان صدره, رغبةٌ عنا, وهل ينكر فضلنا إلّا جاهل, ويدافع حقنا إلّا معاند خاسر"[٦١٧].

---

[١] تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ٣٨٨.

[٢] ينظر: الأدب الأندلسي, سامي يوسف أبو زيد: ٣٠٩, و الأدب العربي في الأندلس: ٤٤٩, والأدب العربي في الأندلس (تطوره, موضوعاته, وأشهر أعلامه): ٤٥٣ و ٤٥٦.

[٣] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ١٠١.

إنَّ علي بن حمود على ثقة تامة من معاملته الحسنة لأهل قرطبة وغيرهم من المدن الأخرى التي كانت تحت سلطانهم, وقد جاء ذلك في كتابه الآنف الذكر, فهو يوضح فيه للآخرين من أنهم لا يلقون من الحموديين إلّا ما يُرضي الله ورسوله, ومن ينكر ذلك فهو جاهل, ومن يبخس حقهم فهو خاسر.

ولعل الخليفة علي بن حمود كان يتصور نفسه خليفة الله في الأرض, فقد جاء ذلك من رسالة له في معنى الرعية؛ فقال فيها: "إنَّ الله تعالى قلدني من رعاية عباده, وحملني من سياسة خلقه, وعصب بي من تدبير أمورهم, وإصلاح شؤونهم, وألزمني من النظر لهم, والعمل بما يصلحهم, ما لا حول فيه ولا قوة عليه إلّا بعونه وتأييده, ولا هداية إلّا بتوفيقه وتسديده, وإنَّ الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح, صلاحهما وفسادهما متصلان, ونماؤهما ونقصانهما مُنتظمان"(٦١٨).

يشعر الخليفة الحمودي بالرعية, ويحبهم, ويلطف بهم, فالرعية من منظور علي بن حمود بمنزلة الروح من الجسد, ومثلما يقول: "صلاحهما وفسادهما متصلان, ونماؤهما, ونقصانهما مُنتظمان".

شعور الخليفة علي بن حمود بالرعية لم يتأتَّ من فراغ, فمن المؤكد أنه قد تشرّب هذه المعرفة, وعرف ما له وما عليه, وكأنَّ قول جدّه الإمام علي (عليه السلام) كان حاضراً أمامه عندما أوصى مالك الأشتر (رضوان الله عليه) في أهل مصر, قائلاً: "وأشعر قلبك الرحمة للرعية, والمحبة لهم, واللطف بهم, ولا تكوننَّ عليهم سَبعاً ضارياً تغتنم أكلهم..."(٦١٩).

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ١٠٢.

(٢) نهج البلاغة: ٤٥١.

تبيّن لنا أثر الإمام علي (عليه السلام) في كلام الخليفة علي بن حمود واضح, فقد صرح هو بذلك في أثناء حديثه عن الرعية في القطعة المذكورة آنفاً, عندما قال: "وهل يؤملون أحنى وأرأف بهم منّا, أم هل لمن أتاه الله رُشده, وشرح بالإيمان صدره", فهو يؤكد للسامع من أنَّ الفرد في حكومته لا يناله الضيم والأذى, ويكون في مأمن عمّا يضرّه ويؤذيه.

ويبدو أنَّ ملوك الطوائف الأخرى كانوا على دراية بعدل الحموديين مع الرعية, وأحقيتهم بالخلافة, فهذا الكاتب الوزير أبو جعفر بن عباس يكتب رسالة عن زهير الصقلبي يذمّ فيها المعتمد بن عباد, ويوجّه إليه أصابع الاتهام في إشعال نار الفتنة[٦٢٠], وفي جزء من هذه الرسالة مدح لإدريس الحمودي, والاتفاق على تعيينه حاكماً على قرطبة, وقد عاد الحق إلى أهله, فهو أحق الناس بذلك, وبه تُطهر المنابر من دنس الأشرار الذين عاثوا فساداً في البلاد, قال فيها: "وكتابي هذا إليكم وقد اتفقت الكلمة في وضع رأس الإمارة على كاهله, ونصل الإمامة في نصابه, وأعدنا الحق إلى أهله, وأصفقنا على بيعة رضيّ واتفاق وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين إدريس المتأيد بالله –أيّده الله– وطهّرنا المنابر من دنس تلك الدعوة المستعارة, وهتفنا بها هتف التباشر, وقامت بها الخطباء على المنابر, وانجلت الغيابة عن فلق الصبح, وأقلعت الظلمة عن وضح الشمس, وأزاح بفضله غصة الشك, وشجى الإفك"[٦٢١].

---

[١] جاء في الرسالة على لسان زهير الصقلبي: "وأشد هذه العصابة المشؤومة ابن عباد الذي سلَّ سيف الفتنة, والبغي من قرابة, واثار بعير الظلم من مَبركِهِ, وانتزى ببطشه أشراً, ومشى في الأرض مرحاً, وظنَّ أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً...". فقد رأى الناس طغيان ابن عباد, وكلام ابن عباس واضح وقد اقتبس كلامه من قوله تعالى: ((وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)) سورة الإسراء, آية (٣٧), و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥١٠.

[٢] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥١١.

هذا اعتراف واضح وصريح بعدل الحموديين, وبأحقيتهم في الخلافة, فبعد ما لاقى الرعية من ضيم على أيدي الحكومات التي جاءت قبل وبعد الحموديين, ولكنهم يعودون من جديد يطلبون النجدة والعون من بني حمود.

وإذا كان الوزير ابن عباس في القطعة المذكورة آنفاً, قد مدحَ فيها بني حمود وبيّنَ حاجة الرعية إلى عدلهم ولطفهم, فهذا الأديب غانم بن الوليد يصف لنا استقبال أهل مالقة لإدريس الحمودي, عندما ولي الخلافة, إذ يقول: "ولم يُحرك المتطوّلُ علينا عَزُّ وجهه بالهدى, أمة محمدٍ (عليه السلام) سُدى, بل نظم شملها بإمامٍ عادلٍ تجتمع إليه وتعوّل عليه يتوارثُه كابراً عن كابر, وتتلقاه غابراً عن غابر, إلى أن أَذِنَ اللهُ للإمام الهاشمي والملك الفاطمي, والفرع العلوي, إدريس العالي بالله بن يحيى المعتلي بالله بن علي الناصر لدين الله بن حمود بن أبي العيش بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب..."(٦٢٢).

يُعرّف غانم بن الوليد في القطعة السابقة بنسب الخليفة الحمودي, فهو ينتمي إلى السلسلة المحمدية, ووارث المجد أباً عن أبٍ, ويبدو أنَّ أهل مالقة قد ضاقوا ذرعاً من الحكومات السابقة, مثلما ضاق غيرهم الذين حدّثنا عنهم الوزير ابن عباس, والأديب غانم بن الوليد في سياق حديثه عن الخليفة الحمودي, يذكر الظلم والحيف الذي لاقاه أهل مالقة في ظل الحكومة التي سبقت ولاية إدريس الحمودي, إذ يقول: "... ولَمّا آن أوان إمامته, حان من عدوّه حين قيامته, وكان مقتلُ العبد الغادر(٦٢٣), –وكافر النعمة كالكافر– في جمادي الآخرة سنة أربع وثلاثين, وفي عشرين ليلةٍ

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥١.

(٢) هو السطيفي, عيّنهُ نجاء الصقلبي بعدما اعتقل إدريس الحمودي, وأراد السيطرة على مالقة والجزيرة الخضراء, ولكن لم يتحقق مرادُه فاغتاله العبيد, وثارت أهل مالقة على السطيفي وقتلوه وصلبوه, وأُخرِجَ إدريس المعتقل من السجن وبويع بالخلافة. ينظر: البيان المغرب, ج٣: ٢٩١, والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٢.

خلت من كانون, فانجلت سمومُ الشتاء بانجلائه, وانقضت أيام الشؤم بانقضائِه, وكان عقب الشهر في استقبال شهر رجب الأصم, سُمّي بذلك لأنَّ العرب أسقطت فيه قعقعة السلاح, وكأنَّ المثل إنما جرى في مضمارٍ على مَفرقِ الليل والنهار, وأرى الناس مخايل السعدِ والإيناس, وهو قولهم: عِش رَجَباً تلقى عَجَباً, وكان هذا العجبُ آخر يوم من الليالي, وقامت فيه دولة هذا الملك العالي, والشمس تأخذ في قعر الفُلكِ في الصُّعود, وتؤذن بجري الماء في العود, وتترقى بالعالم في درج السعود"[٦٢٤].

وكأنَّ الأديب يؤرخ لميلاد يوم جديد يقام فيه العدل والإنصاف, وهو آخر يوم من شهر من شهر رجب الأصب, وأصبح المثل القائل: عش رجباً ترَ عجباً يُتداول على ألسنة الناس, ثم بعد ذلك يوظّف الأديب غانم بن الوليد هذه العبارات: "والشمس تأخذ من قعر الفلكِ في الصُّعود, وتؤذن بجري الماء في العود, وتترقى بالعالم في درج السعود", وقد اعتمدَ فيها على النغم الموسيقي الذي يُضفي جمالاً إيقاعياً يُثير اللذة والمتعة في نفس القارئ.

ومن كُتّاب الدولة الحمودية ابن دراج القسطلي, فمن قطعة نثرية يصف فيها انتصار علي بن حمود في أحد المعارك, إذ يقول: "حسبُك الله, يا بن رسول الله, وعلى هدى من الله فيما خفقت إليه راياتُك, وصدقت به آياتك, جديرٌ أن يُعزُّ بطاعته نصرك, كما شرح بتوفيقه صدرك, ويتم بتأييده أمرك, بما أوليت أولياءُه المؤمنين, وأبليتَ في عباده الصالحين, المصابين في الأموال والأهلين, أيامٌ تزاحمت إليهم أسبابُ القضاء بالبأساء والضرّاء, وأبرقت عليهم آفاق السماء, بسيوف الأعداء, تسُحُّ بوابل الدّماء, وتموج بأسراب السَّباء, فسرعان ما هاموا ولا وزر, وربعُوا ولا مُستقرْ"[٦٢٥].

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥٢.

(٢) ديوان ابن دراج القسطلي: ٥٤٨.

والقارئ لهذا النص النثري, يلحظ فيه العديد من الاقتباسات من القرآن الكريم, ففي قوله: "كما شرح بتوفيقه صدرك" قد اقتبس الكاتب من قوله تعالى: ((أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ...))[٦٢٦], وفي قوله: "فسرعان ما هاموا ولا وزر, وربعُوا ولا مستقر", قد اقتبس الكاتب من قوله تعالى: ((كَلاَّ لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ))[٦٢٧], فالكاتب فضلاً عن توظيفه للسجع الذي يثير المتعة واللذة عند القارئ, يعضد كلامه بكلمات اقتبسها من القرآن الكريم, فالكاتب يراعي مقتضى الحال, فالخليفة الحمودي ينتمي –مثلما هو معروف– إلى النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم), وهذه الاقتباسات تنسجم مع ميول الخليفة الحمودي الذي يعد نفسه امتداد لهذه السلسلة, وظل الله في الأرض.

ومن نماذج الرسائل الديوانية في دولة بني زيري رسالة للبزلياني على لسان حبّوس إلى البرزالي أمير قرمونة[٦٢٨], ويبدو أنَّ الأخير قد أرسل برسالة إلى حبوس ينصحه في الخروج على جماعتِه, ولكن حبوس يرفض نصائح البرزالي, ويعزم على الثبات والتماسك, فيقول: "من النصح تقريع, ومن الحِفظ تَضييع, ولكل مقامٍ مقال, إذا عُدّي به عنه استحال, ووصل إليَّ منك كتابٌ طمستَ منحاه, وعميت معناه, أومأت فيه إلى النصح, ودللت على سبيل النَّجح, فوقفت على فصوله ومعانيه, وأحطتُ علماً بجميع ما فيه, ولم يكن لمن أوحشت جهتُه, وتغيرت مودته أن يدخل مدخل الناصحين, وقد خرج من جملة المشفقين, وكان بالجملة أوَّلهُ سباب [وآخره إعجاب],

---

(١) سورة الانشراح, الآية (٨).

(٢) سورة القيامة, الآية (١١).

(٣) هو عبد الله بن برزال, بويع بقرمونة سنة (٤٠٠هـ), استطاع بسط نفوذه فجمعَ رجالها, ورتّب جنودها, وحَكَمَ بالعدل, وهو فضلاً عن هذا وذاك كان شجاعاً باسلاً ولكنه على ما يبدو كان على عدم توافق مع البربر. ينظر: البيان المغرب, ج٣: ٣١١.

والسباب لا ينطق به كريم, والإعجاب لا يرضى به حليم, وقد نزهني الله عن المقارضة بهذا أو مثله"[629], وما أحسن قول القائل:

وتجهلُ أيدينا ويَحلُم رأيُنا ... ونَشْتِمُ بالأفعال لا بالتكلُم[630]

وقد قرأ حبوس كتاب البرزالي وتأمَّله جيداً, ويبدو أنَّ البرزالي يريد أنْ يوقع بين حبوس وبين بني عمّه في المغرب؛ لأنَّ هناك فصل من الرسالة قد ذكر فيه هذا الأمر على لسان حبوس, إذ يقول: "وما ذكرته من الذي بين الطائفتين من بني عمنا بالعدوةِ, فكل أمر بقدر, ولكل نبأ مستقر, والدنيا أحوال, والحرب سجال, وخير هم وشرهم عنّا بعيد, وكلٌّ من نصرك وأيّدك فهو القريب الودود, وإنْ تفرقت الآباء والجدود, ومن شَذَّ عن الجماعة وفرقها ونابذَها وشاقّها فهو الجاني على نفسه وعليها..."[631].

كان حبوس على قدر عالٍ من التماسك والحكمة, فبعدما فهم مراد البرزالي, رَدَّ عليه بحكمة وسياسة نابعة من خبرته الطويلة والممتدة, وفي ثنايا الرسالة هجاء للبرزالي, فمثلاً ذِكره للبيت القائل:

وتجهلُ أيدينا ويَحلُم رأيُنا ... ونَشْتِمُ بالأفعال لا بالتكلُم

هنا في هذا البيت يُعيب فعل البرزالي في استعماله للشتم والسُباب, فهو مختلف عنه تماماً, وفيه إشارة أيضاً إلى سوء خلقه, وحبوس قد ترفع عن هذا الفعل مثلما قال: "وقد نزهني الله عن المقارضة بهذا ومثله...", وبعدما ترفّعَ عن السُباب والشتائم, ينتقل ليرفض نصائحه, فالذي يتفرق عن قومه وعشيرته يكون قد جنى عليه وعليها.

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق1: 478.

(2) شرح المرزوقي: 750.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق1: 479.

ويبدو أنَّ ما حدث مع حبوس قد حدث مع يحيى المعتلي في إشبيلية؛ لأنَّ ابن بسام بعد ذكره لهذه القطعة النثرية, يعلّق عليها بقوله: "وذكرتُ بإنشاده: ((وتجهل أيدينا))... البيت, ما حُدثت به عن يحيى بن علي المعتلي في أيام محاربته لإشبيلية, وبعض الرَّجالة, يعلن بثلبه ويصرح أقبح التصريح بسبّه وهو يظنّ أن قد تحصن منه بالأسوار..."(٦٣٢).

وقد وجّه حبوس رسالة إلى أحد ملوك الطوائف بخطّ البزلياني, يرفض فيها الاستعانة بالنصارى, فيقول: "وأنكم اضطررتم إلى إخراج كل فريقٍ منكم النصارى إلى بلاد المسلمين, فنظرت في الأمر بعين التَّحصيل, وتأوَّلته بحقيقة التأويل, فعظم قلقي, وكثّر على المسلمين تشفّقي في أن يطأ أعداؤهم بلادهم, ويؤتِموا أولادهم, ويتَّسع الخرق على الرّاقع, وينقطع طمعُ التَّلاقي على الطامع"(٦٣٣).

يخشى حبوس على المسلمين من الفتنة, فهو بعد تمحيصه للأمر أصبح قلقاً, فتدخّل النصارى في شؤون المسلمين أمر ليس بالهيّن, فالمسلمون فيما بينهم نزاعات بين ملوك الطوائف, فما بالك إذا تدخّل الأجنبي بينهم, من المؤكد سيتّسع الخرق على الراقع, وهناك رسائل أخرى كتَبَها البزلياني عن لسان حبوس(٦٣٤).

وكان ملوك بني زيري يجيدون الكتابة, فهذا بلقين بن باديس, يكتب نصّاً بخطّ يده, يعيِّن فيه أبو عبد الله بن الحسن الجذامي وزيراً وقاضياً في مالقة, قال فيه: "هذا ما التزمه واعتقدَ به بلقين بن باديس, للوزير القاضي أبي عبد الله بن الحسن الجذامي –سلّمه الله– اعتقدَ به إقراره على خطة الوزارة والقضاء في جميع كُوَره, وأن

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٨٠ وما بعدها.

(٢) م. ن:٤٨٠.

(٣) وللبزلياني رسالة عن حبوس إلى أمير شاطبة يتحدث فيها عن الفتن والاضطرابات التي حدثت في الأندلس, ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٨٢.

يجري من الترفيع والإكرام له إلى أقصى غاية, وأن يُحمل على الجزية في جميع أملاكه بالكُوَر المذكورة, حاضرتها وباديتها الموروثة, والمكتسبة القديمة الاكتساب والحديثة..."[٦٣٥].

لا يخرج النص عن أن يكون كلاماً قد ذكر فيه بلقين بن باديس تفصيلات تعيين القاضي أبو عبد الله بن الحسن الجذامي, ما لهُ وما عليه, وقد علّق لسان الدين الخطيب على هذا النص بقوله: "ولا شك أنَّ هذا المقدار يد على نبل, ويعرّف عن كفاية"[٦٣٦].

يعترف لسان الدين بن الخطيب بالفضل لبلقين, ويشيد بأخلاقه, وبمقدرته في كتابة مثل هذه النصوص المتعلقة بالتولية والعزل.

ومن الأدباء الذين ترددوا على غرناطة في عهد بني زيري, ابن شرف القيرواني, ففي إحدى المرات أهدى الأديب ابن شرف كتابه الموسوم بـ (أبكار الأفكار) إلى باديس بن حبوس, وطرّزه برسالة فيها ما فيها من المدح والثناء على الدولة الزيرية في غرناطة, قال فيها: "... ثم سفَر لي الدهرُ عن سفرٍ إلى مغرب الدنيا وشرف العليا والبقعة المباركة الباديسية, والدولة المظفرية, والمملكة الشاملة الحميرية, والحضرة الشريفة المنيفة الغرناطية..."[٦٣٧].

وما هذه الكلمات التي ذكرها ابن شرف إلّا إشارات على أنَّ الدولة الباديسية قد ساندت دولة بني حمود, وانضوت تحت لوائها, فهي امتداد لهذه الأسرة, ولهذا أصبحت غرناطة بقعة مباركة, وشامخة, وحضرة شريفة, في نظر ابن شرف القيرواني.

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٤٣٣, و تاريخ قضاة الأندلس: ٩١ وما بعدها.

(٢) م. ن: ٤٣٣.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ١٢٥.

ومن الكُتاب الذين عاشوا في كنف الدولة الزيرية في غرناطة, المنفتل, ولكنه لم يمدح بني زيري, ولم يكتب عنهم رسالة أو شيئاً من هذا القبيل, ولكن المنفتل وجّهَ أشعاره وكتاباته إلى الوزير ابن النغريلة اليهودي, وقد تحدثنا عن أشعاره التي قالها في حق هذا الوزير اليهودي في سياق حديثنا عن مديح الوزراء, وفي هذا الموضع نعرض نموذجاً نثرياً يمدح فيه النغريلة ويُضفي عليه بعض من الصفات التي قد لا يستحقها, فيقول: "... إن خاطب أوجز, وإن غالب أعجز, أو جادَ أجاد أو وعد أعاد, يأمر ويمير, ويأجر ويجير, مأوى السماح والضيف ورحلة الشتاء والصيف, حامي الذَّمار, بعيدُ المضمار, لا يظلم نقيراً, ولا يخيب فقيراً, يحافظ على صِلاتِه حفظِهِ لصلاتِه, ويحن إلى البذلِ, حنين الغريب إلى الأهل"[٦٣٨].

ابن النغريلة في نظر المنفتل إنسان قَلَّ نظيره, فهو مقتنع بأنه نسيج وحده, فهو في خطابه بليغ, وفي الكرم جواد, ومأوى للضيف في الشتاء والصيف, ولا يظلم أحداً قط, وعلاقته بالمجتمع علاقة متماسكة, فهو يحافظ على صِلاتِه كما يحافظ على صلواته, استعمل المنفتل هذه العبارات وهذه الأنغام الصوتية: (الذمار, المضمار, نقيراً وفقيراً...), والهدف من ورائِها هو خلق نغم موسيقي يساعد الكاتب في تحقيق اللذة والمتعة للمتلقي, ومن ثَمَّ إقناعِه بهذه الأساليب, والأمر الآخر هو اقتباس الكاتب لبعض العبارات من القرآن الكريم, مثل: (لا يَظلمُ نقيراً), فقد اقتبسها من قوله تعالى: ((فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً))[٦٣٩].

ويمكن رصد ملامح فنية انمازت بها الرسائل الديوانية في ظل دولتي بني حمود وبني زيري في الأندلس, وإيجازها على النحو الآتي:

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ٥٨٠.

(٢) سورة النساء: الآية (١٢٤).

١- الميل إلى السجع المعتدل, كما في قول البزلياني: "... فكل أمر بقدر, ولكل نبأ مستقر..." [٦٤٠], وقوله أيضاً: "الدنيا أحوال والحرب سجال..."[٦٤١].

ويتبيّن من النصين السابقين كيف كانت الألفاظ رنّانة, لا غثة فيها[٦٤٢], فضلاً عن تساوي الفقرتين في السجع؛ إذ لم تكن الفقرة الثانية أطول من الأولى[٦٤٣].

٢- ومن النظرة العامة للرسائل الديوانية, نجد أنها تُفصح عن سهولة الألفاظ, كما في قول ابن برد الأكبر, على لسان علي بن حمود: "إنَّ الله تعالى قلدني من رعاية عبادِه, وحملني من سياسة خلقه, وعصب لي من تدبير أمورهم, وإصلاح شؤونهم, وألزمني من النظر لهم, والعمل بما يصلحهم..."[٦٤٤].

إنَّ توظيف الكاتب هذه الألفاظ السهلة والبسيطة في القطعة المذكورة آنفاً؛ لكي "يحاكي بذلك طبيعة العصر وأحوال المجتمع, وبساطة الحياة الأندلسية ومباهجها, على أنَّ هذه السهولة لا تعني بحال من الأحوال انحدار لُغتِهِ إلى مستوى العامي وغير الفصيح, فالألفاظ فصيحة, والتراكيب بليغة... فهي الأقدر على التداعي مع مشاعر القارئ وأحاسيسه, وتدفع به إلى الانفعال والتفاعل مع الحدث..."[٦٤٥].

---

[١] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٧٩.

[٢] م. ن, ق١: ٤٧٩.

[٣] ينظر: تطور الأساليب النثرية, أنيس المقدسي: ٢٠٨.

[٤] ينظر: م. ن: ٢٠٨.

[٥] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ١٠٢.

[٦] ديوان ابن الأبّار الخولاني (٤٣٣هـ), د. محمد حسين المهداوي, و د. عدنان محمد آل طعمة: ٣٦.

٣- الاقتباس من القرآن الكريم, كما في قول ابن دراج القسطلي يصف انتصار علي بن حمود في إحدى المعارك: "... كما شرح بتوفيقه صدرك..."(٦٤٦), فقد اقتبس الكاتب من قوله تعالى: ((أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ))(٦٤٧), وقوله أيضاً: "فسرعان ما هاموا ولا وزر, وربعوا ولا مستقر"(٦٤٨), فقد اقتبس الكاتب من قوله تعالى: ((كَلاَّ لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ))(٦٤٩).

ويرى الباحث في سبب توظيف الكاتب لأسلوب الاقتباس من القرآن الكريم, إنه قد ينسجم مع انتماء الدولتين المعروفتين بعقيدتهما وانتمائهما لأهل البيت النجباء (عليهم السلام).

٤- أحسن الكاتب في صياغة الجمل وتراكيبها كما في قول غانم بن الوليد في إدريس الحمودي: "بل نظم شملها بإمام عادل تجتمع إليه وتعول عليه بتوارثه كابراً عن كابر, وتتلقاه غابراً عن غابر..."(٦٥٠), وقول بلقين: "... وأن يجري من الترفيع والإكرام إلى أقصى غاية, وأن يُحمل على الجزية في جميع أملاكه بالكور المذكورة..."(٦٥١).

والكاتب في هذا "يسير على النظام العام للجملة العربية, ويلتزم بقوانينها النحوية, مما يدل على تمكنه من أدواته في اللغة والنحو"(٦٥٢).

---

(١) ديوان ابن درّاج القسطلي: ٥٤٨.

(٢) سورة الانشراح, الآية (١).

(٣) ديوان ابن دراج القسطلي: ٥٤٨.

(٤) سورة القيامة, الآيتان (١١-١٢).

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٥١.

(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة, ج١: ٤٣٣.

(٧) ديوان ابن الأبّار الخولاني (٤٣٣هـ): ٣٦.

ثانياً- الرسائل الإخوانية:

وهي نوع من الرسائل المتبادلة بين الأدباء, يكون مدارها العلاقات الاجتماعية, والمشاعر الخاصة بين الأدباء من عتاب, وهجاء, وشكوى واستعطاف... وغيرها(٦٥٣).

ومما ساعد على انتشارها بين الناس ظهور طبقة من الأدباء من الذين جمعوا بين الصناعتين (الشعر والنثر), انصبّ اهتمامهم بالعناية بتجويد الكلام وأساليبه(٦٥٤), ويُعد هذا النوع من الرسائل ميداناً واسعاً أتاح للأدباء التعبير عن قرائحهم والتنافس فيما بينهم(٦٥٥).

ومن نماذج الرسائل الإخوانية في ظل الدولتين, رسالة للأديب غانم بن الوليد يمدح فيها الأديب أبو الحسن الحصري القيرواني, إذ يقول: "ما أفصح لسانك, وأفسح ميدانك, وأوضح بيانك, وأرجح ميزانك, وأنور صباحك, وأزهر مصباحك, أيها السابق المتمهل في ميدان النبل, والسامق المتطول بفضائل الذكاء والفضل..."(٦٥٦).

يعترف غانم بن الوليد بفضل الحصري في الكتابة, فثقافة الحصري وذهنه المتوقد مَكَّناه من بلوغ هذه المنزلة الشاهقة في الكتابة, وفي هذه القطعة المذكورة آنفاً, دلالة واضحة على المنزلة التي وصلت إليه الكتابة في ظل دولة بني زيري, إذ أصبح الأدباء يطلقون الأحكام النقدية على أعمال الكُتاب الآخرين, مما يدل دلالة واضحة على ازدهار الكتابة آنذاك.

---

(١) ينظر: الأدب الأندلسي, د. سامي يوسف أبو زيد: ٣١٣.

(٢) الأدب الأندلسي, د. سامي يوسف أبو زيد: ٣١٣, و الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه), د. مصطفى الشكعة: ٥٩٦.

(٣) ينظر: الأدب العربي في الأندلس, عبد العزيز عتيق: ٤٥٤.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥٤٦.

إذا كان غانم بن الوليد في القطعة المذكورة آنفاً, قد أنزلَ الأديب الحصري القيرواني المنزلة التي يستحقها, فهذا البزلياني كان قد توجّهَ لزيارة أبي جعفر بن عباس, ولكن على ما يبدو أنَّ الأخير لم يوفه حقه, فكَتَبَ إليه يقول: "كُلف المروءة –أبقاك الله– صعبةٌ إلّا على الكرام, وطرف الجفاء رحبةٌ لسلوك اللئام, والأحمقُ يرى البِرّ خُسران, ويعتقد إكرام الوافدين نقصاناً..."[٦٥٧].

البزلياني متأثر من أبي جعفر, ولهذا هو يعرّفه في القطعة السابقة إنَّ الإنسان الذي لا يُحسن إكرام الضيف, ولا يُقيم له وزناً هو خسران في مقاييس السنن الاجتماعية, والذي يقرأ ما كتبه ابن بسام عن أبي جعفر, لا يستغرب من كلام البزلياني فيه, فقد فاقَ أهل زمانه في أربعة: المال والعجب, والبُخل والكتابة, وهي أقل الأربعة[٦٥٨].

لكن البزلياني في نص آخَر كتَبَهُ إلى شخص يدعى ابن عبد الرحيم[٦٥٩], وعلى ما يبدو أنه كان من الوجهاء, وكانت تربطه صلة وثيقة بالبزلياني, فهذا الشخص كان على النقيض تماماً من أبي جعفر, وكان يتمتع بالوفاء, والإخلاص؛ ولهذا البزلياني لم يوفِهِ حقّه من المدح حتى لو جعل له النجوم قلائد, فمن جملة ما جاء في هذه الرسالة, قوله: "طيب ثنائك ثنى إليك أنسي, وغريب وفائك أفاء عليك نفسي, والثناء النفيس شركُ النفوس, وفعل المحبوب مصائد القلوب, ومَن كان الفضل من أنصاره, اجتمع على إيثاره, حين طلعت من سماء فضلك نجومه..."[٦٦٠].

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٨٤.

(٢) م. ن, ق١: ٤٩٢.

(٣) لم أعثر على ترجمة له.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٨٤

وقد صوَّر النثر الأندلسي حياة اللهو التي عاشها الأديب في ظل دولة بني حمود, وخير من يمثّل هذا النوع هو ابن الحناط, فقد كتب رسالة طردية وصفَ فيها كل ما يتعلق بهذه الرحلة, من صيد وركوب في البحر, ووصف المكان, وحالة الطقس, ومجلس الشراب الذي عقدَه مع أصحابه(٦٦١), ومن جملة ما جاء في هذه الرسالة قطعة وصف فيها تعاطيهم الغذاء, وكيف تم تجهيزه, ومن بعد ذلك عقدوا مجلس للخمرة والغناء, قال فيها: "فلما قرب وصفّ الشواء وصُب, تعاطيْنا لحماً كالعقيق, وتهادينا شحماً كالشقيق, ثم قام كلٌّ إلى جواده يمشي..."(٦٦٢).

وبعد ذلك يصف لنا مجلس اللهو الذي تم عقده, فيقول: "وجعلت الكأس تدور ولا حديث يُسقى بها, غير هاكَ, وهاتها... تنفس الصبح من طرفه وعسعس ليل الشعر من فوقه"(٦٦٣).

على الرغم من أنَّ هذه القطعة الأخيرة كانت في وصف مجلس الأنس, إلّا أنَّ الكاتب قد اقتبس من القرآن الكريم, فكلمة (تنفس, وعسعس), مأخوذة من قوله تعالى: ((وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ))(٦٦٤).

كَتَبَ ابن الحناط هذه الرسالة بأسلوب قصصي جميل, وهو ما يُحسب من باب التجديد في النثر الأندلسي في المدة التي عاشها الأديب في ظل بني حمود.

ومن الظواهر الاجتماعية التي كانت تجري بين الأدباء: الهدية, وهي نوع من التعبير عن مظاهر المحبة والأخوّة الصادقة بين الأدباء أنفسهم, بغضّ النظر عن

---

(١) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٢٢٣-١٤١.

(٢) م. ن: ج٢, ٢٢٤.

(٣) م. ن: ج٢, ٢٤٤.

(٤) سورة التكوير: الآيتان (١٧-١٨).

نوعيتها أو قيمتها(٦٦٥), والهدية إحدى السُبل لدفع الحقد أو كسب الود, ولم يقتصر أمرها على المال وإنما تفننوا في ذلك على قدر عقولهم وميولهم, أو غناهم وفقرهم(٦٦٦).

ومن جملة ما كان يتهادى الأدباء فيما بينهم في ظل دولة بني زيري, الفاكهة, فهذا البزلياني قد كتب مع هدية أهداها إلى أحد الاصدقاء وهي من الفاكهة وهو التفاح(٦٦٧), وقد كتَبَ مع الهدية قطعة نثرية, عبّر فيها عن مشاعره النبيلة تجاه صديقه, إذ قال: "لو لم تكن نفسي لكَ لأهديتها إليك, ولولا أنه حقك اثبته لديك, لجلوت وجه مودّتي عليك, متوَّجاً بطيب الذكر يرفل في حلل الشكر, وما عسى أن يُهدي الغريق في بحار بِرّك, والمنقطع في مضمار شكرك, لكن لكَ الإبداء بالفضل والإعادة, ولِيَ الاقتداء والجري على العادة, في إهداء الحقير إلى الخطير, ومقابلة الجليل بالقليل, فما قصرت مقدرته, من أطالت مكارمك معذرته"(٦٦٨).

إذا كان البزلياني قد عبّر عن عظيم امتنانه لصديقه, وحجم تقصيره تجاهه في القطعة المذكورة آنفاً, فهذا المنفتل قد بعثَ إلى صديقه (أترجة), وكتبَ معها رسالة شَرَح فيها فضائل هذه الثمرة, إذ قال: "وقد بعثتُ إليك من نبات الثمار أجملها, ومن نتائج البستان أفضلها, لم تطرفها عين أحد, ولا باشرها بشرٌ بيد, قد صيرت من الأغصان خِدراً, وأرسلت من الأوراق ستراً, فلمّا تكامَلَ حُسنها, ومادَ بها غُصنها, وارتوت من ماء الجمال, وصارت في نصاب الكَمال, هتكت سترها..."(٦٦٩).

---

(١) ينظر: النثر الأدبي في القرن الخامس الهجري (مضامينه وأشكاله), ج١: ٣٤٩.

(٢) ينظر: التحف والهدايا: ١٢.

(٣) ينظر: النثر الأدبي في القرن الخامس الهجري (مضامينه وأشكاله), ج١: ٣٥١.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤١٢.

(٥) م. ن, ق١: ٥٧٤.

وهذا النموذج مثلما أسلفنا يختلف عن القطعة السابقة, فهو "وصفَ الفاكهة المهداة, وربطَ المعنى بين نعوتها وشمائل المهداة إليه, وتحميلها التعبير من ألوان من المودّة الخالصة"(٦٧٠). وغاية ما في النصّيْن هو كسب رضا الصديق, ولكن اختلفت الطريقة, وهذا ما يعكس لنا التفنّن في الأساليب وتنوّعها, وهو ما يصبّ في ازدهار حركة الكتابة في ظل الدولتين.

ومن جملة الرسائل التي عبّر فيها الأدباء عن صفاء المودّة والإخلاص فيما بينهم, رسالة كَتَبَها غانم بن الوليد إلى أحد إخوانه في غرناطة, وهي على ما يبدو جواباً له, وفيها من الألفاظ الرقيقة العذبة التي من شأنها أن تدخل إلى القلب مباشرةً, وقد وظَّفَ فيها الكاتب ما ينسجم مع مقتضى الحالة, إذ يقول: "... ورَدَني – أعزك الله– كتابٌ أَلَذُّ من مراشف الأحباب, وخطابٌ أرقُّ من معاني أبي الخطاب –عمر بن أبي ربيعة– فلهُ على علمك معانٍ بديعة, جلوت منها زهرَ المعاني في رياض الشعر, وعروس الأماني في نثار النثر, وتَبَسَّمَ لي عصرُ الربيع قبل أوانه, فتقسَّم ناظري بين شقائقهِ وحوذانه..."(٦٧١).

اختارَ غانم بن الوليد من الألفاظ أطيبها وأعذبها, وقد استولت الطبيعة على أحاسيسه, وعبّر عنها في هذه القطعة, فقد شَبَّهَ كلامه بفصل الربيع, وأخذَ يعدّد محاسنه, فالطبيعة الأخّاذة مثلما استولت على أشعارهم, انسحبت إلى كتاباتهم, وهذا الأمر يُحسب لهم, وينضوي ضمن الموضوعات الجديدة التي كَتَبَ عنها الناثر الأندلسي في ظل دولة بني زيري.

ومن نماذج الرسائل الأخرى, رسالة لابن حزم الأندلسي, جاءت ردّاً على اعتراضات اليهودي على بعض الآيات من القرآن الكريم, وقد افتتح ابن حزم

---

(١) النثر الأدبي في القرن الخامس الهجري (مضامينه وأشكاله), ج١: ٣٥٢ وما بعدها.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٤٧.

الأندلسي الرسالة بذمّ ملوك الطوائف, إذ قال: "اللهم إنّا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملّتنا بدنياهم عن إقامة دينهم, وبعمارة قصور يتركونها عمّا قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم, وبجمع أموال ربما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم وعوْناً لأعدائهم عليهم..."[٦٧٢].

ويستمر ابن حزم في النصح وتوجيه اللوم على ملوك الطوائف الذين كانوا السبب في وصول الحال إلى ما هي عليه, الأمر الذي أدّى إلى جسارة هذا اليهودي على كتاب الباري -جَلَّ وعَلا-.

تنقسم الرسالة على قسمين, في الأول: عالج فيه ابن حزم المشكلات التي أثَارها ابن النغريلة, ورَدَّ على كل مشكلة في فصول ثمانية, وهو يعضد ردّه بانتقاده لبعض المسائل التي وردت في التوراة[٦٧٣].

والقسم الثاني: ذكرَ فيه ابن حزم ما قَصَّ الله علينا من كُفْرهم في القرآن الكريم, فضلاً عن ذكره لمثالبهم في التوراة[٦٧٤].

ومن جملة ما جاء في الرسالة في فصلها الأول, قوله: "فكان أول ما اعترضَ به هذا الزنديق المتستر باليهودية, على القرآن الكريم بزعمه أن ذكر [قول] الله عز وجل: ((وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ))[٦٧٥]"[٦٧٦].

---

(١) الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى: ٤٣.

(٢) ينظر: م. ن: ١٩.

(٣) ينظر: م. ن: ١٩.

(٤) سورة النساء: الآية (٧٨).

(٥) الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى: ٤٧.

ويعلّق ابن حزم على كلام ابن النغريلة, بقوله: "قال هذا المائق الجاهل: فأنكر هذه الآية تقسيم القائلين بأنَّ ما أصابهم من حسنةٍ فمن الله وما أصابهم من سيئة فمن عند محمد أو أخبر أنَّ كل ذلك من عند الله, ثم قال في آخر هذه الآية: ((مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ))[٦٧٧], قال هذا الزنديق الجاهل, فعاد مصوباً لقولهم ومضاداً لِما قدم في أول الآية"[٦٧٨].

وقد رَدَّ ابن حزم على زعمه, بقوله: "لو كان هذا الجاهل الوقاح أقل بسطة أو أدنى حظ من التمييز لم يعترض بهذا الاعتراض الساقط الضعيف, والآية المذكور مكتفية بظاهرها عن تكلّف تأويل, مستغنية ببادئ ألفظها عن تطلّب وجه لتأليفها, ولكن جهله أعمى بصيرته وطمسَ إدراكه, وبيان ذلك أنَّ الكفار كانوا يقولون: إنَّ الحسنات الواصلة إليهم هي من عند الله عز وجل, وأنَّ السيئات المصيبة لهم في دنياهم هي من عند محمد صلى الله عليه وآله وسلم, فأكذبهم الله تعالى في ذلك, وبيّن وجه ورود حسنات الدنيا وسيئاتها على كل من فيها, بأنَّ الحسنات السارة هي من عند الله تعالى بفضله على الناس, وأنَّ كل سيئةٍ يصيب الله تعالى فيها إنساناً في دنياه, فمن قبل نفس المصاب بما يجني على نفسه من تقصيره فيما يلزمه من أداء حق الله تعالى..."[٦٧٩].

تنضوي هذه الرسالة تحت رسائل النقد الاجتماعي التي تعالج بعض الأمراض الاجتماعية التي كانت سائدة يومئذٍ, وجهل الوزير ابن النغريلة بالقرآن الكريم واضح من ردود ابن حزم عليه, فجملة من المسائل قد التبست على ابن النغريلة, وقد استطاع ابن حزم الرد بشكل منطقي وسليم, ولكن قد تخلو هذه الرسالة من بعض

---

(١) سورة النساء: الآية (٧٩).

(٢) الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى: ٤٧.

(٣) م. ن: ٤٨.

الجوانب الفنية, فلم نسمع بالنغم الموسيقي الذي يضفي على اسلوب الرسالة نغماً موسيقياً قد يُلقي بظلاله جمالية على النص الأدبي, ولكن مهما يكن من أمر فالرسالة قيمة كبيرة؛ إذ صوّرت لنا مدى الثقافة الواسعة التي يتمتع بها الأديب, وتقبّل الدولة لهذا النقد وهذا الذم, فلم نسمع أنَّ أحد ملوك بني زيري قد اعترض على الأديب ابن حزم, وهو ما يصور لنا مدى الحرية التي كان يتمتع بها الأديب في عهد بني زيري.

ويمكن رصد ملامح فنية انمازت بها الرسائل الإخوانية في ظل دولتي بني حمود وبني زيري, وإيجازها على النحو الآتي:

١- الميل إلى السجع المعتدل, كما في قول غانم بن الوليد, حينما يمدح الأديب الحصري القيرواني, إذ يقول: "ما أفصح لسانك, وأفسح ميدانك, وأوضح بيانك, وأرجح ميزانك"[٦٨٠], وقول البزلياني: "... متوجاً بطيب الذكر, يرفل بحلل الشكر, وما عسى أن يُهدي الغريق في بحار برّك, والمنقطع في مضمار شكرك..."[٦٨١].

وقد تبيّن لنا من النصين السابقين كيف تساوي الفقرات في السجع, فضلاً عن الجمل القصيرة, وهو ما صُنّف من أفضل أنواع السجع[٦٨٢].

٢- الاقتباس من القرآن الكريم, كما في قول ابن الحناط الكفيف: "تنفس الصبح وطرفه, وعسعس ليل الشعر من فوقه"[٦٨٣], فقد اقتبس الكاتب كلمة (تنفس, عسعس) من قوله تعالى: ((وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ))[٦٨٤], وكأنَّ الكاتب تعمّد

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٦٤٨.

(٢) م. ن, ق١: ٤٩٢.

(٣) ينظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي: ٢٠٨.

(٤) خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٢٤٤.

(٥) سورة التكوير, الآيتان (١٧-١٨).

في اختيار مثل هذه الألفاظ وتوظيفها في النص السابق؛ لكونها في رأيه تنسجم مع جوّ النص ومناسبته.

٣- خلت بعض الرسائل من بعض الجوانب الفنية, فقد جاءت بصورة مباشرة وتقريرية, ولكنها على أيّة حال مثّلتْ قيمة تاريخية وأدبية, كما هو الحال في رسالة ابن حزم الأندلسي التي ردّ فيها على ابن النغريلة اليهودي.

٤- خلو الرسائل من المقدمات, والميل إلى عدم الاستهلال بالحمد والصلاة, وقد يكون هذا الأمر مقصوداً من لدن الكاتب؛ لكي ينماز عن نظيره الكاتب المشرقي[٦٨٥].

٥- سهولة الألفاظ, والبعد عن التقليد, كما في قول البزلياني: "طرق الجفاء رحبة لسلوك اللئام, والأحمق يرى البر خسران, ويعتقد إكرام الوافدين نقصاناً..."[٦٨٦].

فضلاً عن توظيفهم للكلمات الرقيقة واللينة والتي من شأنها أن تنسجم مع نوعية هذه الرسائل؛ كونها متبادلة بين الأدباء أنفسهم, كما في قول البزلياني أيضاً: "لو لم تكن نفسي لك لأهديتها إليك, ولو لا أنه حقك أثبته لديك, لجلوت وجه عودتي عليك..."[٦٨٧].

ومن خلال استقرائنا للرسائل في ظل دولتي بني حمود وبني زيري بنوعيها الديوانية والإخوانية, توضَّحَ لنا من أنَّ كِلا النوعين لا يختلف عن بعضها البعض

---

(١) ينظر: الأدب الأندلسي (من الفتح حتى سقوط غرناطة): ١٤٦.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٩٢.

(٣) م. ن, ق١: ٤٩٢.

من حيث الصناعة, ولكن الاختلاف يكمن في الغرض والمرسل إليه, فالرسالة الديوانية تكون صادرة من الحاكم أو الملك, بينما الإخوانية تتناول أغراضاً شتى(٦٨٨).

وخلاصة القول: جاءت الرسائل الديوانية والإخوانية صورة صادقة تحكي واقع الحياة التي عاشها الادباء في ظل دولتَيْ بني حمود وبني زيري, وقد تنوعت أساليبهم في التعبير؛ لبيان مقدرتهم الفنية في الكتابة, والتفوق على أقرانهم من أدباء وملوك الطوائف, فضلاً عن طغيان أسلوب الاقتباس من القرآن الكريم في كثير من الرسائل, وهو ما ينسجم مع انتماء الكاتب إلى دولتي بني حمود وبني زيري المعروفة بعقيدتها وانتمائها, وقد جاءت بعض الرسائل خالية من بعض الجوانب الفنية كالسجع وغير ذلك الذي يُضفي على الرسالة نغماً موسيقياً ويحقق المتعة عند القارئ, ولكنها مثّلتْ قيمة تاريخية وأدبية تَعَرَّفنا من خلالها على الثقافة الواسعة التي كان يتمتع بها الأديب في ظل الدولتين, ومثالاً على ذلك رسالة ابن حزم في الرد على ابن النغريلة.

ومن الجدير بالذكر: إنَّ الباحث لم يعثر خلال دراسته للنثر الفني على خطبة سياسية أو دينية أو اجتماعية قيلت في ظل الدولتين, فقد تكون ضاعت مثلما ضاع غيرها من المؤلفات.

---

(٤) ينظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي: ٣٢٣.

ثالثاً- الأمثـال:

للعرب نصيب وافر من الأمثال والعبارات التي تحكي واقع الحياة, فهي عصارة تجارب الأجيال المتعاقبة, وقد صاغوها وبلوروها من خلال حوادث الدهر ووقائع الأيام(٦٨٩), "ولما عرفت العرب أنَّ الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام, وتدخل في جُلِّ أساليب القول, أخرجوها في أقواها من الألفاظ؛ ليخف استعمالها ويسهل تداولها؛ فهي من أجلِّ الكلام وأنبله, وأشرفه وأفضله, لقلّة ألفاظها, وكثرة معانيها, ويسير مئونتها على المتكلم, مع كبير عنايتها, وجسيم عائدتها"(٦٩٠).

إنَّ الإيجاز والتركيز والوضوح والبيان من أهم مميزات المثل العربي, بما يحمل من خبرة طويلة عاشها الفرد تمس الجوهر الإنساني في الصميم, ولهذا يسهل تداوله وتنقله عبر العصور(٦٩١).

وإذا استقرأنا أغلب الأمثال العربية القديمة, وأمعنّا النظر في أسلوبها ولغتها, وجدناها تسير في اتجاهين:

الأول: إنها تمثّل لغة العرب القديمة في أسلوب خطاباتهم العادي.

والثاني: جرى عليها بعض التغييرات, فالرواة قاموا بتهذيبها فوصلت إلينا على غير صورتها الأصلية(٦٩٢).

ويبدو أنَّ جميع الأمثال العربية القديمة التي انمازت بالإيجاز الشديد, قد كثر فيها الحذف والتعديل(٦٩٣).

---

(١) ينظر: أدب الأمثال والحكم, طالب السنجري: ٥.

(٢) كتاب جمهرة الأمثال, أبو هلال العسكري, ج١: ٤ وما بعدها.

(٣) ينظر: أدب الأمثال والحكم: ٦.

(٤) ينظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي: ٨٦.

وليس ما تقدّم ذكره ببعيد عن الأندلس, فقد انمازت هذه الحقبة من الدراسة بعدد هائل من الأمثال العربية, سواء كانت مشرقية الأصل أم استحدثتها البيئة الأندلسية يومئذ(٦٩٤).

ويبدو أنَّ الأندلسيين كانوا شديدي العناية بالأمثال, وعنايتهم بالأمثال لا تقل أهمية عن عناية المشارقة, وقد عقد محقق كتاب (أمثال العوام في الأندلس) فصلاً سمّاه (الأمثال الفصحى في الأندلس), ذكرَ فيه تاريخ الأمثال في الأندلس من القرن الأول الهجري ولغاية القرن السادس الهجري(٦٩٥).

ومن خلال استقرائنا للأمثال الأندلسية في ظل دولتي بني حمود وبني زيري في الأندلس, وجدناها تسير في اتجاهين:

الأول: أمثال ذات أصول مشرقية, فقد وردت في كتابات الملك عبد الله آخر ملوك بني زيري في الأندلس, جملة من الأمثال التي تنضوي ضمن هذا النوع, ومن الأمثلة على ذلك, ما جاء على لسانه في سياق حديثه عن عقد صلح بينه وبين المعتمد بن عباد, إذ قال: "... ولأنَّ كتابنا لم يكن مبنياً إلّا على وصف مملكتنا خاصة (والحديث ذو شجون)"(٦٩٦).

---

(١) ينظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي: ٩٣.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي, د. مصطفى السيوفي: ١٥٥.

(٣) ينظر: أمثال العوام في الأندلس, ج١: ٧٩-١١٥.

(٤) مذكرات الأمير عبد الله: ٨٣.

وكأنَّ الكاتب يؤكد ويحبب للآخرين ذكر المثل في أثناء كتاباتهم ومراسلاتهم؛ لأنه بعد ذكره لهذا المثل, يقول: "فلا بدّ من ذكر جُملٍ من غيرها عند الحاجة إلى وصفه أو ضربِ مَثَلٍ به تزييناً للكلام, وإقامةٍ للبرهان ودوراناً على الحقيقة"(٦٩٧).

يجعل الكاتب المثل زينة للناثر, وحجة تعضد ما يقوله, ففيه "إقامة للبرهان, ودوراناً للحقيقة"(٦٩٨) بحسب ما يقول, ويضرب هذا المثل في الحديث الذي يتذكر به غيره(٦٩٩).

وقد وردت في كتابات الملك عبد الله الأحاديث النبوية الشريفة التي جرت مجرى الأمثال, ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في حديثه عن أحد قادته في الجيش, الذي ينقض عهده مع الملك أكثر من مرة, ولم يستعمله الملك بعدها لا في نزال ولا في قتال, مثلما قال: "... وبقى في جملة الجند تحت إحسان وإجمال, غير أنّي لم استعمله بعدها في معقلٍ ولا مكنة في صخرةٍ, إذ (لا يلدغُ مؤمنٍ من حُجرٍ مرّتين)(٧٠٠)"(٧٠١).

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ٨٣.

(٢) م. ن: ٨٣.

(٣) ذو شجون: أي ذو طرق, ومفردها شاجنة, والشواجن هي أودية كثيرة الشجر, وأصل هذه الكلمة معناه: الاتصال والالتفات, وأصل هذا المثل مشرقي, وقد وظفوه بعض الأدباء في أشعارهم من أمثال الفرزدق. ينظر: مجمع الأمثال, ج١: ١٩٧و ١٩٨, ومن جملة الأمثال المشرقية التي وردت في كتابات الملك عبد الله, قوله: "زادَ في الطين بلّة", و"أول من يطوع وآخر من يعصي", وغيرها من الأمثال التي وردت في هذا الكتاب, وقد أورد محقق كتاب أمثال العوام في الأندلس طائفة من الأمثال التي وردت في مذكراته, ينظر: كتاب التبيان: ٣١ و ١١٩ و ١٧٥, و أمثال العوام في الأندلس, ج١: ١١٣ وما بعدها.

(٤) أصل المثل: "لا يُلسع المؤمن من حُجرٍ مرَّتين, وقصّتهُ مفادها: إنَّ رجلاً يدعى أبو عزة وكان شاعراً متكسباً, أسر يوم بدر, فطلب العفو من النبي (ص), فطلق النبي الأكرم (ص) سراحه شريطة عدم الإعانة على النبي الأكرم (ص) والمسلمين في شعره, فعاهد النبي على ذلك, ولكن لم يلتزم بما وعد, وعندما وقع في الاسر مرّة ثانية في معركة أحد, طلب من النبي (ص) العفو ثانية, فأجابه النبي محمد (ص): تخدع محمد وتقول: خدعت محمداً مرتين. ينظر: جمهرة الأمثال والحكم, ج٢: ٣٨٦ و ٣٨٨.

(٥) مذكرات الأمير عبد الله: ١٠٠.

ومما تجدر الإشارة إليه في قول الملك الآنف الذكر, هي مطابقة كلامه في قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): "لا يلدغ مؤمن من حُجرٍ مرتين", مع مناسبة النص, ويبدو أنَّ الذي حصل مع الأمير كان قريباً إلى حَدٍّ مع قصة الحديث النبوي الشريف. وبعض الأمثال التي وردت في كتابات الملك عبد الله هي أنصاف أبيات, ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سياق حديثه عن الأكل والمضرّة التي تعود على الإنسان من كثرة الطعام, وقد ذكرَ في هذا مثالاً عن الخليفة العباسي هارون الرشيد عندما قُدّم له طعاماً, إذ قال: "... إنه قُدّم بين يديه قصعةُ بطعام, فلما أكل, قال: هذا غذاء ودواء! فما زيدَ عليه كان داءً, وعلى أنَّ لكلِّ أمرئٍ من دهرِهِ ما تعوَّدا"(٧٠٢).

يبيّن الكاتب في القطعة السابقة أهمية الحفاظ على النظام الغذائي, فكل إنسان يأكل بالقدر الذي يحتاجه الجسم ولا يزيد, فالطعام على الطعام يؤذي البدن, ولا بد من تعويد الجسم على هذا النظام, وقد ضمّن كلامه صدر بيت المتنبي: (لكلِّ أمرئٍ من دهره ما تعوَّدا), الذي جرى مجرى المثل.

ولا تخلو كتابات الملك عبد الله من بعض الأمثال التي فيها بعض الكلمات البربرية, ومن المؤكد وجود مثل هذه الكلمات على لسان الملك, لا سيما وأنِّ البربر يمثلون جزءاً من المجتمع الأندلسي يومئذٍ, ومن الأمثلة على ذلك, قوله: "ومِنْ ثورٍ

---

(١) هذا المثل هو بيت من قصيدة للمتنبي يمدح فيها سيف الدولة الحمداني:

لِكُـلِّ أمـرئٍ مـن دهـرِهِ مـا تعـوّدا   وعادات سيف الدولة الطَّعن في العِدا

شرح ديوان المتنبي, ج٢: ٣.

حَيٍّ لا تُلبس هراكيس"[٧٠٣], وكلمة (هراكيس) بربرية, ومعناها (نعال)[٧٠٤], ومعنى المثل: إنه لا يُستفاد من جلد الثور إلّا بعد ذبحه والانتفاع بجلده[٧٠٥].

ومن الأمثلة الأخرى التي وردت على لسان حبوس, قوله: "إنَّ صنهاجة عندي, مثل الأسنان في الفم, إنْ عدِمت منهم واحداً لا تخلفه أبداً"[٧٠٦].

هذا المثل هو من صميم الواقع الاجتماعي الذي عاشه الحاكم, وهو ما يعكس ثقافة الحاكم وعمق تجربته, وقد يبيّن لنا أيضاً مدى التماسك واللحمة التي كانت عليها الدولة الزيرية في الأندلس, وقد جاء هذا على لسان رأس السلطة يومئذٍ, وهو حبوس.

وقد علّق الزجالي على هذيْن المثلين, بقوله: "فهذان المثلان ونحوهما من أمثال القياس والتشبيه"[٧٠٧].

النوع الآخر: استحدثته البيئة الأندلسية, وقد مثّل هذا النوع ابن شرف القيرواني, وقد وردت في كتاباته كثير من الأمثال التي تحاكي الواقع الذي عاشته الأندلس يومذاك, ومن الأمثلة على ذلك, قوله: "في الكرم والبخل: الجود أنصر من الجنود, ومن بخل بمالِهِ سمحَ بعِرضِ آله"[٧٠٨].

ويتحدث الكاتب في هذا المثل عن الجود والبخل, ففي رأيه: إنَّ الإنسان الجواد كالذي يذهب إلى الحرب, وفي حوزته كثير من الجند ينصرونه في يوم الشدة,

---

(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ١١٢.

(٣) ينظر: أمثال العوام في الأندلس, ج١: ١١١.

(٤) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي, مصطفى السيوفي: ١٧٢.

(١) أمثال العوام في الأندلس, ج١: ١١٢.

(٢) م. ن, ج١: ١١٢.

(٣) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ١١٤.

ويذللون له المصاعب, ولكن البخيل جامع لمساوئ الأدب, مما ينسحب هذا الأمر إلى العوز والفاقة عند الأهل, وقد يؤدي هذا إلى ما لا يُحمد عقباه.

وقد ضم كلام ابن شرف طائفة من الأمثال التي تحاكي الواقع الذي عاشه الفرد الأندلسي في تلك المدة, ومنها ما يتعلق بتنظيم معيشة الفرد في المجتمع, إذ قال: "إذا انفصم جناح الطيش تم صلاح العيش"[٧٠٩], وفي هذر الكلام: "من كثر هجره وجبَ هجره"[٧١٠], وفي اختيار الجليس: "عِشرة الصِّغار صُغار", وغيرها من الأمثال الأخرى التي وردت في كتاباته, ويبدو أنَّ بعض هذه الأمثال كانت تدور على ألسنة الناس في المجتمع الأندلسي آنذاك, والبعض الآخر صوّرت واقع المجتمع الذي عاشه الأدباء, وقد صاغها ابن شرف بأسلوبه الأدبي الرفيع[٧١١].

ولا تخلو كتابات ابن شرف القيرواني من الحِكَم البليغة التي صاغها بأسلوبه الأدبي, وقد دلت على ثقافته الواسعة وعمق تجربته التي أتت أكلها في ظل دولة بني زيري, وتنوعت الموضوعات أيضاً في الحكم التي ذكرها الكاتب, ومنها:

١- في القرابة: الوجيه بين أقاربه كالوادي بين مذانبه, وكالوادي بحدين ماه, ويطلبن أظماه"[٧١٢].

٢- في العداوة: كم قاطعك من راضعك, وقابحك من مالحك, ونافقك من رافقك, وناصبك من صاحَبَك"[٧١٣].

---

[١] خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ١١٤.

[٢] م. ن: ١١٥.

[٣] ينظر: ملامح التجديد في النثر الأندلسي: ١٧١ و ١٧٣.

[٤] ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ١١٤.

[٥] م. ن: ج٢: ١١٤.

ولا بدّ من وقفة أمام هذه الحكم؛ لِما فيها من معاني مكثّفة, فالذي تربطك معه صلة قرابة قد يكون لك عدوّاً في يوم من الأيام, والذي يأكل من زادك قد ينقلب عليك في يومٍ ما, والذي يكثر معك الوفاق قد يكون منافقاً, والأكثر مما ذكرناها آنفاً الذي يصاحبك ويرافقك, ولكنه يضمر لك سوءاً والعياذ بالله, ويروغ منك كما يروغ الثعلب.

وخلاصة القول: سارت الأمثال الأندلسية في اتجاهين:

الأول: أمثال ذات أصول مشرقية, وقد وردت في كتابات الأمير عبد الله آخِر ملوك بني زيري, كثير من هذا النوع, مع ذكره لبعض الأمثال التي هي من صميم الحياة الأندلسية التي عاشها الحاكم والأديب يومذاك.

والاتجاه الثاني: أمثال استحدثتها البيئة الأندلسية, وقد مثّل هذا النوع ابن شرف القيرواني, وقد وردت في كتاباته طائفة من الأمثال التي تحاكي الواقع الذي عاشه الأديب والفرد الأندلسي في هذه المدة من عُمر الدولة الزيرية في الأندلس, فضلاً عن الحكم البليغة التي وردت في كلام ابن شرف والتي تنمّ عن ثقافته وعمق تجربته التي أتت أكلها في ظل دولة بني زيري في الأندلس.

رابعاً- المقامـة:

المقامات هي: "القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية, أو فلسفية, أو خطرة وجدانية, أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون"(٧١٤).

انتشرت المقامة في القرن الرابع الهجري, وقد كانت الأوضاع الاقتصادية التي عاشها الأديب يومذاك هي إحدى الأسباب التي أدّت إلى نشوء هذا الجنس الأدبي, فضلاً عن التأنق والتعقيد الذي وصل إليه الترسل في تلك المدة, فقد كانت الحاجة ملحّة لنشوء المقامة(٧١٥), ويُعد بديع الزمان الهمداني هو رائد المقامة في الأدب العربي, فالمقامة بشكلها الفني المعروف لم يتحقق إلّا على يده(٧١٦).

وقد انتشرت بين أهل مقامات بديع الزمان الهمداني, وقام بمعارضتها بعض أدباء دولة بني حمود وبني زيري: مثل ابن شهيد الأندلسي, وابن شرف القيرواني(٧١٧).

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع الهجري, ج١: ١٩٧ وما بعدها.

(٢) ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم): ٦١٦.

(٣) م. ن: ٦١٧ وما بعدها.

(٤) وصلت المقامة إلى الأندلس بداية عصر الطوائف, وكان من أول المتذوقين لها ابن شهيد الأندلسي, الذي كان شاعر الدولة الحمودية, فقد كَتَبَ في مدح علي بن حمود بأكثر من قصيدة, وله قصائد عدة في مدح يحيى المعتلي, حتى يستطيع الباحث بأن يطلق عليها اسم (المعتليات), وكذلك ابن شرف القيرواني الذي كانت علاقته موغلة في القدم مع بني زيري في المغرب, وكان يتردد عليهم في غرناطة, وفي إحدى المرات أهداهم كتابه الموسوم بـ (أبكار الأفكار). ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ٣٠٣, و الأدب العربي في الأندلس (تطوره, موضوعاته, وأشهر أعلامه): ٤٨٠, و ديوان ابن شهَيد الأندلسي: ١٠٧ و ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٧ و ١٥٤.

ويتحدث ابن شُهَيد في بداية المقامة عن صناعة الكتابة, إذ يقول: "إنَّ صنعة الكتابة محنة المحن, ومهنة من المهن, والسعيد من خدمت دولة إقباله, والشقي من كانت رأس ماله, والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه, لم يدخلها في مناقبه, ولا سيما وقد تناولها يد كثير من السُّوق, وباعوها بيع الخلق, فسلبوها تاج بهائها, ورداء كبريائها, وصيّروها صناعة, يكاد الكريم لا يعيرها لَحظُه..."(٧١٨).

يتحدث ابن شهيد في مفتتح هذه المقامة عن حال الكتابة في عصرِه, وإلى أين وصلت, والمتأمل في النص يلحظ وكأنه يُشير إلى أشخاص قريبين منه, في رأيه قد ضاعت أصول مهنتهم هذه في بودق المادة.

والأمر اللافت في هذه المقامة "إنَّ المقامة لا تبدأ رأساً بسرد الحكاية التي تتألف منها, أو الحوادث التي يتشكّل منها نسيجها القصصي, كما هو الشأن في هذا النوع من الإنشاء, وإنما بمقدمة تبدو شديدة الغربة في مقامها ذاك؛ لأنها تتناول الحديث عن الكتابة"(٧١٩).

وبعد ذلك تنقسم المقامة على قسمين:

القسم الأول/ الوعظ:

وكان ابن شهيد يُريد من خلال القسم الأول الذي يبدأ به برحلة إلى البادية يستقر فيها إلى منزل رجل بدوي تبدو على داره آثار الحضارة, مما أثار استغراب ابن شهيد ومن معه, إذ قال: "وصلنا إلى منزل بدوي, ذي هيئةٍ وزي... فَهَشَّ وبَشَّ,

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥١٥, و الأدب العربي في الأندلس: ٤٨٣.

(٢) النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس (مضامينه وأشكاله), ج٢: ٥٦٦.

وكنس منزله ورش, وصيّر عياله إلى ناحية... ثم مالَ بنا إلى بيت مُكنس, مُنوع مُجنس..."[٧٢٠].

ويستغرب ابن شهيد من جمال هذه الدار, ومن أين جاء هذا البدوي بهذا الإعمار, إذ يقول: "من أين للبداوة بهذه الرونق والطلاوة, وكيف حتى عزت على حانوت العطار, ومتى نُقل سوق البزّ إلى هذه الدار؟ لقد قُرّتْ به الأعين, وسُرّتْ به الأنفس..."[٧٢١].

وجاء أولاد هذا الرجل البدوي بديكٍ ليذبحوه, ويبدو أنَّ هذا الديك غريب عن بقية الديكة, فعندما جاءوا به ليذبحوه في وقت الغداء, ولكنه مثّلَ دور الميت, حتى ما بعد صلاة الظهيرة, انتظر الناس عندما فرغوا من صلاتهم, فقام فيهم يخطب, قائلاً: "أيها السادة الملوك, فيكم الشاب مُتّع بالشباب, والأشيب نُوّر شيبهُ مع الكواكب والأتراب, وقد صحبتكم مدة, وسبَّحت الله تعالى على سفاداً, وربيت لكم من الفراريج أعداداً..."[٧٢٢].

ثم يستمر هذا الديك بتذكير أهل هذه البقعة بأفضاله وأفعاله, حتى لامَ أكثر الناس هذا الرجل البدوي الذي أراد ذبحه, ثم يبدأ بخطبة وعظية, يقول فيها: "... الحقُّ طريق مُستبين, واتّباعَهُ مُروءةٌ ودين, أما إنه هلك خلق عظيم..."[٧٢٣].

يبدو أنَّ ابن شُهيد في هذه المقامة قد تأثّر بالمقامة الوعظية لبديع الزمان إلى حَدٍّ ما, ومما جاء في المقامة الوعظية: "... حَتّى أدّاني السَّيرُ إلى فُرضةٍ قد كَثَرَ

---

[٣] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥١٧.

[١] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥١٧.

[٢] م. ن, ق١: ٥١٨.

[٣] م. ن, ق١: ٥١٩.

فيها قوم على قائم يعظهم وهو يقول: أيها الناس إنكم لم تُتركوا سُدى, وإن مع اليوم غدا, وإنكم رادّو هُوَّة, فأعدّوا لها ما استطعتم من قوة"(٧٢٤).

والقسم الثاني/ يتحدث فيه ابن شهيد عن الرحلة(٧٢٥), والتعب الذي لقيه مع جملة من أصحابه, فقال: "ولم تزل الجيادُ تهجع بكماتها, والشمس تنتقل في درجاتها, حتى أشرفنا على عين كالدينار, كأنما فُندِسَتْ بالبركار, ذات ماء ريان..."(٧٢٦).

ثم يواصل ابن شُهيد المسير إلى أن يلاقي من رحلته هذه التعب والأذى, إذ يقول: "ثم أغذذنا سيراً وكأننا ننفر طيراً... ثم رحلنا وتذكرنا الطراد, فمشت الجياد..."(٧٢٧).

لا يخرج النوع الثاني عن كونه وصفاً للرحلة, وما يلقى فيها المسافر من تعبٍ وجهد, وأراد ابن شهيد في هذه الرحلة أن يقترب من بديع الزمان الهمداني في مقاماته التي يتحدث فيها عن البلدان, ويصف فيها أهم ما تتماز هذه البلدان أو تلك من جوع أو تجارة أو علم(٧٢٨), ولكنه وبحسب رأي الباحث لم يصل إلى ما كان يصبو إليه.

---

(٤) مقامات بديع الزمان الهمداني: ١٥١.

(١) قسّم أحد الباحثين هذه المقامة على قسمين: المقامة الديكية والمقامة الديرية, وقد أخذ هذه التسمية بحسب ما موجود في بطن هذه المقامة, فالديكية مأخوذ من اسم الديك الذي كان مداراً لأحداث القسم الأول منها, والثاني: مأخوذ من المكان الذي استقر فيه ابن شهيد ليأخذ قسط من الراحة وهو الدير. ينظر: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس (مضامينه وأشكاله), ج٢: ٥٦٧ و ٥٦٩.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٥١٩.

(٣) م. ن, ق١: ٥٢١.

(٤) نستطيع التعرف من خلال مقامات الهمداني كالسجستانية, والبغدادية, والبلخية وغيرها على أحوال تلك المدن من زراعة أو فقر أو عِلم. ينظر: مقامات بديع الزمان الهمداني: ١٧ و ٢٢ و ٧١, و الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم: ٦٢٦.

وأمّا مقامة ابن شرف القيرواني فـ"تدور أفكارها حول النقد الأدبي لمجموعة من الشعراء, ويستهلها بالتعريف بالمجلس الذي ضمّه وشخص يسمّيه أبا الريان, ليذكر له فيه الشعراء ومنازلهم في الجاهلية والإسلام"[٧٢٩].

ومما جاء في هذه المقامة: "وجاريت أبا الريان في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم وإسلامهم, واستكشفته عن مذهبه فيهم, ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم, فقال: الشعراء أكثر من الإحصاء, وأشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء, فقلت: لا أعتبك بأكثر من المشهورين, ولا أذكرك إلّا في المذكورين..."[٧٣٠].

ويُريد ابن شرف من أبي الريان أن يُعطي رأيه في المشهورين من الشعراء, والذين تردَّدَ ذكرهم على الألسنة, من القدامى والمحدثين, مثل: أمرؤ القيس, والنابغة, ولبيد, والأعشى, والأخطل... وغيرهم[٧٣١].

ويعارض ابن شرف في هذه المقامة, مقامة بديع الزمان القريضية, والتي موضوعها النقد الأدبي أيضاً, ومما جاء في هذه المقامة: "... مجلسنا يوماً نتذاكر القريض وأهله, وبلقائنا شاب قد جلس غير بعيد, ينصت وكأنه يفهم, ويسكت وكأنه لا يعلم, حتّى إذا مالَ الكلام بنا ميله, وجَرّ الجدال فينا ذيله, قال: قد أصبتم..."[٧٣٢].

وبعدما أخذوا بأطراف الحديث, قاموا بسؤال هذا الشاب النابِه عدة أسئلة, ومنها: "ما تقول في أمرئ القيس... وقلنا: فما تقول في النابغة..."[٧٣٣].

---

[٥] الأدب العربي في الأندلس (تطوره, موضوعاته, واشهر أعلامه): ٤٨١.

[١] رسائل البلغاء: ٢٤٢.

[٢] ينظر: م. ن: ٢٤٣-٢٥٤.

[٣] ينظر: الأدب الأندلسي: ٣٢٨.

[٤] مقامات بديع الزمان الهمداني: ٧ وما بعدها.

أثَرُ بديع الزمان واضح في ابن شرف القيرواني, فكِلا المقامتين مدارهما النقد الأدبي وإبداء الرأي في الشعراء القدامى والمحدثين, ومن جملة الآراء النقدية التي جاءت في مقامة ابن شرف القيرواني, رأيه في أبي تمام حبيب بن أوس الطائي, إذ قال: "وأما الطائي حبيب, فمتكلف, إلّا أنه يصيب, ومتعب لكن له من الراحة نصيب, وشغله المطابقة والتجنيس حَبِذَ ذلك أو يَبِس جزل المعاني, مرصوص المباني, مدحه ورثاؤه لا غزله وهجاؤه طرفا نقيض, وفي شعره علم جم من النسب, وجملة وافرة من أيام العرب, وطارت له أمثال, وحفظت له أقوال"(٧٣٤).

أُعجِبَ ابن بسام برأي ابن شرف القيرواني في أبي تمام, وقد علّق عليه, بقوله: "أما صفته هذه لأبي تمام فصفة لم يثن عطفها حميّة, ولا تعلقت بذيلها عصبية, حتى لو سمعها حبيب لاتخذها قبلة, واعتمدها ملّة, فما آلم من أدب, وإنْ أوجع, ولا سبّ من صدق, وإن قذع"(٧٣٥).

يوافق ابن بسام رأي ابن شرف في أبي تمام, فقد نظر ابن شرف بعين الإنصاف في حُكمِه على أبي تمام, فهو بعيد عن العصبية, ينمّ عن قراءة متفحصة لشعره, وقد أتت أُكُلها في رأيه الآنف الذكر, لكن ما يؤخذ على هذا الرأي, كونه لا يخرج على أن يكون حكم عام تحدّث فيه ابن شرف عن أهم ما اشتهر به هذا الشاعر أو ذاك(٧٣٦).

وخلاصة القول: حاولت المقامة الأندلسية السير وراء المقامة المشرقية, ولكنها اختلفت معها في بعض الجوانب, فلم نرَ تصويراً لواقع الحياة الاجتماعية التي عاشتها الأندلس في ظل دولتي بني حمود وبني زيري, ففي مقامة ابن شهيد وجدنا

---

(١) رسائل البلغاء: ٢٤٩.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ج٤: ١٤٤.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ٩٥ وما بعدها.

في بعض جوانبها شبه إلى حدٍّ ما بمقامات الهمداني, ولكن فيها من الانحرافات ما يجعل المتلقي يشعر بها, وفي مقامة ابن شرف القيرواني شبه لمقامة بديع الزمان (القريضية), فمدار الاثنين هو النقد الأدبي, وعلى أيّةِ حال فقد حاولَ الأندلسيون تقليد أهل المشرق في كتابة المقامة, ولكنهم خالفوهم في الطريقة والمنهج.

المبحث الثاني

النثـــر التأليفي

أُلّفتْ كثير من المؤلفات على عهد بني حمود وبني زيري في الأندلس, وتفوّق علماؤها في الكتابة والتأليف, حتى طار صيتهم في الآفاق, وتفوّقوا على أقرانهم من الأدباء والعلماء, من الذين عاشوا في كنف ملوك الطوائف الأخرى.

وسنسلّط الضوء في هذا المبحث على النتاجات الأدبية التي أنتجها أدباء الدولتين, وسنقتصر على دراسة أشهرها, وهي:

أولاً- حانوت عطار لابن شُهيد الأندلسي.

ثانياً- رسالة التوابع والزوابع لابن شُهيد الأندلسي.

ثالثاً- شرح شعر المتنبي لأبي القاسم الإفليلي.

رابعاً- كتاب التبيان للملك عبد الله آخر ملوك بني زيري.

خامساً- المحاضرة والمذاكرة لابن عزرا اليهودي.

سادساً- شرح أشعار الحماسة لأبي الفتوح الجرجاني.

سابعاً- أبكار الأفكار لابن شرف القيرواني.

أولاً- حانوت عطّار لابن شُهيد الأندلسي:

أَجمَعَتْ المصادر على أنَّ مؤلف هذا الكتاب هو ابن شهيد الأندلسي(٧٣٧), وابن شهيد هو "أحمد بن عبد الملك بن محمد بن شهيد الوضاح الأشجعي"(٧٣٨).

وقد عملت أسرة ابن شهيد في خدمة الحكومات التي سبقت دولة بني حمود في قرطبة, وهو أول من لُقّبَ بذي الوزارتين, وكان من أهل العلم والأدب, ومن الذين يُشار إليهِم بالبَنان(٧٣٩).

ونَقَلَ ابن بسام عن ابن حيان في ابن شُهيد ما يبيّن منزلتهُ بين أدباء عصره, إذ قال "كان ابن شُهيد يبلغ المعنى ولا يُطيل سفر الكلام, وإذا تأمّلتهُ ولَسنهِ وكيف يَجُرُّ في البلاغة رسنه قلت عبد الحميد في أوانه, والجاحظ في زمانه, والعجب من أنه يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه في بديهته ورويّتِه"(٧٤٠).

تبيّنَ لنا من النص الآنف الذكر منزلة ابن شهيد بين أدباء عصره, فهو بمقياس ابن حيان جاحظ زمانه, وعبد الحميد أوانه, ويدعو قريحته في المنظوم والمنثور أنّى شاء, ومن المؤكد قد وافق ابن بسام رأي ابن حيان, فقد نقلَ لنا هذا النص عنه وتبنّاه.

---

(١) فقد ذكر الضبي هذا الكتاب في جذوة المقتبس أكثر من مرة, منسوباً إلى ابن شهيد الأندلسي, ينظر: جذوة المقتبس, ج٢: ٥٥٦ و ٦٢٤ و ٦٣٥. والعماد الأصفهاني في خريدته, وجاء ذلك في سياق حديثه عن تصانيف وتواليف ابن شهيد, إذ قال "وله تصانيف وتواليف أغربَ فيها وأعرب, وأعجزَ وأعجب, ومن ذلك كتاب (حانوت عطار)". خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٦٣٥, وللكتاب أكثر من تحقيق: الأول بتحقيق ابن تاويت الطنجي, القاهرة, ١٩٥١م, ولكن على ما يبدو أنَّ هذه النسخة مفقودة, وقد ذكرها الدكتور عمر فرّوخ, ينظر: تاريخ الأدب العربي, ج٤: ٤٦٠, والآخر بعنوان: نصوص من كتاب حانوت عطار, تحقيق: عبد الرحمن المفضلي, معهد المخطوطات العربية, القاهرة, ٢٠٢٠م.

(٢) الحُلة السَّيْراء, ج١: ٢٣٧.

(٣) ينظر: م. ن: ٢٣٨.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ١٥٥.

تقرّب ابن شُهَيد إلى بني حمود ومدَحَهم, وكان يأمل منهم استرداد حقوقه المهضومة من قبل بني أمية, وقد جاء ذلك في أثناء مدحه ليحيى المعتلي بقصيدة, قال فيها: [الطويل]

علـــيكم بـــداري فاهــدِموها دعائِمـــاً
ففـــي الأرضِ بَنّـــاءُونَ لـــي ودعـــائمُ
لـــئِن أخرَجتنـــي عـــنكم شـــرُّ عُصـــبة
ففـــي الأرضِ إخـــوانٌ عَلَـــيَّ أكـــارمُ
وإنْ هشـــمتْ حَقّـــي أميّـــةُ عنـــدها
فهاتـا علـى ظهـرِ المُحجّـةِ هاشِـمُ[٧٤١]

ابن شهيد على ثقة تامة بعدل الحموديين, وقد جاء ذلك بقوله: "ففي الأرض بَنَّاؤون لي ودعائمُ", فقد استطاع بحنكته وسياسته مد أواصر المحبّة بينه وبين الحمّوديين, فإذا خرج من موطنه الأصلي قرطبة, واتّجهَ إلى مالقة في ظل المعتلي, فقد وجد هناك ما فقده في قرطبة, فالحمّوديون في نظر ابن شهيد إخوانه في الدين والدنيا, وباستطاعتهم نصرته ودفع السوء والأذى عنه.

ذكر ابن شهيد أدباء عصره, وأصدر أحكاماً نقدية فيهم وفي شعرهم, فقد ذكر مثلاً أبا القاسم الإفليلي فقال: "إنَّ أبا القاسم ابن الإفليلي يرفع نفسه فوق قدره, ويزهو بنفسه فلا يرى عالماً ولا شاعراً ولا خطيباً غير نفسه, وطمع أن يجمع العقول على رأيه, ويؤلف أشتات المذهب على مذهبه, وأنه الفرد في صناعتِهِ, وهو يطلب هذا منذ خمسين سنة, فلا يحصلُ له أن يأتلف عليه بلده, بل أهل مدينته, بل أهل مسجده,

---

(١) ديوان ابن شهيد: ١٥٤.

فعلاجُه لا ينقطع, وطمعه لا يرتفع, وشِرهِه كل يوم إلى ذلك يزيد, وعمره ينقص, وقُواه تَهِن"[٧٤٢].

ويبدو أنَّ التنافس والحسد والخصومة قد توزّعت على مساحة النص السابق, فلا يُعطينا ابن شهيد دليلاً على زعمه في ابن الإفليلي, وكأنَّ المؤلف قد تتبّع ابن الإفليلي في كل حجر ومدر "بلدهُ ومدينتهُ و... أهل مسجده"[٧٤٣], فوجد أغلب الناس في ذلك الزمان يؤيدون لما ذكره عن أبي القاسم الإفليلي, والله أعلم.

وفي موضع آخر يحكم على ابن دراج القسطلي, بقولِه:

"إنَّ أبا عمر, مطبوع النظام, شديدُ أسرِ الإعلام, وما تراه من حوكه للكلام, وملكه لأحرار الألفاظ, وسعة صدره, وجيشة بحره, وصحة قدرته على البديع, وطول طلقه في الوصف, وبغيثُه للمعنى وترديده, وتلاعبه به وتكريره, وراحته بما يتعب, وسعة نفسه في ما يُضيقُ الأنفاس"[٧٤٤].

يطلق ابن شهيد في النص الآنف الذكر أحكاماً عامة, ولا يعطينا أمثلة تعضد ما ذهب إليه, ولكنه بحسب ما ذكره من أحكام عن ابن دراج القسطلي نراه يميل إلى ابن دراج على النقيض مما هو عليه مع أبي القاسم الإفليلي, فابن دراج في رأي ابن شهيد يمتلك ناصية القول وقادر على حوك الكلام, بما انماز من ثقافة واسعة, وذهن متوقد, مكّناه في البراعة في هذه الصناعة.

---

(١) نصوص من كتاب حانوت عطار: ٣٢.

(٢) م. ن: ٣٢.

(٣) م. ن: ٣٢.

وقد جعل ابن شهيد المعارضة أساساً للتفوق, وقد استغرب الدكتور إحسان عباس من هذا المقياس عند ابن شهيد(٧٤٥), فقد جاء ذلك في سياق حديثه عن عبد الرحمن بن أبي الفهد أبي المطرف(٧٤٦), إذ قال: "... وكان من أبصر الناس بمحاسن الشعر, وأشدّهم انتقاداً له, وشعره بلطائف غرائبه وبدائع رقائقه يروق, وهو غزير المادة, واسع الصدر, حتى إنه يكد يُبقي شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلّا عارضه وناقضه, وفي كل ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد لا يني ولا يقصر, وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام"(٧٤٧).

وقد علّق الدكتور إحسان عباس على تعليق ابن شهيد, بقوله: "ولأول مرة نرى ناقداً يقرّ مبدا المعارضة معياراً للتفوق", فنجد ابن شهيد ناقماً على النقاد الذين كانوا يتولون ديوان الشعراء؛ لأنهم قَدّموا عبد الرحمن بن أبي فهد, وأخّروا عبادة بن ماء السماء(٧٤٨).

وينقل ابن شُهَيد شواهد شعرية لبعض الشعراء ولكن من دون تعليق عليها(٧٤٩), باستثناء منذر بن سعيد البلوطي(٧٥٠), فقد ذكرَ له هذه الأبيات:

---

(١) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب, د. إحسان عباس: ٤٧٦.

(٢) عبد الرحمن بن أحمد بن أبي المطرف: من شعراء الأندلس الذين يشار إليهم بالبنان, إنماز بعلمه وفهمه للشعر العربي القديم حتى قيل عنه أنه لم يدع شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلّا عارضه, توفي في قرطبة سنة ٤٠٧هـ. ينظر: المغرب في حلى المغرب, ج١: ١٥٧, و نصوص من كتاب حانوت عطار: ٣٣.

(٣) نصوص من كتاب حانوت عطار: ٣٢.

(٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٤٧٦.

(٥) وهي: ذكره أبيات لأبي المخشي وعبد الرحمن بن هشام المستظهر ومحمد بن وهب الكاتب, وعم أبي عامر بن شهيد وأخو أبي عامر بن شهَيد. ينظر: نصوص من حانوت عطار: ٣٣-٣٧.

(٦) أحد القضاة المبرزين في قرطبة, جمعَ بين الفقه والأدب, وهو من الخطباء المُجيدين, والبلوط هو موضع قريب من قرطبة, ويقال له: محض البلوط, ينظر: جذوة المقتبس, ج٢: ٥٥٦.

هــذا المقــالُ الــذي مــا عابَــهُ فنــدُ

لكـــنَّ صــــاحبه أزرى بـــه البلــــدُ

لــو كنــتُ فــيهم غريبــاً كنــتُ مُطَّرَفّــاً

لكننـــي مِـــنهم فاغتـــالني النَّكـــدُ

لـــولا الخلافـــةُ أبقـــى اللهُ بهجتهـــا

مــا كنـتُ أبقـى بـأرضٍ مـا بهـا أحـدُ[٧٥١]

وقد علّق على هذه الأبيات, بقوله: "فاتفقَ ذلك الجمع على استحسانه, وجمال استدراكه, وصلب الملحُ, وقال: هذا كبش رجال الدولة"[٧٥٢].

وذكر ابن شهيد المناسبة التي قيلت فيها هذه الأبيات, قائلاً: "إنَّ الحكم المستنصر كان مشغوفاً بأبي علي القالي يؤهّله لكل مهم في بابه, فلما ورد رسول ملك الروم أمره عند دخول الرسول إلى الحضرة أن يقوم خطيباً بما كانت العادة جارية به, فلما كان ذلك الوقت, وشاهدَ أبو علي الجمع, وعاين الحفل, جَبُنَ ولم تحمِله رِجلاه, ولا ساعَدَهُ لسانه, وفَطِنَ له أبو الحكم منذر بن سعيد, فَوَثَبَ وقام مقامه, وارتجلَ خطبة بليغة على غير أهبة..."[٧٥٣].

وأنشدَ بعدها الأبيات المذكورة آنفاً, وتعليق ابن شهيد على هذه الأبيات عام تَعَلَّقَ باستحسان الجمهور للموقف لا القصيدة, فقد استطاع الشاعر استدراك الحالة التي أصابت زميله, فقام مقامه, فارتجلَ خطبته واختتمها بهذه الأبيات التي استحسنها الجمهور.

---

(١) نصوص من كتاب حانوت عطار: ٣٦.

(٢) م. ن: ٣٦.

(٣) م. ن: ٣٥ وما بعدها.

وعلى ما يبدو أنَّ الرواية فيها شيئاً من التهويل والمبالغة, فالذي يعرِف القالي جيداً لا يصدق هذا الأمر, وقد يكون شخصاً آخر غير القالي, وحدَثَ تصحيف في النص والله أعلم.

وقد نقلَ ابن شُهَيد في هذا الكتاب أبياتاً لأبي المخشي عاصم بن زيد(٧٥٤), وقد لاقت إعجابَهُ واستحسنها:

وهَـــمٌّ ضـــافَني فـــي جـــوفِ يَـــمٍّ
كـــلا موجيْهمـــا عِنـــدي كبيـــرُ
فبتنـــا والقلـــوب معلَّقـــات
وأجنحـــة الريـــاح بنـــا تطيـــرُ(٧٥٥)

وقبل ذِكره لهذيْن البيتين يُعطي رأيه في أبي المخشي, فيقول: "فإنه قديم الحوك والصفة(٧٥٦).

يشهد ابن شهيد لأبي المخشي بقدرته ومهارته على حوك الكلام, وقد تعلّم هذه الصفة منذ نعومة أظفاره.

يُعد الكتاب صورة للمجتمع الأندلسي من الناحية الأدبية, فقد ترجم لشعراء الأندلس منذ الفتح وحتى العصر الذي عاش فيه المؤلف, مع مختارات شعرية لأولئك الشعراء, فضلاً عن الأحكام النقدية العامة, والهدف من ورائها بيان مقدرة ابن شهيد النقدية(٧٥٧), ولا يخلو الكتاب من بعض الجوانب الذاتية التي عبّر عنها ابن شُهَيد في

---

(١) أبو المخشي: عاصم بن زيد, من الشعراء المشهورين الوافدين إلى الأندلس, ينظر: جذوة المقتبس, ج٢: ٦٣٥, و نصوص من كتاب حانوت عطار: ٣٣.

(٢) نصوص من كتاب حانوت عطار: ٣٣.

(٣) م. ن: ٣٣.

(٤) ينظر: م. ن: ٩.

في سياق حديثه عن أبي القاسم الإفليلي, فقال: "إنَّ أبا القاسم ابن الإفليلي يرفع نفسه فوق قدره, ويزهو بنفسه فلا يرى عالماً ولا شاعراً ولا خطيباً غير نفسه, وطمع أن يجمع القول على رأيه"[٧٥٨], وقد رأينا كيف توزعت الخصومة والتنافس والحسد على مساحة هذا النص.

ومن القضايا الجديدة التي جاءت في الكتاب إنَّ ابن شهيد جعل المعارضة أساساً للتفوق, ومن الأمثلة على ذلك قوله عن أبي المطرف: "... لم يكد يُبقي شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلّا عارضه وناقضه..." [٧٥٩], وهو ما جعل (الدكتور إحسان عباس) يجعله أول من يقر مبدأ المعارضة ويجعلها مقياساً للتفوق[٧٦٠].

وقد تعرّفنا في الكتاب على الثقافة الواسعة التي كان يتمتع بها الشاعر في ظل دولة بني حمود, إذ أتاحت له الاطلاع على أخبار الشعراء, وقد نهلَ من المصادر الأدبية التي كانت متاحة يومذاك, ومنها: (كتاب أخبار بني أمية) لمعاوية بن حزم بن هشام الشباشبي (ت ٣١٦هـ), وكتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) لأبي بكر ابن القوطية (ت٢٦٧هـ), وكتاب (تاريخ إفريقية والأندلس) لعريب بن سعيد القرطبي, وكتاب (تاريخ الأندلس) لعيسى بن أحمد الرازي (ت٣٧٩هـ), وكتاب (المقتبس من أنباء الأندلس) لابن حيان القرطبي (٤٦٩هـ)... وغيرها من الكتب التي كانت مكتوبة بخطّ اليد[٧٦١].

---

[١] نصوص من كتاب حانوت عطار: ٣٢.

[٢] م. ن: ٣٣.

[٣] ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٤٧٦.

[٤] لا نستطيع الجزم من أنَّ ابن شهيد قد اطّلع على هذه المصادر فعلاً, فعلى الأرجح كان ابن شهيد قد قرأ هذه الكتب, وأفاد منها ومن غيرها, مثل: (كتاب جغرافية الأندلس), و (صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها), وكِلا الكتابين لأحمد بن محمد بن موسى الرازي (ت٣٣٧), ينظر: نصوص من كتاب حانوت عطار: ٢٧ وما بعدها.

وبالمحصلة أنتج لنا المؤلف هذا الكتاب الذي ضاعت أغلب نصوصه وبقي منها النزر اليسير.

ثانياً- رسالة التوابع والزوابع لابن شُهيْد الأندلسي:

تشير أكثر الاحتمالات إلى أنَّ المدة التي ألّف فيها ابن شهيد رسالته التوابع والزوابع كانت في خلافة الحموديين(٧٦٢). ويبدو أنَّ الهدف من تأليف هذه الرسالة هو ذاتي, فالمعروف "أنَّ أبا عامر كان كثير الخصوم والحسّاد, ولقي منهم عنتاً وأذيّة وضيماً لم يصبر له, فانبرى يواقعهم ويناضلهم, وينتقص أدبهم, ويبسط آراءه في المنظوم والمنثور والفن والجمال"(٧٦٣).

ومن الواضح أنَّ الأدباء في عصر ابن شهيد لم ينصفوه, فراحَ يتخيّل هذا العالَم الافتراضي, لعلّه يشفي غليله بهذه القصة التي عبّرت عمّا يختلج في صدره من شعوره بالغبن بين أدباء عصره, وعدم وضعه في المكانة التي يستحقها.

اختار ابن شهيد اسم (التوابع والزوابع)(٧٦٤), المسرح الذي تدور حوله هذه الأحداث هو عالم الجن, وكل أبطال هذا المسرح هم من الجن ما عدا المؤلف(٧٦٥).

---

(١) بعض مدائحه في يحيى المعتلي قد وردت في هذه الرسالة, ومدائح ابن شهيد في المعتلي كثيرة, فضلاً عن الموانع التي حالت دون مدحه لعلي بن حمود في بداية خلافته بقرطبة, وكان بسببها تنافس الأدباء فيما بينهم. ينظر: رسالة التوابع والزوابع: ٩٣ وما بعدها.

(٢) رسالة التوابع والزوابع: ٩٦, وقد ذكر الدكتور أحمد هيكل في كتابِه: الأدب الأندلسي (من الفتح إلى سقوط الخلافة): ٣٧٨ وما بعدها: إنَّ ابن شهيد في هذه الرسالة عرضَ بعض آرائه في الأدب واللغة ونقد خصومه لينال شهادات بتفوّقه وتمكنه من الصناعتين.

(٣) التوابع: جمع تابعة أو تابع, وهو الجن أو الجنية, والزوابع: جمع زوبعة, وهو اسم شيطان أو رئيس الجن. ينظر: الأدب الأندلسي (من الفتح إلى سقوط الخلافة): ٣٧٨.

(٤) م. ن: ٣٧٨.

تدور الرسالة حول جملة من الأمور, الرحلة إلى عالم الجن[٧٦٦], وقضايا حول النقد الأدبي ومشهد ختامي يغلب عليه السخرية, ففي بداية الرسالة يحمله صاحبه إلى أرض الجن, وقد التقى بشياطين الشعراء, مثل: أمرؤ القيس, وطرفة بن العبد[٧٦٧], ثم طلب من صاحبه (زهير) بعد أن يذهب به إلى الخطباء, وتم الاتفاق على اللقاء بمكان يسمّى (مرج دهمان), وقد كان زعيم هذا المجلس الجاحظ الذي شهد له بالتفوق والمكانة الرفيعة[٧٦٨], بحسب قوله: "... وانتهينا إلى المَرْج فإذا بنادٍ عظيم, قد جمعَ كلَّ زعيم, فصاح زهير: السلام على فرسان الكلام, فرَدُّوا وأشاروا بالنزول..."[٧٦٩], ثم يلتقي بصاحب الجاحظ ويقول رأيه في ابن شهيد: "إنك لخطيب, وحائك للكلام مُجيد, لولا أنّك مُغرى بالسجع, فكلامك نظمٌ لا نثر"[٧٧٠].

أرادَ ابن شُهيد من هذه الرسالة إشباع غروره, ويُعطي لنفسه ما يستحق من المدح والثناء في عالم افتراضي[٧٧١], وقد دخل في معترك صعب, وقد علّق الدكتور إحسان على هذا الأمر, قائلاً: "والمشكلة الكبرى عند ابن شهيد, هي: هل من الميسور أن يعلِّم الناس البيان؟ وإذا كان ذلك مستطاعاً, فَلِمَ يتفاوت الناس فيما يتلقونه؟ وموقف ابن شهيد من هذه المشكلة غير واضح, فهو حيناً يرى البيان موهبة من الله, ويعلي من قدر الموهبة ويجعلها تعويضاً عن الاطلاع, وينشئ رسالة التوابع ليدل على قيمة هذه الموهبة..., وحيناً آخر يزعم أنَّ البيان قد يعلّم وإنْ كان ذلك أمراً صعباً..."[٧٧٢].

---

(١) ينظر: الأدب الأندلسي, سامي يوسف أبو زيد: ٣٣٩-٣٤٦.

(٢) الأدب العربي في الأندلس (تطوّره, موضوعاته, وأشهر أعلامه), د. علي محمد سلامة: ٤٩٦.

(٣) م. ن: ٤٩٦.

(٤) م. ن: ١٥٧.

(٥) م. ن: ١٦٠-١٦٦.

(٦) ينظر: م. ن: ٤٩٤ وما بعدها.

(٧) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة), د. إحسان عباس: ١٤٣.

الانتقال من حالٍ إلى حال في آراء ابن شُهَيد, دلالة على محدودية العنصر النقدي عنده(٧٧٣), ويبدو أنَّ إعجابه بفنّه وأدبه تسببا في هذا الأمر وضياع موهبته النقدية في بودق الغرور والاعتزاز بالنفس.

تعطينا الرسالة صورة واضحة عن التنافس الحاصل بين الأدباء في ظل دولة بني حمود, فالأدباء في عصر ابن شهيد لم ينصفوه و "لم ينل من أدباء عصره وعلمائه إلّا النقد والتجريح, فأحسّ بأنه لم يكرم التكريم اللائق به, مع إنه نابغة في الشعر والنثر (في رأيه) فأراد أن يُرضي غرور نفسه, ويعطيها حقها ولو في عالم الخيال والجن, فاخترع شياطين للشعراء المشهورين, وتوابع للكُتاب النابهين, ليُسمعهم من شعره ونثره ما يحملهم على الاعتراف له بالتفوق والعبقرية"(٧٧٤), وهذا الأمر قد أثمر عن تأليف هذا العمل الرائد, فالعالَم الذي اختاره, والآراء التي صرّح بها هي من الأمور الجديدة في الأندلس, وهو ما يعكس لنا ازدهار الحياة الأدبية في هذه المدة من عُمر الدولة الحمودية, وتبرز أهمية الرسالة من الناحية النقدية عن "كشف أبو عامر عن كثير من آرائه في النقد وصور الصراع بين الموهبة وسعة الاطلاع, وقدّم خير ما يختاره من نظمه ونثره, مبنياً أكثره على المعارضة والأخذ, ومزج كل ذلك بشيء من التخيّل, وقسط قليل من الفكاهة, وكمية كبيرة من العجب والعنف"(٧٧٥).

وفضلاً عن هذا وذاك, تكمن قيمة الرسالة كونها إحدى القصص الجيدة التي تُعد لون من ألوان النثر الإمتاعي الأندلسي(٧٧٦), والذي يُعد من الأمور الجديدة في النثر العربي الأندلسي في هذه الحقبة.

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة): ١٤٢.

(٢) الأدب العربي في الأندلس (تطوره, موضوعاته, وأشهر أعلامه): ٤٩٤.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة): ٣٤٠.

(٤) الأدب الأندلسي (سامي يوسف أبو زيد): ٣٥٠.

ثالثاً- شرح شعر المتنبي لأبي القاسم الإفليلي:

أبو القاسم هو إبراهيم بن محمد بن زكريا القرشي الزُّهري[٧٧٧], وقد نقل ابن سعيد المغربي قول ابن حيان القرطبي فيه: "إنه برَّ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان والضبط لغريب اللغة, والمشاركة في بعض المعاني..."[٧٧٨].

ويبدو أنه سُجن في عهد هشام بن الحكم, ثم أطلق سراحه؛ ولهذا لم نرَ له من التواليف والتصانيف إلّا كتابه في شعر المتنبي[٧٧٩], الذي ألّفه في عهد بني حمّود في الأندلس.

كان للذوق الأدبي, والإعجاب بأشعار المشارقة, حافزاً لدى بعض الأدباء لدراسة هذه الأشعار, وأبو القاسم الإفليلي واحد من الأدباء الذين قاموا بدراسة شعر المتنبي, ويبدو انَّ أبا القاسم الإفليلي قد حظي بالمكانة التي يستحقها في ظل حكومة بني حمود, بعد ما لاقى من التضييق في ظل الحكومات السابقة[٧٨٠].

وقد تقرّبَ أبو القاسم إلى بني حمود, ومَدَحَهم, فمن بيتين له يمدح فيهما يحيى المعتلي, إذ قال: [المديد]

أنــتَ خيــر النــاس كلّهــمُ يــا بــن مــا مِثْلُــهُ بَشَــرُ

فـــإذا مالَحـــتَ بيـــنهم قيلَ هذا البَدوُ والحَضَرُ[٧٨١]

---

(١) ينظر: بغية الوعاة, جلال الدين السيوطي, ج١: ٤٢٦.

(٢) المُغرب في حلى المغرب, ج١: ٧٢.

(٣) يُنظر: المُغرب في حلى المغرب, ج١: ٧٢, و بغية الوعاة, ج١: ٤٢٦.

(٤) ينظر: شرح شعر المتنبي, ج١: ٣٨.

(٥) المُغرب في حلى المغرب, ج١: ٧٣.

ويبدو أنَّ بعض الأدباء لم يرق لهم هذا المدح, وراح يقلل من قيمته, وعلّق على البيت الأول بقوله: "هذا عقد ذنب العقرب", وعندما سمع البيت الثاني, قال: "سبحان من أخلى خاطر هذا الرجل من التوفيق..."(٧٨٢).

واجَهَ أبو القاسم الإفليلي كثيراً من المنافسات والعداوات في حياته الأدبية, ولكن عندما استقرّ به النوى في ظل دولة بني حمود, قد وجد ضالّته التي من خلالها استطاع الكتابة والتأليف(٧٨٣).

اتّبع أبو القاسم الإفليلي المنهج التاريخي في دراسته لقصائد شعر المتنبي, فنراه يحدّد الزمن الذي قيلت فيه القصيدة, الشهر والسنة, فضلاً عن ذكره المكان أيضاً, ومن أمثلة ذلك عند ذكره للقصيدة التي قالها في رثاء أمّ سيف الدولة الحمداني, وهذه القصيدة أنشدَها في حضرة سيف الدولة بحلب في جمادي الآخرةِ, سنة ٣٣٧هـ(٧٨٤), ومطلعها:

نُعِـــــدُّ المشْـــــرقيّةَ والعـــــوالي

وتقتُلُنـــا المنُـــونُ بـــلا قتـــالِ(٧٨٥)

ويُعلّق على هذا البيت بقوله: "نُعِدُّ صوارم السُّيوف, وعوالي الرِّماح, لمنازلة الأعداء, ومدافعة الأقران, وتخترمنا المنية دون قتالٍ أو نزالٍ, لا يمكننا حذارها, ولا يتهيّأ لنا دفاعُها"(٧٨٦).

---

(١) المُغرب في حلى المغرب, ج١: ٧٣ و٧٤.

(٢) ينظر: شرح شعر المتنبي, ج١: ٣٩.

(٣) ينظر: م. ن, ج١: ٧٩.

(٤) شرح ديوان المتنبي, ج٣: ١٤٠.

(٥) شرح شعر المتنبي, ج٢: ٣٥.

أحاط أبو القاسم بشرح هذا البيت, فقد ذكر الزمان الذي قيلت فيه القصيدة, في جمادي الآخرة سنة ٣٣٧هـ, ومكانها حلب, ومناسبتها هي رثاء أمّ سيف الدولة الحمداني.

ومن الأمثلة الأخرى في شرحه لأبيات المتنبي, منها:

أَزِلِ الوحشـــةَ التـــي عنـــدنا يـــا   من به يأنسُ الخميسُ اللهامُ(٧٨٧)

فالشارح يعطي معاني الكلمات, الخميسُ: ومعناه الجيش, واللهامُ: وهو الذي يلتهم الأرض بكثرته, والالتهامُ: هو الابتلاع(٧٨٨).

ويعلّق على هذا البيت فيقول: "أزل بقدومك علينا الوحشة التي اوجبها رحيلك عنّا, يا من بموضعه يأنس الجيش الكثير, والذي يعتد الجيش بشجاعتهِ, أكثر من اعتدادِه بجماعتِه..."(٧٨٩).

وبعدما ينتهي الشارح من شرحه للبيت, يقف على الجانب الفني الذي اشتمل عليه هذا البيت, ويقول: "وأبدعَ بالمطابقة بين الأنس والوحشة"(٧٩٠).

ولم تكن المعاني الفلسفية ببعيدة عن ذهن الشارح وهو يشرح شعر المتنبي, فمن جملة الأبيات التي توقَّفَ عندها الشارح, بيت المتنبي الذي يقول فيه:

أبـــداً تســـتردُّ مـــا تهـــبُ الدُّنـــ   يا فيا ليت جودها كان بُخلا(٧٩١)

---

(١) شرح ديوان المتنبي, ج٤: ٦٦.

(٢) شرح شعر المتنبي, ج١: ١٧٦.

(٣) م. ن, ج١: ١٧٦.

(٤) م. ن, ج١: ١٧٦.

(٥) شرح ديوان المتنبي, ج٣: ٢٥٠.

وقد علّق أبو القاسم على هذا البيت, قائلاً: "إنَّ الدنيا مستحيلة منتقلة, متغيرة متبدلة, تستردُّ هبتها, وتُكدّر مسرّتها, وتعقب البقاء بالفناء, والسراء بالضراءِ, فليْتَ الحياة التي جادت بكونها, واخترعت الأنفس بحبها, لم تكن واقعة, ولم توجد النفوسُ إليها ساكنة, وليتها بخُلتْ بما جادت ببذلِهِ, ومنعات ما تسرعت إلّا فعله"(٧٩٢).

فَهِمَ الشارح مراد المتنبي في البيت السابق, فالحياة لا تدوم على حالٍ, فهي منتقلة بأهلها, فالإنسان الفطن لا يغتر إذا أقبلت عليه الدنيا؛ لأنها سرعان ما يتغير حالها ويزول نعيمها, ومما تجدر الإشارة إليه إنَّ أبا القاسم الإفليلي على صلةٍ وثيقةٍ بالفلسفة, فالقارئ لهذا البيت, وشرح الإفليلي, يلحظ أثر ذلك, وهو ما يعكس لنا مدى الحرية التي عاشها الأديب الأندلسي في رحاب دولة بني حمود؛ إذ كانت هذه العلوم ممنوعة في عهد الحكومات السابقة, ويعاقب عليها القانون(٧٩٣).

وفضلاً عن عناية ابن الإفليلي بالمنهج التاريخي في شرحه لأشعار المتنبي, فهو لم يغفل الجانب الفني, ومن جملة ذلك شرحه لبيت المتنبي:

وقفـتَ ومـا فـي المـوتِ شـكٌّ لِواقـفٍ
كأنـك فـي جَفْـنِ الـرَّدى وهـو نـائِمُ(٧٩٤)

علّق الشارح على هذا البيت, قائلاً: "وقفتَ غير متهيبٍ, واقدمت غير متوقعٍ, والموت لا شك فيه عند من وقفَ موقفك, وتقدم تقدّمك, كأنك من الردى في أمكن

---

(١) شرح شعر المتنبي, ج٢: ٣٣٤.

(٢) كان المنصور بن أبي عامر يلاحق الأدباء في أفكارهم وآرائهم, وقد اتُهم أبو القاسم بالأخذ من الأفكار التي كانت ممنوعة على عهد المنصور بن أبي عامر, كالفكر الاعتزالي. ينظر: شرح شعر المتنبي, ج١: ٣٣-٣٦.

(٣) شرح ديوان المتنبي, ج٤: ١٠١.

مواضعه, وهو مُعرض عنك فيما يتكلف من شدائده, وأشارَ بجفن الرَّدى إلى عظيم ما اقتحم سيف الدولة, وبنَومِه إلى إعراضه مع ذلك عنه..."[٧٩٥].

ويتطرّق الشارح بعد ذلك إلى الجانب الفني في هذا البيت, بقوله: "فألطَفَ الإشارة, وأحسَنَ الاستعارة"[٧٩٦].

يحاول الشارح في أثناء شرحه للأبيات, الإحاطة بكلّ ما يتعلق بالقصيدة: الزمان والمكان والمعنى, وفضلاً عن هذا وذاك تعليقه على الجانب الفني, وهذا ما يصوّر لنا ثقافة الشارح وتمكّنه في الخوض في مثل هكذا نوع من أنواع التأليف في ظل دولة يني حمّود في الأندلس.

شَكّلَ الكتاب قيمة أدبية كبرى؛ كون تأثير المتنبي وصل إلى الأندلس وتذوّق الأندلسيين لأشعار المتنبي, فالشعراء القدامى وبخاصة الشاعر العباسي "كان أقرب إلى روح الشاعر الأندلسي؛ لِما امتلك من ثراء شعري مثّلتْ نماذجه قمّة الشعر العربي, وشخصيات شعرية كان لها الدور الكبير والمؤثر في تطوّر حركة الشعر العربي, لذا كان تأثّره به واضحاً وكبيراً يلفت الانتباه إلى درجة تجعله ظاهرة بارزة"[٧٩٧].

وتبرز أهمية الكتاب في تصويره للحرية التي تمتّع فيها الأديب في رحاب دولة بني حمود, فالمعاني الفلسفية التي توزعت في شرح الإفليلي لأبيات المتنبي واضحة, ومن الواضح أنَّ هذه العلوم كانت ممنوعة في ظل الحكومات السابقة, وهو فضلاً عن هذا وذاك فقد ترك هذا الكتاب أثراً واضحاً في بعض الشرّاح الذين جاءوا

---

(١) شرح شعر المتنبي, ج٢: ٢٥٣.

(٢) م. ن, ج٢: ٢٥٣.

(٣) أبو العلاء المعري مؤثراً: ٣٨.

بعده[٧٩٨], وقد أثنى ابن حزم على هذا الكتاب في رسالته التي كَتَبَها في فضائل أهل الأندلس, إذ قال: "وما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الإفليلي لشعر المتنبي, وهو حَسِنْ جداً"[٧٩٩], وهو يُعد –أيضاً– صورة صادقة للنثر التأليفي في ظل دولة بني حمود في الأندلس, فقد انماز باختيار اللفظة والأناقة في التعبير, وحُسن الصياغة[٨٠٠].

رابعاً– كتاب التبيان للملك عبد الله آخِر ملوك بني زيري:

مؤلف الكتاب هو الملك عبد الله آخر ملوك بني زيري في الأندلس, والذي استمرت مدة خلافته من سنة (٤٦٥ – ٤٨٣هـ)[٨٠١], وقد ألّفَ هذا الكتاب في أثناء مدة إقامته في أغمات[٨٠٢], مثلما كتبَ المعتمد أشعاراً يتسلّى بها في هذا المكان, فقد كتب الأمير عبد الله نثراً[٨٠٣], وقد نشره المستشرق ليفي بروفنسال عام ١٩٤٨م[٨٠٤].

ذكر المؤلف في مقدمة الكتاب القواعد الأساسية التي يتعيّن على المؤلف اتباعها, ومنها: الصدق والحرية في التعبير, ومن جملة ما قال: "الكلام إذا خرج من

---

(١) الشُرّاح الذين اعتنوا بشرح شعر المتنبي بعد ابن الإفليلي استفادوا من هذا الشرح, فهذا ابن القطاع ينقل عن ابن الإفليلي فيما تناوله من شرح لأبيات المتنبي, وتأثر أبو علي بن عبد الله الصقلي المغربي بطريقة ابن الإفليلي في تناول بعض الأبيات. ينظر: شرح شعر المتنبي, ج١: ١٢١ وما بعدها.

(٢) رسائل ابن حزم, ج٢: ١٨٣.

(٣) شرح شعر المتنبي, ج١: ١٤٠.

(٤) ينظر: دول الطوائف (منذ قيامها حتى الفتح المرابطي): ٤٦١.

(٥) أغمات: مدينة تقع في المغرب, تنماز بوفرة الخيرات, وكانت تابعة لدولة المرابطين, وقد نفي إليها الملك عبد الله بعدما استولى المرابطون على الأندلس. ينظر: معجم البلدان, ج١: ٢٥٥.

(٦) ينظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ٣٤٠.

(٧) ينظر: مذكرات الأمير عبد الله: ٧.

القلب, وقع في القلب, ولا خير في رامٍ, ولا متكلم هائب, فإنَّ الهيبة فرع من المخافة, والمخافة فرعٌ من الحذر, ومن حذر فقدَ عقله..."(٨٠٥).

وكأنَّ المؤلف يريد أن يقول: إنَّ الخوف يقتل الإبداع, فالحرية في التعبير من أهم عوامل نجاح الكاتب, ولهذا يقول: (ومن حذر فقدَ عقله), ثم يوصي المؤلف الكُتّاب بمخالفة الهوى وعدم اتّباعه, إذ يقول: "ولا يجب على الناطق, والكاتب, أن يتّبع هواه في أَمره كلّه..."(٨٠٦).

يتحدث الكاتب مع القارئ, وكأنه يريد أن يضفي على أسلوبه الحيوية, ويخلق حواراً مع القارئ كأنه يراه, مثلما فعلَ الجاحظ من قبل, فمن جملة ما جاء بهذا الصدد كلامه عن التخلّي عن هوى النفس اثناء الكتابة, وكأنه يريد إقناع القارئ بأي وسيلة من الوسائل, إذ قال: "... ولا عليه أن يرفض ذلك؛ فيكون بانياً على غير أصل, عاملاً بغير نهاية, وعسى بذلك يسعى فيما يُصلح غيره, ويُفسد حال نفسه وهو لا يشعر"(٨٠٧).

فيجب على الكاتب بناء عمله على أسس رصينة, ويفكّر في أثرِه الذي يُعمّر أكثر منه, فلا يُفسد حاله في اتّباعه هواه وهو لا يشعر, لأنه صاحب رسالة, أو جزء من المجتمع.

اهتم الملك عبد الله بصناعة الكتابة, فثقافته الواسعة وخياله الخصب, مكَّناه من الكتابة في أغلب الموضوعات, ومن جملة كتاباته تأمّلهُ في تقلّب الأقدار, إذ قال: "ورَأَيْنا أنَّ شغل البال بما مضى لا يردّ شيئاً غير الهمِّ والكرب الذيْن يُنحلان الجسم ويُذهبان اللُّبَّ, وأنَّ الحرجَ على ما يكون تعبٌ للبدن ومَشَقَّةٌ للإنسان؛ لأنْ

---

(١) ينظر: مذكرات الأمير عبد الله: ١.

(٢) م. ن: ١.

(٣) م. ن: ١.

تقول الفلاسفة: لا يُلتذُّ بما مضى ولا يُدرى ما يكون فيما بقى, وإنما له لذّةُ ساعته التي هو فيها, أو عمله الذي يجده لِبعادِه"[٨٠٨].

تنوعت المعاني الفلسفية على معاني النص الآنف الذكر, وهو ما يعطينا دلالة واضحة على ثقافة الكاتب وفكره واطّلاعه؛ فهو يُعضد كلامه بأقوال الحكماء والفلاسفة, فقد استشهد بقول أحد الحكماء: (لا يلتذ بما مضى ...), فضلاً عن علمه بالطب, فقد ذكرَ في النص السابق ما ينفع الأبدان وهو مؤشر أيضاً على رصيد الكاتب الثقافي وموسوعيته.

ومن القضايا التي ذَكَرَها المؤلف, قضية اللفظ والمعنى, وقد جاء ذلك في سياق حديثه عن نظم الكلام, إذ قال: "ألا ترى أنَّ مؤلف الكتاب, إنْ كان غَرَضَهُ نَظم الكلام, وسجع اللفظ, كان ضاراً بالمعنى, وإنْ أتى به فإنما يسوقه بعد تحليق عليه, ورُبَّما وصفه من غير شكله..."[٨٠٩].

يبيّن المؤلف في النص أعلاه: أنَّ الجهد الذي يبذله الكاتب ليختار لفظة مناسبة تنسجم مع العبارة التي قبلها, قد يسبب ضرراً في المعنى, ومن ثم يؤثر هذا الأمر على القارئ وصعوبة فهمه لبُغية الكتاب, قد يكون المؤلف محقّاً, ولكن ليس في كل مرة يحدث هذا, فالنغم الموسيقي, والتوازن الصوتي يضفيان على النص جمالية تُثير اللذة والمتعة عند القارئ, فضلاً عن الفائدة الموجودة في النص, ويبدو أنَّ المؤلف كان يجمع بين الصناعتين (الكتابة والشعر), فهو ينظم الشعر أوقات الفراغ, مثلما قال: "... شعر نظمناه وقت فراغ البال وجمام النفس, مع ما أعان على ذلك من النظر إلى كل مستحسن, والسرور يطيب كل خير"[٨١٠].

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ١٧٦.

(٢) م. ن: ٣.

(٣) م. ن: ١٧٨.

لكنه على ما يبدو كان مُقلّاً في قول الشعر, ولكن ما يُهيج قريحته الشعرية هي مواقف يمرّ بها ويريد تسجيلها وتدوينها في أشعاره, ولكنه يجد مشقة وعناء حتى يحضر في ذهنه ما يريد تصويره من مواقف آلمت به(٨١١).

ويبدو أنَّ المؤلف كان يتمتع بثقافة واسعة, فقد تحدّثَ في هذا الكتاب عن الطب والأغذية والتنجيم, فضلاً عن اطلاعه الواسع في العلوم الدينية(٨١٢).

وتبرز قيمة الكتاب الأدبية في القضايا التي تحدّثَ عنها المؤلف في هذا الكتاب, مثل: الصفات التي ينبغي على المؤلف التحلّي بها, والآراء التي طرحها في اللفظ والمعنى التي تنمّ عن خبرته واطلاعه على الكتب الأدبية التي سبقت تأليف هذا الكتاب, فضلاً عن معرفته واطلاعه بالفلسفة, وهو ما يعكس لنا ثقافة وفكر الكاتب التي أخذت من كل علم بسبب, والتي طالت حتى الطب والتنجيم والأغذية... وغيرها.

والكتاب وثيقة لغوية نتعرف من خلالها على الاستعمالات اللغوية التي كانت تستخدم في الأندلس يومذاك(٨١٣).

ويُعد الكتاب وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول نتعرّف من خلالها على الأحداث السياسية والاجتماعية التي رافقت مملكة بني زيري في الأندلس(٨١٤), فهو دليل يسترشد إليه القارئ على بعض الجوانب الغامضة في عصر الطوائف؛ فهو يؤرّخ للمدة التي انتهت فيها مؤلفات ابن حيان القرطبي(٨١٥).

---

(١) ينظر: مذكرات الأمير عبد الله: ١٧٨.

(٢) ينظر: م. ن: ١٧٨-١٨١.

(٣)ينظر: أمثال العوام في الأندلس, ج١: ١١١, و مذكرات الأمير عبد الله: ٩.

(٤) مذكرات الأمير عبد الله: ٨.

(٥) م. ن: ٥.

خامساً- المحاضرة والمذاكرة لابن عزرا اليهودي:

مؤلف هذا الكتاب هو الأديب اليهودي موسى بن عزرا, كان أديباً وجَمَعَ بين الصناعتين (الشعر والنثر), وله أشعار نظمها على طريقة العرب, ذَكَرَ فيها الخمر والغَزَل وحياة اللهو(٨١٦), وألَّفَ كتابه (المحاضرة والمذاكرة) وكان متأثراً بالجو الثقافي الذي عاشه هو ومجموعة من أدباء عصره في ظل الملك عبد الله آخِر ملوك بني زيري في الأندلس(٨١٧), وقد ضاع أصله العربي, وبقيت ترجمته اليهودية(٨١٨), وقد قام مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة بترجمة الكتاب من العبرية إلى العربية, وهو الآن مطبوع وبين يَدَيْ الباحث.

يسأل المؤلف في هذا الكتاب أسئلة عدة, وقد قسّم كتابه على ضوء هذه الأسئلة التي طرحها, ويبدو أنَّ هذه الطريقة كانت متبعة عند كثير من الأدباء ولمدة طويلة, فالأديب أو العالم عندما يؤلف كتاباً, يذكر في المقدمة أنَّ الدافع من تأليفه هو رغبة تلاميذه في أن يؤلف لهم كتاباً يجمع فيه عصارة علمه, وثمرة مسيرته العلمية, كي يسترشدون بطريقته وما دوّنهُ لهم ولغيرهم من طلبة العلم(٨١٩).

ويختتم كلامه عن الخطابة, ويذكر بأنها موجودة عند اليهود في التوراة, ويُلحق بها الصلوات والمقالات(٨٢٠).

---

(١) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي, آنخل جنثالث بالنثيا: ٥٥٧ وما بعدها.

(٢) ينظر: المكونات العربية في الشعر العبري (موسى بن عزرا أنموذجاً) (بحث): ٥٥ وما بعدها.

(٣) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ٥٥٨.

(٤) المحاضرة والمذاكرة: ٢٣.

(٥) وقد ذكر أنَّ الكتب النبوية قد احتوت على كثير من الخطب, مثل: خطبة الوداع عند يوشع (ع), وخطبة الوداع النبي داود (ع), ويُلحق بهذه الخطب الصلوات والمقالات, مثل: صلوات حزقيال ومقالة يشيعياهو, وصلاة حنا, وصلوات دانيال وعزرا (عليهم السلام). ينظر: المحاضرة والمذاكرة: ٢٦.

ويبدو من حديث ابن عزرا عن الشعر والنثر أنه يميل إلى الشعر أكثر من النثر, وقد جاء ذلك في سياق حديثه عن الخطب والأشعار, إذ يقول: "... الشعر أرشق في الأسماع وأعلق بالطباع, وأجلب للمعنى الرفيع, وأجمع لأفانين البديع, وقال بعضهم: النثر يتطاير تطاير الشرر, والنظم يبقى بقاء النقش في الحجر, وبالنظوم تتخلّد جلايل الكريم وتتابت رذائل اللئيم, والحفظ على المنظوم أسرع, والآذان إلى قبوله أنشط وأسمع..."[٨٢١].

تبيّن لنا من خلال النص الآنف الذكر أنَّ المؤلف يميل إلى الشعر أكثر من النثر, وقد ذكرَ لنا الأسباب؛ فالنغم الموسيقي الذي يتكرر في فترات زمنية منتظمة يُلقي بظلاله على الأذن ومن ثم تسهل عملية الحفظ, فضلاً عن الانسجام الذي يحققه هذا النغم للنفس البشرية, لكن المنثور على حد رأيه يتطاير مثلما يتطاير الشرر.

ويعترف المؤلف بالفضل للعرب في قول الشعر, فقد كان لهم قصب السبق في هذا المضمار؛ ولهذا صار الشعر عندهم طبعاً ولكنه عند سائر الملل الأخرى تطبّعاً[٨٢٢] وهو لا يعلم تاريخاً محدّداً لليهود في تعاطي الشعر, ويعلل ذلك بقوله: "لافتراق الشمل في بلاد مختلفة وأمم متباينة, وأزمان متباعدة, فما أعرف أي بلدة تقدمت في هذا الأمر ساحتها, ولا أي جماعة تبعت أختها"[٨٢٣], ولكنه يقف عند الأندلس, ويتحدث عن طائفة من الأدباء اليهود الذين قالوا الشعر وكتبوا الخطب والرسائل[٨٢٤].

---

(١) المحاضرة والمذاكرة: ٣٤.

(٢) ينظر: م. ن: ٣٩.

(٣) م. ن: ٥١.

(٤) ينظر: م. ن: ٥٩-٧٠.

ومن جملة الأمور التي توقَّفَ عندها المؤلف هي الصدق والكذب في الشعر, فقد جاء ذلك في سياق حديثه عن أبيات لأبي تمام, قال فيها: [الطويل]

هـو البَحـرُ مـن أَيِّ النَّـواحِي أتيتَـهُ
فَلُجَّتُــهُ المعــروفُ والجُــودُ سَــاحِلُهْ
تَعَـوَّدَ بَسْـطَ الكَـفِّ حتَّـى لَـوَ أنَّـهُ
ثَنَاهــا لِقَــبْضٍ لــم تُجِبْــهُ أَنامِلُــهْ
وَلَـوْ لـم يكـنْ فـي كَفِّـهِ غيـرُ نَفْسِـهِ
لَجَــادَ بهــا فَلْيَتَّــقِ الله ســائِلُهْ(٨٢٥)

وقد علّق على هذه الأبيات, بقوله: "فهذه كلها تشبيهات(٨٢٦) كاذبة, والمراد بها أنه جواد".

وقد تحدث المؤلف بعد ذلك عن الطريقة المثلى في صناعة القريض العبري على الطريقة العربية, وهو يعود مرة ثانية للاعتراف بفضل العرب وتقدمهم في قول القريض, وأنَّ اليهود تابعة لهم في هذا الأمر(٨٢٧).

ويختم المؤلف كتابه في الحديث عن محاسن الشعر وقد تناول فيه الاستعارة والمطابقة والتقسيم وغيرها من فنون البلاغة, وهو يبتدئ بمثال من الشعر العربي ومن ثم يعطي مثالاً عن الشعر العبري(٨٢٨).

تكمن أهمية الكتاب فيما يقدّمه المؤلف من مادة علمية متنوعة, خضعت للمناقشة والمحاورة, ومن ثم يصبح هذا الكتاب صورة لنمط التفكير العقلي في

---

(١) شرح الصولي لديوان أبي تمام, ج٢: ٢٠٣.
(٢) المحاضرة والمذاكرة: ٩٠.
(٣) ينظر: م. ن: ١٤٣.
(٤) ينظر: م. ن: ١٦١–١٩٨.

غرناطة في أواخر القرن الخامس للهجرة[٨٢٩], والحركة الأدبية والمجالس التي كانت تُعقد في غرناطة في ظل دولة بني زيري في الأندلس.

وتبرز أهمية الكتاب في كونه من المصادر اليهودية الأولى التي تحدثت عن مقدرة اللغة العربية وتمكُّنها من بسط نفوذها على اللغات الأخرى[٨٣٠], والأثر العربي في الأدب اليهودي؛ فالأديب اليهودي يقتفي اثر الأديب العربي وينظم على منواله ويعترف له بالفضل في ريادته في صناعة الشعر والنثر, فالكتاب في ظاهرِهِ يوحي بأنه إبداع يهودي, ولكنه في الحقيقة قد نقل الفكر العربي الإسلامي في الأدب[٨٣١].

---

(١) ينظر: مقاصد أدبية في كتاب (نتائج المذاكرة), أ. د. محد حسين المهداوي, مجلة جامعة كربلاء, كلية التربية للعلوم الإنسانية (بحث): ١١.

(٢) ينظر: المحاضرة والمذاكرة: ٤.

(٣) ينظر: م. ن: ١٠ و ١٣ و ١٤٣.

سادساً- جمع أشعار الحماسة لأبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني:

أَلَّفَهُ أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني, قال فيه ابن بسام: "من جملة من وفد أيضاً على البلد في ذلك الأوان, وكان الغالب على أدواته علم اللسان, وحِفْظ الغريب, والشعر الجاهلي والإسلامي, إلى المشاركة في أنواع التعليم..."[٨٣٢].

تبيّن لنا من كلام ابن بسام الآنف الذكر, ثقافة الجرجاني؛ فهو على اطلاع واسع بالأشعار القديمة, الجاهلي والإسلامي, فضلاً عن مشاركته في تعليم الطلبة في المجالس التي كانت تُعقد في غرناطة في ظل دولة بني زيري, ويشارك فيها عدد غير قليل من طلبة العلم, وفضلاً عن هذا كله, كان أبو الفتوح من الوافدين على الأندلس, ويبدو أن اختياره لغرناطة؛ لعلمه بالحركة العلمية التي بلغت ذروتها في ظل حكومة بني زيري في غرناطة, واختار هذه البقعة المباركة ليشارك بقية الأدباء في هذا النشاط.

كان أبو الفتوح متقناً لعلوم عدّة, وهو فضلاً عن معرفته واطلاعه بالأشعار القديمة, كان فيلسوفاً وفلكياً, إلّا أنَّ تدخّله في السياسة, واتّهامه في تدبير مؤامرة لقتل باديس, تسببت في قتله سنة ٤٢١هـ[٨٣٣].

الكتاب مخطوط, وهو مقسّم على عدة أبواب: باب الشجاعة, باب المراثي, باب النسيب, باب البخل, باب الملح والظرف[٨٣٤].

وعمل الجرجاني في هذا الكتاب كان معنياً بشرح الألفاظ التي كان يعتريها الغموض في الأشعار التي ترد في أبواب الكتاب, ومن جملة الأشعار التي جاءت, ضمن حديثه في باب الشجاعة:

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ٩٠-٩١.

(٢) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ١٣٥.

(٣) المخطوط: ٨.

تلاقـــوهم فتعرفـــوا كيـــف صـــبرهم
علــى مــا جنــت فــيهم يــد الحــدثانِ
مقــاديم وصــالون فــي الــروع خطــوهم
بكـــلّ رقيـــق الشـــفرتين يمـــانِ[835]

وقد علّق الشارح على هذين البيتين, بقوله: "مقاديم جمع مقدام وهو الشجاع, والروع الفزع"[836].

وفضلاً عن شرحِه لبعض مفردات البيت الشعري, قد يشرح المعنى العام للبيت, فهو عندما توقّف عند كلمتَيْ (مقاديم) و (الروع) في البيتين السابقين, نراه في موضع آخر يشرح المعنى العام للبيت, ومن الأمثلة على ذلك:

إذا استـنجدوا لـم يسـألوا مـن دعـاهم
لأيّـــةِ حـــربٍ أمْ بـــأيِّ مكـــان[837]

والمراد من هذا البيت: إنَّ هؤلاء القوم لم يستعينوا بمن استعان بهم بكلِّ حالٍ من الأحوالِ[838].

ومن الأمثلة الأخرى التي وردت في الكتاب, ما جاء في باب المراثي, في قول الشاعر:

أعاتـــبُ نفســـي إنْ تبسَّـــمْتُ خاليـــاً
وقــد يضــحك الموتــور وهــو حــزينُ

---

(١) المخطوط: ٨.
(٢) م. ن: ٨.
(٣) م. ن: ٨
(٤) ينظر: م. ن: ٨.

وبالـــدير أشــجاني وكــم شــبحٍ لـــه

دُوَيْــن المصــلى بــالبقيع شــجونُ[٨٣٩]

ويقف الشارح في هذين البيتين على كلمة (الشجن), ويقول: "إنَّ معناها الحاجة, وجمعها أشجان, والبقيع: موضع فيه مقبرة"[٨٤٠], والشارح في أغلب تعليقاته على الأبيات وفي جميع الأبواب يقف على شرح أصل الكلمات التي يعتريها الغموض, ويعطي معناها[٨٤١].

يشكّل الكتاب قيمة أدبية كبرى, فقد اهتم الأندلسيون بأشعار المشارقة, فقد "كان من مكملات الثقافة دراسة مختارات من الشعر الجاهلي والإسلامي, وهو ما يعبّرون عنه باسم الشعر القديم, ومختارات من الشعر المحدث الذي يشمل طبقة مسلم وبشار وأبي نؤاس, ومَن بعدهم..."[٨٤٢].

ويُعد هذا المخطوط وثيقة تُصور لنا الحركة الأدبية في ظل دولة بني زيري, وتبرز فيه ثقافة الشارح, فالجرجاني موسوعة ثقافية, امتلك حافظة قوية, وثقافة واسعة, مَكَّناه من الخوض في مثل هكذا موضوعات, فثقافته المتنوعة وفكره الناصع, ودروسه التي كان يقيمها في غرناطة أضافت إلى النشاط الأدبي في هذه الحقبة من عمر الدولة الزيرية.

---

(١) المخطوط: ٦١.

(٢) م. ن: ٦١.

(٣) ينظر: م. ن: ١٢٩.

(٤) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس, د. محمد رضوان الداية: ٧٧.

سابعاً- أبكار الأفكار لابن شرف القيرواني:

هو أبو عبد الله محمد بن شرف, وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته, وأثنى على مهارته في الصناعتين, إذ قال: "كان أبو عبد الله بن شرف, من فرسان هذا الشأن, وأحد من نظم الآداب, وجمْع أشتات الصواب, وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرياح بأعطاف الغصون..."(٨٤٣).

الواضح من كلام ابن بسام الآنف الذكر عن ابن شرف, إنه من الطبقة الأولى في صناعة النظم والنثر, فهو يمتلك موهبة ومهارة مكَّنتاه من الصناعتين, فضلاً عن ثقافته الواسعة التي سنتعرف على جزء منها في قابل البحث في حديثنا عن منجزه (أبكار الأفكار).

وابن شرف من الأدباء الوافدين إلى الأندلس, فقد تردّدَ على ملوك الطوائف(٨٤٤), وبخاصة على مملكة بني زيري, فكانت تربطه معهم صلة وثيقة في المغرب وقبل مجيئهم إلى الأندلس(٨٤٥).

وَصَفَ هذا الكتاب أحد الباحثين, إذ قال: "من أمتع مؤلفات محمد بن شرف القيرواني, أحد فحول شعراء المغرب والأندلس"(٨٤٦), وقد أهداه المؤلف إلى باديس بن حبوس, وقد طرزه بخطبة, فيها ما فيها من المدح والثناء على باديس ودولته, إذ قال: "ثم سفَّر لي الدهر عن سفرٍ إلى مغرب الدنيا, ومشرق العليا, والبقعة البارعة الباديسية, والدولة المظفرية, والمملكة الشامخة الحميرية, والحضرة الشريفة المنيفة الغرناطية..."(٨٤٧).

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق٤: ١١٩ وما بعدها.

(٢) ينظر: م. ن, ق٤: ١٢٠-١٢٤.

(٣) ينظر: رسائل البلغاء: ٢٣٣-٢٣٦.

(٤) أدب المغاربة والأندلسيين: ٤١.

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ق١: ٤٧٧.

اختارَ المؤلف هذه البقعة في الأندلس, التي تحكم فيها الدولة الزيرية, وقد وصَفَها بـ (الشامخة والمباركة والشريفة), وغيرها من الأوصاف التي يخيّل للسامع وكأنَّ المؤلف اختار هذه البقعة المباركة من دون ملوك الطوائف الأخرى, لعلمه وفهمه للمكانة التي يتبوّأها الأديب في ظل هذه الدولة, ويخيّل للباحث من أنَّ كلمة (البقعة الشريفة) التي وردت في الرسالة فيها إشارة إلى التحالف القائم بين بني حمود وبني زيري, ومن المعلوم لدى الجميع أنَّ بني حمود يرجعون بالنسب إلى الإمام الحسن بن علي (عليهما السلام), ولهذا وجدنا المؤلف قد ذكر ذلك في سياق مدحه لباديس بن حبوس.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الكتاب لا يزال مخطوطاً في خزانة كُتُب الرباط العامة, وقد نقلَ العماد الأصفهاني في خريدته كثيراً من نصوص هذا الكتاب[٨٤٨].

ويبدو من خلال اطلاعنا على النصوص التي نَقَلَها العماد أنَّ الكتاب يجمع بين المنظوم والمنثور, فضلاً عن الأمثال التي شغلت حيزاً كبيراً من هذه النصوص, ومن جملة المنثور الذي نقله العماد: "لمّا فَنَى عُمر الأُنس, وطفي سراج الشمس, لاحت بروق الثغور اللوامع, وجلجلت وعود الأوتار في السامع..."[٨٤٩].

نقَلَ لنا المؤلف في النص السابق حياة اللهو, فعندما انقضى النهار, وغابت الشمس, فما تسمع إلّا أصوات المغنيين, والأدوات التي تساعدهم على الغناء, والنص السابق لا يخلو من الجانب الفني, فقد وظّف المؤلف التوازن الصوتي في: (الأنس, الشمس, اللوامع, والسامع), وقد كانت هذه الحروف منسجمة مع جو النص الذي يوحي بالعبث والمجون والحياة اللاهية التي عاشها بعض الناس يومئذٍ.

---

[١] ينظر: أدب المغاربة والأندلسيين: ٤١.

[٢] خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ١١٣.

وقد ذكر المؤلف طائفة من الأمثال توزعت بين أدب المعاشرة, وفي وصف نعيم العيش, وفي البخل والجود, وفي العداوة[٨٥٠], وفي أنواع شتى, ومنها: "إذا انفصم جناح الطيش, تَمَّ صلاح العيش, ما أحسن الألسن لمن أحسن...., والذكي إذا فكّر, قد ينجز المطول, ويوجز المُطيل..."[٨٥١].

ويبدو أنَّ هذه الحِكَم والوصايا التي ذكرها المؤلف هي عصارة تجربته في الحياة, وقد وظّفَها على هذا النغم الموسيقي حتى يسهل حفظها, وقد ذكر طائفة من الأمور التي تُفيد الآخرين؛ فالغلو بالعبث والمجون يُفسد حياء الفرد, وإذا ترفّع عنها صارَ إلى جادة الصواب, وقد مدحَ الإنسان الذي تعوّد جميل الإحسان, والأجمل منه هو تفكير الإنسان العاقل عندما يُقبل على أمر فيه صعوبة, فتفكيره السليم يُرشده إلى جادّة الصواب, وبالمحصلة هذه الأفكار التي جاء بها المؤلف تعطينا صورة صادقة عن الحياة الأدبية التي عاشها الأديب في ظل دولة بني زيري, وربما قد يمتنع بعض الأدباء من كتابة هكذا أمور قد توقظ أذهان الناس, وهذا ما لا ترضاه بعض الحكومات المستبدة التي تريد المجتمع أن ينغمس في حياة اللهو, ويدع الحكومات تفعل ما تفعل, ولكن المؤلف يعرف جيداً هذه الدولة, ولهذا أهدى عصارة حياته لمن يستحقها.

ومن جملة الأشعار التي وردت, بيتان لا يختلط فيهما حرفٍ بحرف, إذ يقول:

ودُرّةٍ نـــــــــــارت درا داري   لا درَّ درِّي إن درَى داري
ولا روى راوٍ أذاه ولا   ودَّت وِدادي إنْ زرى زاري[٨٥٢]

---

(١) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ١١٤.

(٢) م. ن, ج٢: ١١٤ وما بعدها.

(٣) خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ١١٨.

يبيّن ابن شرف مقدرته في الكتابة, وقد وظّف هذه الحروف التي لا تتصل مع بعضها, وبقية الأشعار التي وردت في أوصاف شتّى: يصف عود[853], وميزان البناء[854], وفي مكمدة ثياب[855], وفي الحبل الذي تُنشر عليه ثياب الغسيل[856], فضلاً عن بعض الأبيات التي يهجو فيها الكذّاب والذي يتجسس على الآخرين, من نحو ما قال:

لا خيـــر فـــي عـــيشٍ يكـــون قوامُـــه
بمنحـــة مكـــذوبٍ ومِدحـــةِ كـــذّابْ[857]

وقوله في متجسس:

وناصـــبٍ نحـــو أفـــواه الـــورى أُذُنـــاً
كالقعـــب يلقـــط كـــلّ مـــا ســـقطا
تـــراه يلقـــط الأخبـــار مجتهـــداً
حتـــى إذا مـــا وعاهـــا رقَّ مـــا لقطـــا[858]

رَكّزَ ابن شرف في الأبيات المذكورة آنفاً, على الأمراض الاجتماعية التي على ما يبدو كانت منتشرة في عصر الشاعر, فهو قَدَّمَ ذم هذه الأفعال, فالعيش الذي يُبنى على الكذب مصيره الخراب, ومن يُقرّب الكذاب فقد ارتكب إثماً كبيراً, فما بالك بالذي يُكرمه ويقرّبه!؛ ولهذا الشاعر يقول: (لا خير في عيشٍ...).

---

(١) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ١١٨.
(٢) ينظر: م. ن, ج٢: ١١٩.
(٣) ينظر: م. ن, ج٢: ١١٩.
(٤) ينظر: م. ن, ج٢: ١٢٠.
(٥) م. ن, ج٢: ١١٨.
(٦) م. ن, ج٢: ١١٩.

والأمر الآخر الذي ذكره الشاعر, هو المتجسس الذي يراقب الناس, فقد نهت الشريعة الإسلامية عن هذا العمل, قال تعالى: ((وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً...))[٨٥٩], وكان الشاعر قد وظّفَ هذه الآية في سياق حديثه عن التجسس.

يُعد هذا الكتاب صورة للمجتمع الأندلسي في هذه المدة من الدراسة, فقد ذكر فيه ابن شرف كثيراً من الأمور التي تتعلق بالمجتمع, فالأمثال التي ذَكَرَها تنوعتْ موضوعاتها: في القرابة, وفي نعيم العيش, والجود, وذِكره لأشعارٍ تتعلق بالأمراض الاجتماعية التي قد تكون منتشرة في تلك الحقبة, كالكذب والتجسس, فضلاً عن ذكره لأشعار يصف فيها العود والمواد المنزلية, فالمادة الأدبية التي عرضها الكاتب في النصوص التي وصلتنا من الخريدة, فيها كثير من المتعة والفائدة للقارئ.

وتبرز أهميته أيضاً في كونه يعطينا صورة عن عقلية الأديب العربي في هذه المدة من عُمر دولة بني زيري في الأندلس, فهذه الأفكار التي انثالت على ابن شرف انثيالاً قد جاءت من ثقافته الواسعة, وذهنه المتوقد, وكانت حصيلة تجربته الأدبية هذا الكتاب.

وخلاصة القول:

فقد ازدهرت حركة التأليف في ظل دولتي بني حمود وبني زيري في الأندلس, وقد اشترك عدد من الأدباء من الذين كانت لهم شهرة واسعة ومنزلة رفيعة بين أدباء عصرهم, أمثال: ابن شهيد الأندلسي, وأبو القاسم الإفليلي, وأبو الفتوح الجرجاني وغيرهم من الأدباء العرب, وكان للأدباء اليهود دَوْرٌ في هذا النشاط, فقد ألّفَ ابن عزرا اليهودي كتابه (المحاضرة والمذاكرة) وهو متأثر بالجو الثقافي في ظل الملك عبد الله آخر ملوك بني زيري, والأمير عبد الله نفسه قد اشترك في التأليف, وهو ما

---

(١) سورة الحجرات, الآية (١٢).

يُعطينا صورة صادقة عن الحياة الأدبية التي عاشتها المناطق التي كانت تابعة للحموديين والزيريين, ولكن من المؤسف أنه قد ضاع أغلب نتاجات الأدباء وبقي منها النزر اليسير, وكانت الأوضاع السياسية والمنافسة بين ملوك الطوائف أنفسهم, سبباً في ضياع هذا التراث الأدبي, فضلاً عن سبب آخر يتعلق في انتماء الدولتين العقائدي.

الخاتمـة

الخاتمة:

يمكن الخروج من هذه الدراسة بنتائج, ومنها:

١- إنَّ المدن الخاضعة لسلطان دولتَيْ بني حمّود وبني زيري قد شهدت أحداثاً كبيرة, وقد تسببت الخلافات الداخلية بين الأسرة الحمّودية في ضعف سلطانها, واستيلاء الزيريين على مالقة, بعدما كانوا ينضوون تحت لواء الحمّوديين, ولم تكن غرناطة بعيدة عن هذه الأحداث السياسية, فقد كان الطمع في السلطة صفة مائزة عند بعض ملوك الطوائف, أمثال ابن عبّاد, مع وجود تحالف وتعاضد عند البعض منها لصدِّهِ, وقد آلت هذه الخلافات لتقويض سلطان ملوك الطوائف والاستعانة بالمرابطين.

٢- شهدت الأندلس في ظل دولتَيْ بني حمّود وبني زيري حركة أدبية دؤوبة, فقد تعددت روافد النشاط الأدبي, وأهمها المجالس الأدبية التي كانت تُعقد في حضرة الخلفاء الحمّوديين والزيريين, وقد ضمّت هذه المجالس عدداً من الفقهاء والأدباء والعلماء الذين اشتهروا ببراعتهم بسائر العلوم التي كانت سائدة يومذاك.

٣- وقد أسهمت الأوضاع السياسية التي عاشتها الأندلس إبان حكم الدولتين في ازدهار الحركة الأدبية والثقافية؛ فالأحداث السياسية لم تؤثر على الحركة الأدبية والثقافية, فقد نهضت الآداب والعلوم نهوضاً عظيماً؛ لتَنافُس الأمراء في تعزيزها وتقريب أصحابها.

٤- انمازت القصائد التي قيلت في مديح الخلفاء الحموديين بتنوّع مقدّماتها, منها ما امتزج مع الغزَل, ومنها ما امتزج مع وصف الطبيعة, فضلاً عن اختراع فن آخر وهو المديح, مع الموشحة الأندلسية, وقد كان عبادة بن ماء السماء شاعر الدولة الحمّودية رائداً في هذا المجال.

٥- كانت مدائح القضاة والعلماء تخلو من المقدمات التي تعوّد الشاعر عليها في مديحه الرسمي, فقد استعاض عنها في مديحه لغير الخلفاء, ودخلَ إلى غرضه بصورة مباشرة.

٦- لم تكن هناك قصائد مستقلة في مديح أهل البيت الأطهار (عليهم السلام)؛ لأنَّ خلفاء دولَتَيْ بني حمّود وبني وزيري من الشيعة الأدارسة الذين يؤمنون بأنَّ الخليفة هو امتداد لأهل البيت (عليهم السلام), فقد استعاضوا بالخليفة الحمّودي في المديح عن مديح أهل البيت (عليهم السلام).

٧- لم نعثر في دراستنا لشعر شعراء بني زيري على أبيات قد تسرّبت إليها العقيدة الشيعية, ويبدو لي أنَّ ضياع كثير من شعر العقيدة الفاطمية الشيعية التي كانت سائدة في ظل الدولتين بفعل أعداء المذهب يومذاك, وما تلاه من فتنٍ واضطرابات قادت إلى ضياع ذلك الشعر, مثلما ضاع كثير من شعر شعراء بني حمّود العقائدي.

٨- تنوّع غرض الهجاء, فقد سارَ على نمطين: الأول مثّله الاتجاه المحافظ الذي مثّلهُ الإلبيري, والآخَر هجاء بذيء مثّله السُميْسر, وابن الحدّاد, وابن الحنّاط... وغيرهم.

٩- انماز غرض الرثاء بالعمق الفلسفي, والتذكير بالآخرة, وبحال الدنيا, ويبدو أنَّ هذا اللون من الرثاء كان متأثراً بفلسفة الرثاء التي كانت عند أبي العلاء المعري.

١٠- دارَ غرض الغزَل حوْل الغزَل العذري, ويبدو أنَّ انتماء الدولتين العقائدي قد حتّمَ على الشعراء الذين عاشوا في كنف الدولتين في الكتابة في هذا اللون الشعري, وعدم الخروج عمّا يخدش الحياء.

١١- لا تخلو أشعار الغزل التي قيلت في هذه الحقبة من عُمر الدولتين من الخروج عن المألوف وعدم الالتزام بالقوانين التي قد رسَمَتها سياسة الدولتين, ولكنها لا تشكّل

ظاهرة؛ فقد يكون الاتجاه المحافظ الذي مثّله الشعراء المحافظين قد أدّى إلى نشوء مثل هذا الاتجاه.

١٢- سارَ شعر الزهد في اتجاهين, الأول: كانَ زهداً ظاهرياً زَرَعَتْهُ فوضى المجتمع واضطراباته, وقد مثّل هذا الاتجاه السميسر. والآخَر كان زهداً حقيقياً نابعاً من عقيدة صادقة, مع الاهتمام بمشاكل المجتمع وتقديم الحلول المناسبة عِبر الأشعار الدينية والاجتماعية, وقد مثّل هذا الاتجاه أبو إسحاق الإلبيري.

١٣- امتزج شعر الطبيعة بالأغراض الشعرية الأخرى كالمديح والغزَل, وهو ما يبيّن لنا ولع الشاعر الأندلسي بالطبيعة الأندلسية الأخّاذة التي انمازت بها المدن الأندلسية التابعة لسلطان الدولتين.

١٤- تغلغل موضوع الوصف في ظل الدولتين في أغلب جوانب الحياة, فقد وصفَ الشاعر الأندلسي بيئته التي عاشَ وترعرع فيها, فقد استولت هذه الصور على ذهنه وأحاسيسه, وعبّرَ عنها في أشعار.

١٥- سارَ شعر الإخوانيات في ظل الدولتين بين المطارحات وبين الاختلاف في الوزن والقافية, فقد كان نوعاً من المباريات الشعرية الممتعة بين الشعراء, وهو ما يعكس لنا الاستقرار الاجتماعي الذي كان يتمتّع به الشعراء في ظل دولتَي بني حمّود وبني زيري, فقد هيّأت هذه الأحوال المستقرة هذا النمط من العلاقات بين الشعراء.

١٦- دعت الحالة الاجتماعية التي عاشها الشعراء في ظل الدولتين إلى بروز موضوع الاستعطاف, فكثير من الشعراء يقفون على أبواب الملوك للتكسّب, ومن الطبيعي أن تجري بينهم المنافسات والسعايات والعداوات, وقد سار هذا اللون في اتجاهين: الأول كانت مباشرة وقد مثّل هذا الاتجاه ابن شُهَيد في قصيدته التي قالها

في علي بن حمّود, والآخَر قصائد غير مباشرة وهي قصائد قيلت في دولة بني حمّود ولكنها كانت موجّهة إلى بعض من ملوك الطوائف؛ فالتنافس بين دول الطوائف قد ألقى بظلاله على ملوك الطوائف الأخرى.

١٧- شكّل رثاء المدن ظاهرة في الأندلس في هذه الحقبة من عُمر الدولتين؛ فقد كَتَبَ أغلب الشعراء في هذا اللون الشعري, واحتلّت قرطبة المرتبة الأولى في رثاء المدن.

١٨- نشطت حركة الشعر في ظل دولتَي بني حمّود وبني زيري, ومما ساعد على ازدهار حركة النثر, ظهور طائفة من الأدباء ممن جمعوا بين الصناعتين, فقد كتبَ هؤلاء الأدباء في أغلب الفنون النثرية, وكانت كتاباتهم صورة للواقع الذي عاشه الأدباء يومذاك, فتأثّروا بالسياسة, فضلاً عن تصويرهم لواقع الحياة الاجتماعية.

١٩- جاءت الرسائل الديوانية والإخوانية صورة صادقة تحكي واقع الحياة التي عاشها الأدباء في ظل الدولتين, وقد تنوعت أساليبهم؛ لبيان مقدرتهم الفنية في الكتابة, والتفوق على أقرانهم من أدباء وملوك الطوائف الأخرى.

٢٠- طغيان أسلوب الاقتباس من القرآن الكريم في كثير من الرسائل, وهو ما ينسجم مع انتماء الكاتب إلى دولتَيْ بني حمّود وبني زيري المعروفتين بعقيدتهما وانتمائهما.

٢١- لا تخلو بعض الرسائل من الجوانب الفنية مثلما هو الحال في رسالة ابن حزم في ردّهِ عل ابن النغريلة اليهودي, ولكنها مثلت قيمة تاريخية وأدبية تَعَرَّفْنا عِبرها على الثقافة الواسعة التي كان يتمتع بها الأديب يومذاك.

٢٢- سارت الأمثال الأندلسية التي قيلت في ظل الدولتين في اتجاهين, الأول: هي أمثال مشرقية وظّفَها الكاتب في كتاباته مع وجود بعض التغييرات التي طرأت عليها, وهي تنمّ عن ثقافة الكاتب ومقدرته في توظيفه بما ينسجم مع سياق النص الأدبي

الذي يتحدث عنه, مثلما هو الحال عند الملك عبد الله آخِر ملوك بني زيرِي, والآخَر: أمثال استحدثتها البنية الأندلسية مثلما هو الحال عند ابن شرف القيرواني في كتابِهِ (أبكار الأفكار), وقد صاغها بأسلوب أدبي رفيع, ينمّ عن عمق تجربته الأدبية, وحجم تفكيره يومذاك.

٢٣- حاولت المقامة الأندلسية السيْر وراء المقامة المشرقية, ولكنها اختلفت معها في بعض الجوانب, فلم نرَ تصويراً لواقع الحياة الاجتماعية التي عاشها الأديب يومذاك, فمثلاً في مقامة ابن شُهَيد الأندلسي وجدنا في بعض جوانبها شبه إلى حدٍّ ما بمقامات الهمداني, ولكن فيها من الانحرافات ما يجعل المتلقي يشعر بها.

٢٤- لم يعثر الباحث في أثناء دراسته للنثر الفني على خطبة سياسية أو دينية أو اجتماعية قيلت في ظل الدولتين, وقد يكون السبب في ذلك هو تعذّر كتابة هذه الخطب؛ لأنها تعتمد البديهة والارتجال, فضلاً عن حجمها, وقد تكون ضاعت مثلما ضاع غيرها من تراث الأندلس.

٢٥- ازدهرت حركة التأليف في ظل الدولتين, وقد اشترك عدد من الأدباء من الذين كانت لهم شهرة واسعة ومنزلة رفيعة بين أدباء عصرهم, أمثال: ابن شُهَيد الأندلسي, وأبو القاسم الإفليلي, وأبو الفتوح الجرجاني... وغيرهم.

٢٦- اشتركَ الأدباء اليهود في حركة التأليف, فقد أَلَّفَ ابن عزا اليهودي كتابَهُ (المحاضرة والمذاكرة) وهو متأثر بالجو الثقافي في ظل الملك عبد الله آخِر ملوك بني زيري.

٢٧- اشتركَ الملك عبد الله في التأليف, فقد أَلَّفَ كتابَهُ (التبيان) وهو ما يعطينا صورة صادقة عن ثقافة الملوك يومذاك.

٢٨- ضاعت أغلب نتاجات الأدباء, وبقي منها النزر اليسير, وكانت الأوضاع السياسية والمنافسة بين ملوك الطوائف أنفسهم سبباً في ضياعها, فضلاً عن سبب آخَر هو انتماء الدولتين العقائدي.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

المخطوطات:

- جمع أشعار الحماسة اختيار أبي تمام, لأبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني.

الكتب المطبوعة:

- ابن صارة الأندلسي (حياته وشعره), مصطفى عوض الكريم, مطبعة مصر, السودان.
- أبو العلاء المعري مؤثراً (دراسة تحليلية لتأثيره في الشعر الأندلسي), د. علي كاظم محمد علي المصلاوي, دار الفرات للثقافة والإعلام, بابل, ٢٠١٦م.
- الأثر العربي في الفكر اليهودي, د. إبراهيم موسى هنداوي, مكتبة الأنجلو المصرية, القاهرة.
- أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي من الفتح وحتى سقوط غرناطة (٩٢-٤٢٢هـ), د. محمد شهاب العاني, دار المعارف, ١٩٩٣م.

- الإحاطة في أخبار غرناطة, لسان الدين بن الخطيب, تحقيق: محمد عبد الله عنان, مكتبة الخانجي, القاهرة, ط٢, ١٩٧٣م.
- الإخوانيات في الشعر الأندلسي, د. علي الغريب, و محمد الشناوي, مكتبة الآداب, القاهرة, ط١, ٢٠٠٦م.
- أدب الأمثال والحكم, طالب السنجري, ط٢, مجمع البحوث الإسلامية, مشهد, ١٤٢٢هـ.
- الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه), د. مصطفى الشكعة, دار العلم للملايين, لبنان, الطبعة الثانية عشر, ٢٠٠٨م.
- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة, د. أحمد هيكل, دار المعارف, الطبعة الثامنة عشرة.
- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة, د. منجد مصطفى بهجت, مؤسسة السياب, لندن, ط٣, ٢٠١٢م.
- الأدب الأندلسي, د. سامي يوسف أبو زيد, دار المسيرة, عمان, ط٢, ٢٠١٦م.
- الأدب العربي في الأندلس (تطوره – موضوعاته وأشهر أعلامه), د. علي محمد سلامة, الدار العربية للموسوعات, بيروت, ط١, ١٩٨٩م.

- الأدب العربي في الأندلس, د. عبد العزيز عتيق, دار النهضة العربية, بيروت.
- أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية, محمد رضا الشبيبي, ١٩٦٠م, معهد الدراسات العربية العالية.
- أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث (أخبارهم, آثارهم, نقد أشعارهم), بطرس البستاني, دار نظير عبود.
- الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى, الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري, تحقيق: جعفر الناصري, دار الكتاب, ١٩٩٧م.
- إشبيلية في القرن الخامس الهجري (دراسة أدبية تاريخية), د. صلاح خالص, دار الثقافة, ١٩٦٥م.
- أعلام مالقة, لأبي عبد الله بن عسكر, وأبي بكر بن خميس, تقديم وتخريج وتعليق: د. عبد الله المرابط التراغي, دار الغرب الإسلامي, ط١, ١٩٩٩م.
- الأعلام, خير الدين الزركلي, دار العلم للملايين, بيروت, الطبعة الخامسة عشرة, ٢٠٠٢م.

- أمثال العوام في الأندلس, لأبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي (٦٩٤هـ), تحقيق: د. محمد بن شريفة, منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي, ١٩٧٥م.
- بدائع البدائة, علي بن ظافر الأزدي, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, مكتبة الأنجلو المصرية, ١٩٧٠م.
- البديع في وصف الربيع, لأبي الوليد إسماعيل الحميري الإشبيلي (٤٤٠هـ), تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان, دار المدني, جدة, ط١, ١٩٨٧م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة, جلال الدين السيوطي (٩١١هـ), تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, ط٢, دار الفكر, ١٩٧٩م.
- البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ابن عذارى المراكشي, تحقيق: د. إحسان عباس, دار الثقافة, لبنان, ط١, ١٩٩٧م.
- البيان والتبيين, لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ), تحقيق: عبد السلام محمد هارون, مكتبة ابن سينا, القاهرة, ط١, ٢٠١٠م.
- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (عصر ملوك الطوائف), د. سعد إسماعيل شلبي, دار نهضة مصر, القاهرة.

- تاريخ ابن خلدون (٨٠٨هـ), تحقيق: أبو صهيب الكرمي, بيت الأفكار الدولية, عمّان.
- تاريخ آداب اللغة العربية, مصطفى صادق الرافعي, دار الكتب العلمية, ط١, ٢٠٠٠م.
- تاريخ إسبانيا الإسلامية (كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام), لسان الدين بن الخطيب, تحقيق: ليفي بروفنسال, دار المكشوف, بيروت, ط٢, ١٩٥٦م.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين), د. إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت, ط٢, ١٩٧١م.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة), د. إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت, ط٢, ١٩٦٩م.
- تاريخ الأدب الأندلسي, د. مصطفى السيوفي, ط١, ٢٠٠٨م, الدار الدولية للاستثمارات الثقافية, القاهرة.
- تاريخ الأدب العربي (الأدب في المغرب والأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف), عمر فرّوخ, دار العلم للملايين, بيروت, ط١, ١٩٨٤م.
- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات/ الأندلس), د. شوقي ضيف, دار المعارف, ط٥, ٢٠٠٩م.

- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي, د. حسن إبراهيم حسن, دار الجيل, بيروت, ط١٤, ١٩٩٦م.
- تاريخ الفكر الأندلسي, آنخل جنثالث بالنثيا, ترجمة: د. حسين مؤنس, الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, ٢٠١١م.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، د. إحسان عباس، دار الثقافة، ط٤، ١٩٨٣م.
- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس, د. محمد رضوان الداية, مؤسسة الرسالة, (بيروت), ط٢, ١٩٩٣م.
- تاريخ الوزارة في الأندلس, د. أسامة عبد الحميد حسين السامرائي, دار الكتب العلمية, لبنان, ط١, ٢٠١٢م.
- تاريخ قضاة الأندلس, أبو الحسن بن عبد الله النباهي المالقي الأندلسي, تحقيق: لجنة إحياء التراث في دار الآفاق الجديدة, بيروت, ط٥, ١٩٨٩م.
- التجديد في الأدب الأندلسي, د. باقر سماكة, ط١, دار الجنائن, بغداد, ١٩٧١م.
- التحف والهدايا, لأبي بكر وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين, تحقيق: سامي الدهان, دار المعارف, مصر.

- تحفة القادم, لأبي عبد الله محمد بن الأبّار القضاعي, تحقيق: د. إحسان عباس, دار الغرب الإسلامي, ط١, ١٩٨٦م.
- التربية الإسلامية في الأندلس (أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية), خوليان ريبيرا, ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي, ط٢, دار المعارف, ١٩٩٤م.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك, لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي, وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية, المغرب, ١٩٨٣م.
- التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية, د. محمد علي مكي, مكتبة الثقافة الدينية, القاهرة, ط١, ٢٠٠٤م.
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي, أنيس المقدسي, دار العلم للملايين.
- التعليقات والنوادر, أبو علي هارون بن زكريا الهجري, دراسة وتحقيق: د. حمود عبد الأمير الحمادي, دار الرشيد, ١٩٨١م.
- التكسب في الشعر, جلال الخياط, دار الآداب, بيروت, ١٩٧٠م.
- تيارات النقد الأدبي في الأندلس (في القرن الخامس الهجري), د. مصطفى عليان عبد الرحيم, مؤسسة الرسالة, بيروت, ط١, ١٩٨٤م.

- الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم), حنا الفاخوري, دار الجيل, ٢٠٠٥م, بيروت.
- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس, لأبي عبد الله محمد بن فتوح الحميدي, دار الغرب الإسلامي, القاهرة.
- جمهرة الأمثال, لأبي هلال العسكري, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, وعبد المجيد قطامش, دار الجيل, ط٢, ١٩٨٨م.
- الحركة اللغوية في الأندلس (منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف), البير حبيب مطلق, المكتبة العصرية, بيروت, ١٩٦٧م.
- حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة, للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي, بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار إحياء الكتب العربية, ط١, ١٩٦٧م.
- حضارة الإسلام, جوستاف جرونيباوم, ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد, دار الثقافة العامة, مصر.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري, آدم متز, ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة, المركز القومي للترجمة, القاهرة, ٢٠٠٨م.
- الحُلّة السَّيْراء, لابن الأبّار (٥٩٥هـ), تحقيق: حسين مؤنس, دار المعارف, القاهرة, ط٢, ١٩٨٥م.

- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية, شكيب أرسلان, منشورات دار ومكتبة الحياة, بيروت.
- الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء, لويس سيكو, ترجمة: عدنان محمد آل طعمة, دار سعد الدين, دمشق, ١٩٩٤م.
- حركة الشعر العربي في مصر الفاطمية (٣٥٨-٤٢٧هـ), د. محمد حسين عبد الله المهداوي, دار الكتب موزعون ناشرون, العراق, كربلاء.
- الخالدون من أعلام الفكر (الجزء الغربي), أحمد الشنواني, دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع, ط١, القاهرة, ٢٠٠٧م.
- خريدة القصر وجريدة العصر, العماد الأصفهاني, تحقيق: عمر الدسوقي, وعلي عبد العظيم, دار نهضة مصر, القاهرة.
- دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والفقه والحضارة والأعلام, يوسف عيد, المؤسسة الحديثة للكتاب, لبنان, ٢٠٠٦م.
- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي, محمد عبد الله عنان, دار الكاتب العربي, القاهرة, ط٢, ١٩٦٩م.
- ديوان ابن الأبّار الخولاني (٤٣٣هـ), أ. د. محمد حسين عبد الله المهداوي, و د. عدنان محمد آل طعمة, ط١, دار الفرات, بابل, العراق, ٢٠١٧م.

- ديوان ابن الحدّاد (٤٨٠هـ), تحقيق: د. يوسف علي طويل, دار الكتب العلمية, ط١, ١٩٩٠م.
- ديوان ابن حزم الأندلسي (٤٥٤هـ), دراسة وتحقيق: د. عدنان محمد آل طعمة, دار الفرات, الحلة, ٢٠١٦م.
- ديوان ابن درّاج القسطلي (٤٢١هـ), تحقيق: د. محمود علي مكي, منشورات المكتب الإسلامي, دمشق, ط١, ١٩٦١م.
- ديوان ابن زيدون ورسائله, تحقيق: علي عبد العظيم, مطبعة نهضة مصر.
- ديوان ابن شرف القيرواني (٤٦٠هـ), تحقيق: د. حسن ذكرى حسن, مكتبة الكليات الأزهرية.
- ديوان ابن شُهيد الأندلسي, جمعه وحققه: يعقوب زكي, دار الكاتب العربي, القاهرة.
- ديوان أبي إسحاق الإلبيري, تحقيق: محمد رضوان الداية, دار قتيبة, ط٢, ١٩٨١م.
- ديوان البحتري, حسن كامل الصيرفي, ط٣, دار المعارف.
- ديوان الفرزدق, تحقيق: كرم البستاني, دار بيروت للطباعة والنشر, بيروت, ١٩٨٤م.

- ديوان المعتمد بن عبّاد (ملك إشبيلية), جمع وتحقيق: د. رضا الحبيب السويسي, الدار التونسية للنشر, ١٩٧٥م.
- ديوان لسان الدين بن الخطيب, تحقيق: محمد مفتاح, دار الثقافة, ط١, ١٩٨٩م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, أبو الحسن علي بن بسام, تحقيق: د. إحسان عباس, دار الغرب الإسلامي, ط١, ٢٠٠٠م.
- الذيل والتكملة لكتابَيْ الموصول والصلة, ابن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي, تحقيق: د. محمد بن شريفة, و د. إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت.
- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار), أبو عبد الله محمد بن عبد الله بم محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (٧٧٩هـ), مؤسسة هنداوي, مصر, ٢٠٢٠م.
- الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى, ابن حزم الأندلسي, تحقيق: د. إحسان عباس, مكتبة دار العروبة, القاهرة, ١٩٦٠م.
- رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي, تحقيق: بطرس البستاني, مكتبة صادر, بيروت, ١٩٥١م.

- رسائل ابن حزم (٤٥٦هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية الدراسات والنشر، بيروت.
- رسائل البلغاء, محمد كرد علي, دار الكتب العربية الكبرى, مصر, ١٩١٣م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار, محمد بن عبد المنعم الحميري, تحقيق: د. إحسان عباس, مكتبة لبنان, ط٢, ١٩٨٤م.
- السمات الفنية لمقطعات الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين, د. محمد شهاب أحمد, دار أمل الجديدة, سوريا, ط١, ٢٠١٤م.
- سير أعلام النبلاء, للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ), رتّبه وزاده فوائد واعتنى به: حسان عبد المنان, بيت الأفكار الدولية, لبنان, ٢٠٠٤م.
- السيرة النبوية, كمال أبو محمد عبد الملك (ابن هشام), قدّم لها وعلّق عليها وضبطها: عبد الرؤوف سعد, دار الجيل, بيروت, ١٩٨٧م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب, أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي, دار الفكر.
- شرح الصولي لديوان أبي تمام, تحقيق: د. خلف نعمان رشيد, ط١, مؤسسة الخليج, الكويت.

- شرح المرزوقي (شرح ديوان الحماسة), لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (٤٢١هـ), تحقيق: أحمد أمين, و عبد السلام محمد هارون, لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة, ط١, ١٩٥١م.
- شرح ديوان المتنبي, وضعه: عبد الرحمن البرقوقي, دار الكتاب العربي, بيروت, ١٩٨٦م.
- شرح شعر المتنبي, لأبي القاسم إبراهيم بن محمد الزهري الأندلسي المعروف بالإفليلي (٤٤١هـ), تحقيق: د. مصطفى عليان, مؤسسة دار الرسالة, ط١, ١٩٩٢م.
- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف (ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية), هنري بيرس, ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي, دار المعارف, ط١, ١٩٨٨م.
- الشعر الأندلسي (بحث في تطوره وخصائصه), إميليو غيرسية غومس, ترجمة: د. حسين مؤنس, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة, ط٢, ١٩٥٦م.
- الشعر السياسي الأندلسي في عصر ملوك الطوائف, د. محمد شهاب العاني, ط١, ٢٠١٠م, دار دجلة, الأردن.
- شعر الطبيعة في الأدب العربي, سيد نوفل, مطبعة مصر, القاهرة, ١٩٤٥م.

- الشعر في ظل سيف الدولة, د. درويش الجندي, ط١, ١٩٥٩م, مكتبة الأنجلو المصرية.
- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه, إليزابيث درو, ترجمة: د. محمد إبراهيم الشوش, ١٩٦١م, منشورات مكتبة منيمنة.
- الشعر والشعراء, لابن قتيبة, تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر, دار الحديث, القاهرة, ٢٠٠٦م.
- شعراء أندلسيون منسيون, ويليه فوات الدواوين الأندلسية, صنعة وتوثيق وتخريج ودراسة: د. محمد عويد الساير, دار الكتب العلمية, ط١, ٢٠١٣م.
- الشيعة في الأندلس (الخلافة الحمودية العلوية), د. كاظم شمهود طاهر, دار الكتاب العربي, ط١, ٢٠١٠م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا, الشيخ أبي العباس القلقشندي, دار الكتب المصرية, ١٩٢٢م.
- صفة جزيرة الأندلس, أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحميري, تحقيق: ليفي بروفنسال, دار الجيل, بيروت, ط٢, ١٩٨٨م.
- طبقات الأمم, لأبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (٤٦٢هـ), منشورات المكتبة الحيدرية, النجف, ١٩٦٧م.

- الطبيعة في الشعر الأندلسي, د. جودت الركابي, ط٢, ١٩٧٠م, مطبعة الترقي, دمشق.
- طوق الحمامة, ابن حزم الأندلسي, تحقيق: د. ك. بتروف, مطبعة ليدن, ١٩١٤م.
- ظُهر الإسلام, أحمد أمين, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, ٢٠١٢م.
- العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف, د. رجب محمد عبد الحليم, دار الكتاب المصري, القاهرة, د. ت.
- عواصم بني زيري (أشير, القلعة, بجاية, غرناطة, المهدية), إسماعيل العربي, دار الرائد العربي, ط١, ١٩٨٤م.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء, تأليف: ابن أبي أصيبعة, دار الثقافة, بيروت.
- غرناطة وآثارها الفاتنة, د. عبد الرحمن زكي, شركة نوابغ الفكر, القاهرة, ط١, ٢٠١١م.
- الفتن والنكبات وأثرها في الشعر الأندلسي, د. فاضل فتحي محمد والي, دار الأندلس للنشر والتوزيع, المملكة العربية السعودية, ط١, ١٩٩٦م.

- فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة, حكمة علي الأوسي, ط٤, ١٩٨٣م, مكتبة المعارف, الرباط.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي, د. شوقي ضيف, دار المعارف, ط١٦.
- في الأدب الأندلسي, د. جودت الركابي, دار المعارف, القاهرة, ط٨, ٢٠١٥م.
- في الأدب الأندلسي, د. محمد رضوان الداية, دار الفكر, دمشق, ٢٠٠٠م.
- في الشعر الأندلسي, د. عدنان صالح مصطفى, دار الثقافة, الدوحة, ط١, ١٩٨٧م.
- في تاريخ المغرب والأندلس, د. أحمد مختار العبادي, دار النهضة العربية, بيروت.
- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس, د. عبد العزيز سالم, ١٩٨٥م, مؤسسة شباب الجامعة, الإسكندرية.
- القاموس المحيط, العلّامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (٨١٧هـ), إعداد: محمد عبد الرحمن المرعشي, دار إحياء التراث, بيروت, ط٢, ٢٠٠٣م.
- القصص القرآني في الشعر الأندلسي, د. أحمد حاجم الربيعي, دار الشؤون الثقافية, بغداد, ط١, ٢٠٠١م.

- قصيدة المديح الأندلسية (دراسة تحليلية), د. فيروز الموسوي, الهيئة العامة العربية للكتاب, ٢٠٠٩م.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان, لأبي نصر الفتح بن عبد الله القيسي الشهير بابن خاقان (٥٢٩هـ), تحقيق: د. محمد مفتاح, دار الثقافة, ط١, ١٩٨٩م.
- الكامل في التاريخ, ابن الأثير (٦٣٠هـ), تحقيق: أبو صهيب الكرمي, بيت الأفكار الثقافية.
- كتاب الأمالي, أبو علي إسماعيل القاسم القالي البغدادي, منشورات دار الآفاق الجديدة (بيروت).
- ما تبقى من أدب العميان في الأندلس, جمع وتحقيق وصنعة ودراسة: د. محمد عويد الساير, و د. محمود شاكر ساجت, دار الكتب العلمية, لبنان, ط١, ٢٠١٣م.
- مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية, د. كمال السيد أبو مصطفى, مؤسسة شباب الجامعة, الإسكندرية, ١٩٩٣م.
- المحاضرة والمذاكرة, موسى بن عزرا, ترجمة: د. عبد الرزاق أحمد قنديل, مركز الدراسات الشرقية, جامعة القاهرة.

- محمد بن عمار الأندلسي (دراسة أدبية تاريخية), د. صلاح خالص, مطبعة الهدى, بغداد, ١٩٥٧م.
- المختار من شعر بشار اختيار الخالدييْن, شرحه: إسماعيل بن أحمد بن زيادة التجيبي, دار المدينة, بيروت.
- المختار من شعر شعراء الأندلس, لابن الصيرفي, تحقيق: عبد الرزاق حسين, دار البشير, عمان, ط١, ١٩٨٥م.
- مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (٤٨٣هـ), المسمّى بكتاب (التبيان), تحقيق: ليفي بروفنسال, دار المعارف, مصر.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر, أبو منصور الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (٣٤٦هـ), المكتبة العصرية, ط١, بيروت.
- المساجد والقصور في الأندلس, د. عبد العزيز سالم, مؤسسة شباب الجامعة, ١٩٨٦م.
- مسالك الأبصار في ممالك الأقطار, لابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ), تحقيق: كامل سلمان الجبوري, دار الكتب العلمية, بيروت, ط١, ٢٠١٠م.
- المسلمون في الأندلس, رينهرت دوزي, ترجمة: د. حسن حبشي, الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, ١٩٩٥م.

- مشاهدات لسان الدين الخطيب (في بلاد المغرب والأندلس), تحقيق: د. أحمد مختار العبادي, مؤسسة شباب الجامعة, الإسكندرية, دون ذكر طبعة, ١٩٨٣م.
- المصادر التاريخية العربية في الأندلس (القرن السابع وحتى الثلث الأول من القرن الحادي عشر), ك. بويكا, ترجمة: نايف أبو كرم, دار علاء الدين, دمشق, ط١, ١٩٩٩م.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس, لأبي الفتح بن خاقان الإشبيلي (٥٢٩هـ), دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة, ط١, ١٩٨٣م, مؤسسة الرسالة, بيروت.
- مع شعراء الأندلس والمتنبي, إميليو غرسية غومس, تعريب: د. الطاهر أحمد مكي, دار المعارف, الطبعة السادسة, ١٩٩٦م.
- المعتمد بن عبّاد الإشبيلي, دراسة أدبية تاريخية, د. صلاح خالص, شركة بغداد للطبع والتوزيع, بغداد, ١٩٥٨م.
- المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب (من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين), عبد الواحد المراكشي, تحقيق: محمد سعيد العريان, لجنة إحياء التراث الإسلامي.

- معجم البلدان, للشيخ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي, دار صادر, بيروت, ١٩٧٧م.
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة, عمر رضا كحالة, ط٨, مؤسسة الرسالة, ١٩٩٥م.
- المُغرب في حلى المَغرب, لابن سعيد المغربي, تحقيق: د. شوقي ضيف, دار المعارف, الطبعة الثالثة.
- مقاتل الطالبيين, لأبي الفرج الأصفهاني (٣٧٦هـ), دار إحياء التراث, بيروت, ط١, ٢٠٠٩م.
- مقامات بديع الزمان الهمداني, أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى (٣٩٨هـ), قدّم لها وشرحَ غوامضها: الإمام العلّامة الشيخ محمد عبده, منشورات محمد علي بيضون, دار الكتب العلمية, بيروت, ط٣و ٢٠٠٥م.
- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ابن حيان القرطبي, تحقيق: د. محمود علي مكي, المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية, لجنة إحياء التراث الإسلامي, القاهرة, ١٩٧١م.
- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي (دراسة موضوعية فنية), د. هدى شوكت بهنام, دار الشؤون الثقافية العامة, ٢٠٠٠م.

- المكان في الشعر الأندلسي, عصر ملوك الطوائف, أمل محسن العميري, مؤسسة الانتشار العربي, مكة المكرمة, ط١, ٢٠١٢م.
- ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري, مصطفى السيوفي, ط١, ١٩٨٥م, عالم الكتب.
- ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام, رينهارت دوزي, ترجمة: كامل كيلاني, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, ط١, ٢٠١٢م.
- مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (٤٠٣هـ-٤٨٣هـ), مريم قاسم طويل, دار الكتب العلمية, ط١, ١٩٩٤م.
- النتف من شعر ابن رشيق, وزميله ابن شرف القيروانيين, تحقيق: أبو البركات عبد العزيز الميمني, المطبعة السلفية, القاهرة, ١٣٤٣هـ.
- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس (مضامينه وأشكاله), علي بن محمد, دار الغرب الإسلامي, ط١, ١٩٩٠م.
- النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين, د. حازم عبد الله خضر, دار الرشيد, العراق, ١٩٨١م.
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري, زكي مبارك, ط١, دار الكتب المصرية, ١٩٣٤م.

- نزهة الجُلَساء في أشعار النساء, جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين أبو بكر بن محمد السيوطي (ت٩١١هـ), حققه ووضع هوامشه, وفصّل فيه: أ. د. محمد حسين عبد الله المهداوي, و أ. م. د. مرتضى كمال آل شلال الياسري, دار الوارث للطباعة والنشر, العراق, ٢٠٢١م.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق, الشريف الإدريسي, مكتبة الثقافية الدينية.
- نصوص من كتاب حانوت عطار, لأبي عامر ابن شهيد الأندلسي, دراسة وجمع وتوثيق: عبد الرحمن بن عايد أحمد المُفضَّلي, معهد المخطوطات العربية, القاهرة, ط١, ٢٠٢٠م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني, تحقيق: إحسان عباس, دار صادر, بيروت, دون ذكر طبعة, ١٩٦٨م.
- نقد الشعر, أبو الفرج قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ), تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي, دار الكتب العلمية, بيروت, د. ت.
- نهج البلاغة, لجامِعِهِ الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى (٤٠٦هـ), تحقيق: السيد هاشم الميلاني, العتبة العلوية المقدسة, ٢٠١٠م.
- الهجاء في الأدب الأندلسي, د. فوزي عيسى, دار الوفاء, الإسكندرية, ط١, ٢٠٠٧م.

- هوية الشعر الأندلسي بين الاستقلال والتبعية للمشرق (شعر القرنين الخامس والسادس للهجرة أنموذجاً), د. صالح محمود محمد الطائي, المكتب الجامعي الحديث, ط١, ٢٠١٢م.
- وصف الحيوان في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين), حازم عبد الله خضر, دار الشؤون الثقافية, بغداد, ١٩٨٧م.
- وفيات الأعيان وأبناء الزمان, لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان, تحقيق: د. إحسان عباس, و وداد القاضي, و عز الدين موسى, ط٢, ١٩٤٥م.
- يهود الأندلس والمغرب, حاييم الزعفراني, ترجمة: أحمد شحلان, مصلحة التعاون والنشاط الثقافي, المغرب, ٢٠٠٠م.
- اليهود في الأندلس, د. محمد عبد المجيد, الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر, القاهرة, ١٩٧٠م.

الرسائل والأطاريح:

- دولة بني حمود في الأندلس (٤٠٥-٤٤٩هـ), ضياء ماجد حسن العبودي, (رسالة ماجستير), جامعة بغداد, كلية التربية, قسم التاريخ, (التاريخ الإسلامي), ٢٠١٣م.

- عبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره (رسالة ماجستير), سعيد أحمد محمد الغامدي, إشراف: حسن عبد الكريم الدراكلي, المملكة العربية السعودية, جامعة أم القرى, كلية اللغة العربية, ١٤٢٠هـ.
- القصور في الشعر الأندلسي (عصر ملوك الطوائف), جمانة محمد عزمي زلوم, رسالة ماجستير, جامعة الخليل, عمادة الدراسات العليا, ٢٠١١م.
- القضايا النقدية في كتاب مسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني، رسالة ماجستير، فازية مصباحي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ٢٠١٢م.
- مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها (٤٢٢-٨٩٢هـ) دراسة سياسية اقتصادية, خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف, رسالة ماجستير, جامعة أم القرى, كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (التاريخ الإسلامي), المملكة العربية السعودية, ١٤٢٦هـ.
- اليهود وأثرهم في الأدب الأندلسي, إعداد: نافزة ناصر الشرباتي, إشراف: د. حسن فليفل, رسالة ماجستير, ٢٠٠٧م, كلية الدراسات العليا في جامعة الخليل.

البحوث والدوريات:

- ابن مقانا الأشبوني, شاعر الدولة الحمودية, د. عدنان محمد آل طعمة, مجلة جامعة أهل البيت (عليهم السلام), العدد (٦), ٢٠٠٨م.
- ديوان المعتضد بن عباد, محمد مجيد السعيد, مجلة المورد, المجلد الخامس, العدد الثاني, وزارة الإعلام, الجمهورية العراقية, ١٩٧٦م.
- السميسر حياته وشعره, إبراهيم حلمي الكيلاني, مجلة مؤتة للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية, الأردن, المجلد السابع, العدد (١), ١٩٩٢م.
- شعر إدريس بن اليمان, د. أحمد عبد القادر صلاحية, مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق, المجلد الحادي والثمانون, ٢٠٠٦م.
- شعر عبادة بن ماء السماء (تـ ٤٢١هـ), جمعُ ودراسةُ, د. محمد حسين عبد الله المهداوي, و د. عدنان محمد آل طعمة, مجلة جامعة أهل البيت (عليهم السلام), العدد (١٣), ٢٠١١م.
- المراثي الحسينية في الأشعار الأندلسية (قصيدَتَيْ ابن دراج القسطلي أنموذجاً), أ. د. محمد حسين المهداوي, و أ. د. عدي حسن الإزيرجاوي, و أ. م. د. مرتضى كمال حريجة, مجلة كلية التربية, جامعة واسط, المؤتمر العلمي الدولي الحادي عشر, نيسان/ ٢٠١٩م.

- مقاصد أدبية في كتاب (نتائج المذاكرة) لعلي بن منجب المعروف بابن الصيرفي (ت ٥٤٢هـ), أ. د. محمد حسين المهداوي, مجلة دواة, العدد (١٢), مج٣, ٢٠١٧م.
- المكونات العربية في الشعر العبري الأندلسي (موسى بن عزرا نموذجا), أمينة بو سميل, بحث منشور, مجلة حوليات التراث, العدد (١٣), ٢٠١٣م, جامعة قسنطينة, الجزائر.
- من أعلام الأندلس: أبو محمد غانم بن الوليد القرشي المالقي (٤٧٠هـ), أخباره وجمع آثاره: عارف عبد الكريم مطرود, مجلة جامعة البصرة, العدد (١٤), ٢٠٠٩م.

Abstract:

literature flourished in in the light of Beni Hemoud and Beni Ziri in Andalus. Caliphs of Beni Hemoud and Beni Ziri approached authors and poets to their sides to be the media device through which people know this or that caliph's merits. This is, in addition to the competition occurring among the castes kings themselves; this, in turn, increased literature movement during this period which forms a part of the two states' age in Andalus.

The political events, also, played a prominent role in pushing the literary activation wheel forward; the matter that increased the poets' desire to write in modern literary subjects. The role of nature can't be neglected' it encouraged poets and authors and inspired them for writing to the extent that some of them started mixing it with other poetic purposes such as flirt and praise

The researcher, in this work. Relied on the literary historical study. It is well known that the task of the literary study is to clarify what is hidden in the literary text including emotions, sensations, and thoughts. Thus, the literary activation is like other human activations which is highly connected with all conditions that surround the birth of literary text. The Andalusi poet in the light of Beni Hemoud and Beni Ziri described his environment where he was born and brought up. These images controlled his mind and sensations when he expressed them in verses.

This active poetic movement, that has multiple sources, helped emerging a group of authors who combined between the two crafts (poetry and prose). Those had written about most prose arts, where their writings were an image to the reality that authors lived then. So, they were affected by the policy, as well as their imagination to the social life reality.

Authorization movement was active as well. Many books during the time of Beni Hemoud and Beni Ziri in Andalus were written, and its scholars surpassed in writing and

authorizing till they reached horizons and exceeded their peers of men of literature and scholars including those who lived with other castes' kings. Unfortunately, most of their literary outcomes had lost and what is left is only few materials.

The researcher, in the current study, depended on a number of sources and references that included literature, history, and poets' collections.

Republic of Iraq

Ministry of Higher Education and Scientific Research

Kerbala University

College of Education for Human Sciences

Department of Arabic Language

Literature in the light of Beni Hemoud and Beni Ziri in Andalus: A Descriptive Study

by:

Haider Sahib Kadhum Al Bu Deggah

A Dissertation submitted to the council of College of Education/ Kerbala University as a Partial Fulfillment for the Requirements of Ph.D. Certification in the Philosophy of Arabic language its Literature

The supervisor:

Prof. Dr. Muhammed Hussein Abdullah Al Mehdawi

(2021 A.D.) (1443 H.)